الكونتيسة
(عَيْشَة قَنْدِيشَة)

الطبعة الأولى
1446 هـ
2025 م

اسم الكتاب: الكونتيسة (عَيْشَة قَنْدِيشَة)
التأليف: نزهة النميلي
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 256 صفحة
عدد الملازم: 16 ملزمة
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2024/3204
الترقيم الدولي: 978-977-6697-935

محفوظة جميع الحقوق

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الناشر.

hakayaproduction@gmail.com
01551751909 _ 01096476744

رواية

الكونتيسة

(عَيْشَة قَنْدِيشَة)

بقلم

نزهة النميلي

عطاوي
للإنتاج الفني

الإهداء

إلى تلك الروح الغالية التي هي جزء من روحي

إلى من غاب جسدها لكن ذكراها في قلبي لا تغيب

إلى جدتي

رحمك الله وأسكنك فسيح جناته

شكر وامتنان

بفضل آرائكم خرجت الرواية بهذا الشكل

الكاتبة سامية أحمد

الكاتبة أسماء الريس

الكاتبة صفاء الجابري

الصديقة ولاء القوصي

الصديقة آية شمس

تقديم

سـلام علـى سَـبْتَة المغـرب أخـــية مـكـــة أو يثـــرب

قال لسـان الدين بـن الخطيب حييت يا مختط سبت بن نوح

بـكل مـزن يغتـدي أو يـروح بـكل مـزن يغتـدي أو يـروح

مغنـى أبي أفضل عياض الذي أضحـت برباه ريـاض تفوح

الأديـب أبـو الحكم مالك بـن المرحل

مقدمة

ألقى الليل بعباءته السوداء المطرزة بالنجوم المتلألئة على سماء مدينة سبتة، بينما يرسل القمر غير المكتمل ضوءه الفضي الباهت على الأزقة الضيقة، تحركت دورية الجنود البرتغاليين تتفقد الشوارع في حركة حذرة. تَخلَّف أحد الجنود عن رفاقه بعدما توقف للحظات، وانحنى يتفحص ما علق بحذائه، ثم عاد يستقيم من جديد، وانطلق ليلحق بزملائه بخطوات وئيدة وهو يتطلع إلى الطريق المظلم أمامه بحذر شديد، توقف فجأة حينما سمع صوتًا ناعمًا يناديه من بعيد: «توقف، إلى أين أنت ذاهب؟». شعر برجفة تسري في جسده فتسمر مكانه غير قادر على الالتفات، ليأتيه الصوت من جديد قائلًا: «ما بك؟ تعالَ إليَّ، ألا تريد أن نقضي معًا وقتًا ممتعًا؟».

استدار ببطء نحو مصدر الصوت ليرى فتاة جميلة تقف على بعد بضع خطوات منه، شابكة ذراعيها خلف ظهرها وعلى وجهها ابتسامة مغوية، بفستانها الأبيض الذي يتمايل مع نسمات الليل الخفيفة، وشعرها الأسود الناعم ينسدل حول وجهها الجميل ليزيدها فتنة، فتح فمه ينظر إليها بذهول، شعر بالتردد لثوانٍ فقط، وسرعان ما تلاشى مع سحر جمالها الذي جعله يتحرك نحوها دون تفكير وهي تمد له يديها تطلب منه الاقتراب، وكلما اقترب منها تراجعت إلى الخلف مطلقة ضحكات متسلية سلبت عقله ليتبعها حتى غادر الزقاق، توقفت أمام بوابة أحد

المنازل ولا زالت الابتسامة تزين ثغرها أسرع الخطى ليصل إليها، مدت كفها وأمسكت بيديه وسحبته إلى داخل البيت، فتبعها بإرادة مسلوبة، وما هي إلا لحظات حتى أطلق صرخة مدوية امتصها ظلام الليل، تاركًا وراءه فقط صدى الرياح الباردة.

* * *

(1)

الرباط 2023

شعرتُ بارتجافة تهزُّ جسدي بالكامل وأنا أنظر إلى تلك المرأة التي ظهرتْ أمامي فجأة من العدم وكأن الأرض أنبتتها أو السماء ألقت بها. فاتنة! أقلُّ ما يمكن أن أقول عنها إنها فاتنة، بشرة بيضاء ناصعة تلمع كلؤلؤة ثمينة، وشعر أسود طويل متموج منسدل على ظهرها، وعلى رأسها تاج من الورود البيضاء، وثوبٌ أبيض طويل يزيدها فتنة، زاد ارتجاف جسدي وأنا أستمع إلى صوتها الدافئ وهي تحدثني بابتسامة مغوية:

«تَقدَّمْ نحوي، لمَ تَقِفُ بعيدًا هكذا؟ اقترب ولا تخفْ فلا يخاف أمامي إلا الجبناء وأنت لستَ كذلك، لمَ تبدو لي مترددًا ألا تُغريك دعوتي؟ تقدم لتستريح بين ذراعَيَّ فلن تجدَ واحة آمنة أفضل من صدري».

تقدمتُ خطوة نحوها دون أن أمتلك الحق في اتخاذ قرار الاقتراب أو الابتعاد، كنتُ مشدودًا نحوها بسحر غريب وكأني فقدت السيطرة على زمام نفسي، قابلتْ تقدمي بابتسامة مغوية جذبتني نحوها أكثر، فتزايدت ضربات قلبي، وبدأ العرق ينضح من جميع مسام جسدي، هاتفٌ بداخلي يطلب مني التراجع قبل أن أسقط في فخٍّ لا خروج منه؛ أحاول لكني لا أستطيع، زاد اقترابي حتى وقفتُ أمامها مباشرة ولم يعد يفصل بيننا شيء، نظرتُ إلى الأسفل لأصطدم بمشهد جمَّد الدماء في

عروقي، لم تكن لديها قدمان بشريتان، بل هي أشبه بخُفَّيٍّ جمل، رفعتُ عيني بسرعة لأجد وجهها وقد اختفت تلك الملامح الفاتنة لتحل محلها أخرى مرعبة؛ حاولت التراجع لكن قدمَيَّ التصقتا بالأرض وقبل أن أصرخ كانت قد أمسكتْ ذراعَيَّ لأشعر بمخالبها وهي تنغرزُ بلحمي، وصوت ضحكة مريبة يتردد في أذني وهي تقول:

«قلتُ لك إنَّ أحدًا لا يرفض دعوتي، سنقضي معًا ليلة رائعة لن تنساها ما حييتْ لأنك لن تعيش أكثر من هذه الليلة...».

بدأت قواي في الانهيار وأنا أشعر بحرارة تلفحني وكأني أعانق كرة من اللهب المستعر، وبدأ الظلام يسحبني نحو عالم اللا وعي لأقاومه بصعوبة مُطلِقًا صرخة مدوية، فجأة عاد الضوء ليغمر الغرفة وأنا أسمع صوت زوجتي وهي تهزني برفق:

- عمر، استيقظ عزيزي ما بك؟

انتفضت برعب وأنا أدير بصري بسرعة في أرجاء الغرفة قبل أن أعود إلى وجه زوجتي الذي يطالعني بقلق، اعتدلتُ جالسًا في فراشي أمسح العرق الذي أغرق وجهي، وأنا أجيبها بصوت مرتجف:

- يبدو أنه كابوس مزعج.زفرتُ أنفاسي المضطربة، ثم عدتُ للاستلقاء مجددًا، وما زلتُ أشعر بتلك الحرارة التي غلَّفت جسدي، أفكر في تلك الزائرة التي أرغمت نومي على الرحيل في ما بقي من هذه الليلة.

* * *

شعور غريب صاحبني منذ استيقاظي على ذلك الكابوس، لم أستطع تجاوزه وأنا في مكتبي بمقر عملي بالمجلة، بعد أن أنهيتُ اجتماعًا روتينيًّا مع فريق العمل لوضع خطة النشر في خلال الشهر القادم، فتحتُ حاسوبي على أحد الملفات الذي سجلتُ به مجموعة من العناوين للمواضيع المرشحة، لأعمل على تنفيذها بغية اختيار أحدها لأبدأ العمل عليه، أخذت أعبثُ بلوحة المفاتيح على الحاسوب دون أن أستقر على شيء، وتفاصيل الكابوس تتكرر دون توقف بمخيلتي، ومعها صورة تلك المرأة، وصوتها المريب يتردد بأذني، انتبهتُ فجأة على صوت هاتفي لألتفتَ نحوه؛ كان الرقم غريبًا فتحتُ الخط واستقبلتُ المكالمة، ورغم الدهشة التي تملكتني وأنا أستمع إلى المتصل إلا أن شعورًا آخر بدأ يتلبسني؛ شعور بالحماس، فما سمعته من المتصل الغريب أضاء ذهني على فكرة تحقيقي الصحفي القادم.

* * *

جلستُ إلى صديقِ طفولتي زكريا في مكاننا المعتاد داخل أحد مقاهي «إقامة الصَّباح» المطلّة على المحيط الأطلسي بالعاصمة الرباط، وأنا أراقب امتداده الأزرق، لعلَّه ينفض عني تلك القبضة التي تعتصر صدري، وأنا أحكي له تفاصيل زيارتها لي في كابوسٍ جديد رأيته الليلة الماضية، استمع إليَّ باهتمام قبل أن ترتسم على وجهه ابتسامة ساخرة، وهو يقول:

– لا أظن أنه مجرد كابوس لا شك أنها رسالة، ويجب عليك فَكُّ رموزها.

– ما الذي تقصده؟

– ربما تكون قد أزعجتها فجاءت لتحذرك.

– ها أنتَ قد بدأت تهذي.

– بل أتحدث بجدية، لقد سمعتُ بعض القصص عن أناس تعرضوا لحوادث غريبة بسبب بحثهم عنها، حتى إنهم اضطروا إلى التوقف فعلًا، فالأفضل أن تنسى الأمر وأنت لا تزال في بدايته.

– كل ما تقوله مجرد خرافة، أولًا لقد بدأت هذه الكوابيس قبل بداية البحث، وبالتأكيد لا علاقة لها بالأمر، لا وجود لشيء اسمه لعنة «**عَيْشَة قَنْدِيشَة**».

أوقفني زكريا برعب وهو يرفع كفه أمام فمي قائلًا:

– بسم الله الرحمن الرحيم، لا تنطق اسمها ألا تخشى أن تظهر لنا الآن؟

– لم أتمالك نفسي لأنفجر ضاحكًا وأنا أرَى ملامح صديقي المرتعبة:

– ما زلتَ تؤمن بتلك الخرافة التي أوهمونا بها في الصغر؟!

– من الممكن أن تكون حقيقة، اسمع يا صاحبي توقف عن ذلك البحث لا أعرف ما الذي يغريك في تحقيق كهذا؟

– تعرف أني مغرم بعلم الماورائيات، وقد قدمت العديد من التحقيقات الصحفية الناجحة، وبالتأكيد عندما أجد أمامي موضوعًا دسمًا فلن أتردد في السعي خلف تفاصيله.

– كل تحقيقاتك السابقة شيء وهذا التحقيق شيء آخر.

تركتُ صديقي بعد انتهاء جلستنا المعتادة، لكني قررت بدلًا من العودة إلى البيت أن أتمشى قليلًا على الكرونيش أستمتع باستنشاق بعض الهواء المعبق برائحة البحر المنعشة، لم أكن مثله أثق بالخرافات، لكن لا أعرف لم أثَّرت كلماته بي، ربما بسبب الكوابيس المتكررة، هل حقًّا أزعجتها ببحثي عن حقيقتها؟ أم أن تلك الأحلام نتيجة انشغالي بها منذ ذلك اليوم؟ عدتُ بذاكرتي إلى الاتصال الغريب الذي تلقيته يومها، والذي كان سببًا في اختيار موضوع تحقيقي القادم «من تكون عيشة قنديشة؟»، صوت ذلك الشاب المرتعب لا يزال يتردد داخل أذني وهو يحكي لي عن المصادفة التي قادته إلى مواجهة تلك الأسطورة وجهًا لوجه، حين اضطر إلى دخول أحد البيوت المهجورة بمدينة طنجة في أثناء فراره من رجال الشرطة:

«كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بساعتين حين استغللت الظلام الذي يُغلِّف أحد الشوارع الجانبية، تسللتُ بخفة أبحث بين السيارات المركونة على جانب الشارع، ربما أجد بينها صيدًا سهلًا، لمحت حقيبة صغيرة على الكرسي الخلفي لإحداها فقررت أن أحصل عليها، فربما تحمل شيئًا قيِّمًا، تأكدت من خلو المكان تمامًا قبل أن أبدأ محاولتي لفتح باب السيارة، لكن لم أكد أصل إلى غايتي حتى سمعت صوت سيارة الشرطة، ودون تردد كنتُ أركض مبتعدًا بأقصى سرعتي، تجاوزت الشوارع والأحياء حتى وجدتني أمام أحد البيوت القديمة الذي أعرف أنه بيت مهجور، لذلك لم أتردد في التسلل إليه من إحدى نوافذه شبه

المفتوحة، قررتُ البقاء داخله حتى أتأكد من ابتعاد الخطر واخترت أحد الأركان المنزوية، ألقيت بجسدي على الأرض متكئًا على الحائط لأنال قسطًا من الراحة، لم يمض وقتٌ طويل حتى رأيتها أمامي بثوبها الأبيض الطويل الذي يغطي جسدها بالكامل فلا يظهر منها سوى وجهها بملامحها الفاتنة، وشعرها الأسود الغجري الطويل. تقدمت نحوي وهي تبتسم لي بإغواء للحظات، تخيَّلتُ أنها إحدى فتيات الليل التي ربما تتخذ من هذا البيت وكرًا لها، فانتفضت واقفًا لأدعوها لمشاركتي الجلسة، لم ترفض بل على العكس اتسعت ابتسامتها أكثر وهي تتحرك بخطوات وئيدة باتجاهي، شعرت بالنشوة، فأخرجت سيجارة لكنني ما إن أشعلت القداحة وانطلقت منها شرارة اللهب حتى تغيرت ملامحها فجأة، فاحمرت عيناها حتى صارتا كقطعة جمر متقد واسود وجهها، وتراجعت إلى الخلف لتختفي من أمامي بشكل جعلني أتجمد مكاني، لم أنتظر لحظة واحدة وقفزت مغادرًا ذلك البيت الملعون، عندما أخبرتُ أحد أصدقائي بما حدث، قال لي إن تلك الشعلة ربما كانت سببًا في نجاتي بأعجوبة من أن أكون فريسة لعيشة قنديشة تلك الليلة».

* * *

جلستُ على مكتبي وأمامي كل المقالات والأبحاث التي وجدتها تتحدث عن هذه الشخصية الأسطورية؛ انتبهت على صوت مُنى التي وقفت بجانبي وانحنت تقلب في الأوراق قبل أن تقول:

– لم أركَ مهتمًّا بأحد تحقيقاتك كما أراك الآن.

ابتسمتُ وأنا أجيبها: «ألا تلاحظين أنها الجملة نفسها التي أسمعها منك مع كل تحقيق جديد؟».

- حقًّا؟

أومأتُ لها لتتحرك وتجلس أمامي وهي تشابك ذراعيها حول صدرها في تذمر: «لأنك مع كل تحقيق جديد تنسى نفسك وتنشغل عني لساعات طويلة، أنسيتَ أننا من المفترض في بداية حياتنا الزوجية ماذا ستفعل إذا ما مرَّ على زواجنا سنوات؟».

- ربما أكون قد مللتُ من التحقيقات الغريبة وأغير نشاطي نحو الصفحة الفنية مثلًا.

- تسخر مني؟

- بالتأكيد.

- ماذا؟

صرخت في وجهي بغضب ارتسمت معالمه على ملامحها الجميلة؛ ضحكتُ وأنا أنحني على المكتب مقتربًا منها: «أقصد بالتأكيد لا عزيزتي؛ لكنِّي جاد بالفعل فيما قلته فلا أحد يعرف كيف تمضي الأمور معنا في المستقبل».

- لا أظنك تتخلى عن تحقيقاتك المثيرة أبدًا، أعرفك جيدًا، وأعرف مدى عشقك لنبش كل ما هو غامض وغريب، أخبرني إذَنْ هل وصلت إلى شيء جديد بخصوص عَيْشَة قَنْدِيشَة؟

ابتسمتُ وقد تذكرت ملامح زكريا عند ذكر الاسم لأسألها:

– ألا تخشين من ذكر اسمها بهذه البساطة؟

– لأنهم يقولون إن مجرد ذكر الاسم كفيل بظهورها؟ لا يا عزيزي أنا لا أصدق ذلك؛ هيا أخبرني ما الذي عرفته عنها حتى الآن.

– حسنًا، بغض النظر عن الأسطورة التي نعرفها منذ الصغر، كل ما وجدته حتى الآن مجرد قصص وحكايات لأناس يقولون إنهم نجوا منها بأعجوبة كتلك القصة التي جاء بها ذلك الشاب الذي اتصل بي، وأخرى لمن قضت عليهم وقُتِلوا على يديها.

– وتظن أنها بالفعل حقيقية؟

– لستُ واثقًا في ذلك، لكن ما لاحظته في تلك القصص أن هناك خلطًا كبيرًا بين أسطورة «عَيْشَة قَنْدِيشَة» وبين «تَكْمَارْتنِسْمِضال»[1].

– ماذا تعني؟

– هو الاسم الأمازيغي لأسطورة «بغلة القبور» والاثنان يتفقان على فكرة واحدة وهي الانتقام من الرجال.

---

(1) تَكْمَارْتنِسْمِضال أو بغلة القبور: أسطورة مغربية تتحدث عن امرأة توفي زوجها، وفي أثناء فترة عدتها وقعت في الزنا مع رجل أحبته فمُسِخَت إلى جنيَّة، بجسد نصفه الأسفل لبغلة والأعلى لامرأة، وهي مغلولة بالسلاسل، وعيناها تقدحان شرارت ملتهبة، تسكن المقابر وتخرج ليلًا لتختطف ضحاياها من الرجال فتقضي عليهم انتقامًا لما آلت إليه بسبب رجل.

– أظن أن هذا الأمر قد يكون مدخلًا جيدًا لتبدأ تحقيقك الصحفي.

– لا زلتُ أريد العثور على المزيد، كل ما وجدته حتى الآن ليس جديدًا، وأنا أريد أن يحمل تحقيقي بصمة مختلفة عن سابقيه.

قامت مُنى من مكانها وعادت لتقترب مني وجذبتني من ذراعي لأقف قائلًا:

– ما رأيك أن تأخذ قسطًا من الراحة، سأدعوك لنتناول الغذاء بالخارج؟

– يبدو أن خلف هذه الدعوة فشلًا في المطبخ كالعادة.

زمت شفتيها متذمرة: «أهذا جزائي لأني أفكر في أن أخلق لك جوًّا يساعدك على التفكير الإبداعي».

كنتُ بالفعل في حاجة إلى الخروج من غرفة مكتبي، والابتعاد عن عشرات الأوراق التي نشرتها فوق سطحه وأنا أتطلع إليها بحيرة من لا يعرف من أين يجبُ عليه البدء، ربما تكون هذه هي المشكلة التي أواجهها دومًا مع بداية أي تحقيق جديد، أو حتى عندما أمارس هوايتي الوحيدة «الكتابة الأدبية»، كلمة البداية التي دومًا ما تستعصي عليَّ لأيام قبل أن أخطها لتكون المفتاح الذي يفتح صندوق أفكاري. انطلقنا نحو المطعم الذي اعتدنا الذهاب إليه وسط المدينة، فمُنى معجبة بأطباقهم، ولم أنجح رغم محاولاتي المتعددة في إقناعها باختيار آخر، اتخذنا مجلسنا كالعادة بالقرب من النافذة، حيث يمكنني التطلعً إلى الشارع ومراقبة المارة؛ تلك العادة التي لا أستطيع بدوري التخلص منها، أعشق مراقبة

حركة الآخرين وانفعالاتهم، هؤلاء الذين لا تصل إليَّ في أحيانٍ كثيرة أصواتهم، فأترك لخيالي حرية رسم قصصٍ وحوارات قد أنقلها على الورق لتكون جزءًا من قصصي الأدبية، حاولتُ طوال الجلسة تبادل الحديث مع زوجتي في أمور كثيرة، مبعدًا تفكيري عن كل ما يخص «عَيْشَة قَنْدِيشَة»، ونجحت في ذلك لساعتين كاملتين.ألقيت ظهري على الكرسي وأنا أتطلع إلى الشارع في انتظار عودة منى من الحمام لنغادر؛ فجأة تجمدت كل حواسي بعد أن وقع بصري على تلك الفتاة التي توقفت عند أول الشارع أمام أحد الباعة، لا أعرف لم سرت رعشة قوية في جسدي ما إن لمحتها، وكأني أُصبت بتيار كهربائي عالي الجهد، تسمرت عيناي على ملامحها التي خُيِّل إليَّ أني رأيتها من قبل في مكان ما، لتعود لي مشاهد كوابيسي أمام عينَيَّ، شعرت بضربات قلبي ترتفع بقوة، وبالعرق يتصبب من جبيني، ونظراتي ثابتة على وجهها، ولم أستفق إلا على صوت منى التي كانت تشدني من ذراعي وهي تسألني بقلق:

- ما بك عمر؟.. ما الذي حدث؟

نظرت إليها بحيرة ولم أستطع أن أجيبها، لكني عدتُ لأنظر إلى الفتاة التي كانت قد اختفت وكأنها لم تكن؛ أدرت بصري أبحث عن الطريق الذي ربما تكون قد سلكته، لكن لم يكن لها أي أثر، نظرتُ إلى منى بحيرة ثم سحبتُ منديلًا لأمسح جبيني المتعرق قبل أن أجيبها بصوت مهزوز:

- لا أعرف، كأني شعرت ببعض الدوار.

- هل أنت بخير؟ ما رأيك أن نذهب إلى الطبيب؟

- لا داعي لذلك، أنا الآن أفضل لنعُد إلى البيت.

غادرنا المطعم وما زالت عيناي تبحثان عن الفتاة التي تبخرت، وأنا متأكد أنها المرأة نفسها التي زارتني في كوابيسي، أيعقل أن تكون مجرد مصادفة؟

* * *

تحركت بخطوات حذرة لأغادر غرفة مكتبي، كنتُ قد بدأت العمل على تحقيقي الصحفي حتى فوجئت بانقطاع النور فجأة؛ زفرتُ بضيق وأنا أنظر ناحية الباب وما كدتُ أقوم من مكاني لأحضر الهاتف حتى وجدتُ الباب يغلق بقوةٍ جعلتني أنتفض برعب، ثم ما لبثت أن شعرت بصوت أنفاس تشاركني الغرفة، بدأ قلبي يضرب بقوة وأنا أنهض متجهًا نحو الباب وسط ظلمة شديدة جعلتني لا أرى موضع خطواتي، قبل أن أسمع صوتًا أنثويًّا خلفي:

- إلى أين؟ أما زلتَ تعتقد أن بإمكانك الهروب مني؟

تسمرت قدماي مكانهما، وشعرت بحرقة في حلقي الذي جف، لم أستطع أن أتقدم نحو الباب لكني التفتت بحذر لأنظر خلفي، وأنا واثق من أني سأراها من جديد، كانت تقفُ بتلك الابتسامة المغوية نفسها وبثوبها الأبيض الطويل، مدت يدها نحوي وهي تقول:

- هذه المرة أنت من دعوتني وأنا لبَّيتُ النداء.

- لم أفعل...

قلتها بصوت مرتجف لأسمع ضحكتها الساحرة التي جعلتني أتحرك نحوها دون إرادة مني.

- تعالَ اقترب لا تخف، أخبرتك أنه لا يخافني سوى الجبناء وأنت لستَ كذلك.

- ماذا تريدين مني؟

- أنتَ الذي تريد ولستُ أنا، وأنا سأمنحك ما تريد.

ودون إرادة وجدتني أتقدم نحوها لأشعر بحرارة شديدة تلفحني جعلت من مسام جسدي تتحول إلى عيون تنضح ماءً دون توقف، أرغب في التراجع لكني لا أستطيع، كأن أطرافي تأبى أن تنفذ أوامر عقلي، اقتربت أكثر حتى لم يعد يفصل بيننا شيء، فجأة بدأت عيناها في الاحمرار بشكل مرعب، واسود وجهها، لم أستطع التوقف حتى شعرت بمخالبها تطبق على وجهي لأصرخ بقوة...

انتفضت برعب لأجد زوجتي تربت برفق على وجنتي محاولة إيقاظي، نظرتُ إليها بتيه لتقول:

- أهو كابوس مرة أخرى؟

أومأت برأسي دون أن أنبس بحرف وأنا أتناول منها كأس الماء التي قدمتها لي متابعة حديثها: «سمعتُ أنينك الذي أيقظني، فخمنتُ أنه كابوس حاولت إيقاظك، لكنك استجبت لي بصعوبة».

– شكرًا لك، لقد أنقذتِ حياتي...

قلتها بدعابة، محاولًا تجاوز تلك المشاعر التي تتلبسني بعد كل لقاء جديد معها.

هذه المرة قررتُ ألا أخبرَ أحدًا بهذا الكابوس، خاصة صديقي زكريا الذي سوف يتمسك بنظرية اللعنة التي تتبع كل من ينبش في أخبار «عَيْشَة قَنْدِيشَة»، ربما بدأتُ بدوري أشك في تلك الكوابيس التي تطاردني، لكن شيئًا ما كان يدفعني إلى الاستمرار بل وعدم التراجع عن الفكرة التي راودتني منذ تلقيت الاتصال وسمعتُ الوصف الذي قدمه لي ذلك الشاب، والمتطابق تمامًا مع المرأة التي زارتني في كابوسي قبلها، هل أنا بالفعل أتمتع بالشجاعة التي تجعلني لا أخشى من مواجهتها؟ أم أن شجاعتي منبعها عدم إيماني بكل الخرافات التي التصقت بسيرتها؟ أم أنها رغبة دفينة لمعرفة حقيقة تلك الأسطورة رغبةٌ أكبر من أي خوف؟.. لا أنكر أن تلك الكوابيس جعلت الأفكار تضطرب بذهني، فأنا عاجز حتى الآن عن تحديد ماهية ما يحدث معي منذ أول كابوس رأيته حتى الآن.

– بالتأكيد هي اللعنة؛ أنتَ تغامر بهذا التحقيق.

كانت كلمات زميلتي في المجلة التي أعمل بها وصديقتي منذ أيام الجامعة «سلوى»، والتي تغيرت ملامحها وبدا الخوف جليًّا عليها وهي تسمع ما قصصت عليها من بعض تفاصيل الكوابيس التي رأيتها، تراجعتُ إلى الخلف متكئًا على ظهر الكرسي، شابكًا ذراعَيَّ حول صدري وأنا أقول لها بسخرية:

– لم أكن أعتقد أنك أيضًا تؤمنين بنظرية اللعنة.

– وما تحليلك للأمر إذَنْ؟

– الأمر بسيط، منذ أيام وأنا أقرأ حكايات «عَيْشَة قَنْدِيشَة»، ولا شك أن العقل الباطن يختزن مثل تلك القصص ليخرجها في شكل أحلام.

– تظن أنك خبير نفسي؟! الأمر يمكن أن يكون أخطر مما تتصور، ثم إني لا أرى أي شيء مثير في تحقيق كهذا الأفضل لك البحث عن موضوع آخر.

– طريقة جيدة لجعلي أتردد في إتمام التحقيق، لكن للأسف أنت تعرفين جيدًا أنني لن أستطيع التراجع عن شيء بدأته قبل أن أصل إلى هدفي.

– وما هو هدفك؟ أن تستدعيها فتأتي لتمزقك أشلاء أو تدفنك حيًّا؟

لم أستطع منع نفسي من الضحك وأنا أتابع الجدية التي تتحدث بها سلوى التي تضايقت، فاستقامت واقفة لتغادر المكتب وهي تقول:

– تسخر من أرائي كعادتك، حسنًا افعل ما يحلو لك وسوف تتأكد من صحة ما أقول.

قمت لأتبعها وأنا أحاول كتم ضحكتي قائلًا:

– لا تغضبي لم أقصد الإساءة بالتأكيد، أنتِ تعرفينني جيدًا.

– وأعرف جنونك طبعًا.

– لهذا أريد مساعدتك، أفكر بعمل لقاءات مع من لديهم قصص عن «عَيْشَة قَنْدِيشَة».

– لن تحصل على شيء فكل تلك الحكايات لن تجدها سوى عند كبار السن تناقلوها دون وجود دليل على صحتها، حتى ذلك المعتوه الذي اتصل بك أشك في صدق روايته.

– تظنين أنه اختلق القصة؟

– أو ربما تخيلها بعد أن ابتلع عددًا من حبوب الهلوسة.

– مع ذلك لا بأس من المحاولة.

– حسنًا، سوف أساعدك لكني سأنشر بريدك الإلكتروني ليتواصلوا معك مباشرة، لا أريد الدخول معك في هذه اللعنة.

كنتُ متأكدًا من أنها لن ترفض مساعدتي من خلال موقعها كمشرفة على صفحة المجلة على الإنترنت، لكني كما قالت لستُ متأكدًا من جدوى هذه الخطوة، أعرف أنها محقة، فكل القصص التي قرأتها حتى الآن تتكرر مع اختلاف بسيط في بعض التفاصيل، لكني مع ذلك أريد البحث عن منفذ مختلف لتحقيقي وبحثي عن حقيقة «عَيْشَة قَنْدِيشَة».

* * *

لم أكن أتخيل أن يمتلأ بريدي الإلكتروني بعشرات الرسائل، جميعها تتحدث عن قصص حقيقية لمواجهة «عَيْشَة قَنْدِيشَة»، طالعتها باهتمام سرعان ما خبا، وقد أدركتُ أني لن أصل إلى أي شيء، فالقصص تكاد

تكون هي نفسها وإن حاول أصحابها إضافة بعض المؤثرات لجعلها تبدو أكثر واقعية وإثارة.

أغلقت البريد ومعه حاسوبي وأنا أزفر بضيق، فيبدو أنني أدور في حلقة مفرغة دون أن أصل إلى نتيجة؛ هل عليَّ بالفعل التخلي عن هذا التحقيق والبحث عن موضوع آخر؟ شعرتُ بضيق يجثم على صدري، فلم أعتد من قبل على الفشل، وها أنا أفشل هذه المرة في فتح محور جديد أتناول فيه أسطورة «عَيْشَة قَنْدِيشَة»، انتبهتُ على صوت زوجتي وهي تقول:

– ألم يحن الوقت بعد لتغادر هذه الغرفة، أنت معتكف منذ ساعات أشعر بالملل بمفردي؟

حاولتُ رسم ابتسامة هادئة وأنا أتحرك نحوها قائلًا:

– بلى، أنا بالفعل أشعر بالتعب.

– ما رأيك إذَنْ أن نتابع فيلمًا على التلفاز؟

اقتربتُ منها لأحيط كتفيها بذراعَيَّ موافقًا على اقتراحها: «كما تريدين».

اتجهنا نحو غرفة المعيشة وأخذت جهاز التحكم لأبحث عن فيلم مناسب، كنتُ أريد أن أطرد ذلك الإحباط الذي سيطر عليَّ وأُصَفِّي ذهني، ربما أستطيع اتخاذ القرار المناسب بشأن هذا التحقيق بعد أن بدأتُ أستسلم لفكرة التخلي عنه، فمهما كان لا أرغب في تقديم تحقيق

عادي للمجلة يمكن لأي صحفي مبتدئ القيام به، توقفتُ عند إحدى المحطات حيث وجدتُ فيلمًا كوميديًّا لنقرر متابعته، بدأت السكينة تتسلل تدريجيًّا إليَّ وأنا أقتنع بأن التخلي عن هذا التحقيق هو أفضل ما أقوم به، لكني ما كدت أشعر بالارتياح لهذا القرار حتى اتسعت عيناي حتى كادتا أن تخرجا من محجريهما، ونظراتي تسمرت ببلاهة على الشاشة أمامي التي عرضت إعلانًا للفيلم القادم:

Kandisha

(قَنْدِيشَة).

(2)

هل أعتبر أن ما حدث دعوة من «عَيْشَة قَنْدِيشَة» لمتابعة الطريق الذي بدأته؟ أم أنها مجرد مصادفة؟ لم أشاهد الفيلم بالطبع فقد تجمدت كل حواسي ما إن رأيت الإعلان، وتملكني شعور بالرهبة لا مثيل له، بقيت لدقائق في حالة صدمة لا أتفوه بحرف، قبل أن يجذبني صوت زوجتي، لأعود من جُبِّ أفكاري إلى الواقع وأنا أحاول أن أخفي كل ما يتردد بداخلي، لا أدري لِمَ تخيَّلتُ أنها سوف تزورني هذه الليلة في أحلامي لتؤكد دعوتها، ولا أعرف أيضًا لم تحمستُ للذهاب للنوم، وكأن حضورها سيمنحني جرأة اتخاذ القرار النهائي بشأن التحقيق، لكن شيئًا من ذلك لم يحدث استغرقت في نومي وسط أحلام متفرقة من هنا وهناك، لكنها لم تتضمن قطُّ حضورها الطاغي.

في اليوم التالي كانت هناك فكرة واحدة قد سيطرت على عقلي أن أعود إلى نقطة البداية، الاتصال الذي كان سببًا في جعلي أفكر في هذا التحقيق؛ أخرجت مفكرتي التي دونت فيها رقم الشاب الذي اتصل بي يومها لأحدد معه موعدًا لمقابلته.

– كنتُ واثقًا من أنه سيرفض مقابلتك..

قالها زكريا وهو يرتشف من كأس الشاي الساخن بتلذذ.

– وما الذي يجعلك متأكدًا؟

– أمران؛ أولهما لأني حتى الآن لا أصدق صحة قصته، والثاني أنه لص وبالتأكيد سيرفض مقابلة صحفي قد يكون سببًا في افتضاح أمره.

– أنا على عكسك تمامًا أصدق ما قاله، فما الذي دفعه إلى البحث عن رقم هاتفي والاتصال بي دون أن يفكر في الاستفادة مني أو نصب فخ للنصب عليَّ مثلًا؟

– ومن قال إن ذلك لم يكن هدفه الأول؟

– لا أظن؛ وإن كنتُ أتفق معك في كونه خائفًا من مقابلتي ربما لا يريد الكشف عن شخصيته.

– أعتقد أنه لم يعد أمامك من حل سوى التخلي عن هذه الفكرة.

– أو ربما الذهاب إلى ذلك البيت المهجور.

تراجعت متكئًا على ظهر الكرسي، وأنا أستمتع بالتطلع إلى ملامح الصدمة التي ارتسمت على ملامح صديقي الذي نظر إليَّ ببلاهة وتبخرت الكلمات من حلقه، فرفع كفه يشير إليَّ في الهواء متسائلًا بصمت عن صدق ما أقول، ابتسمتُ بهدوء وعدت لأتكئ بمرفقي على الطاولة وأنا أهز رأسي تصديقًا على ما سبق، وقلت له:

– أجل، سوف أذهب إلى طنجة وأبحث عن ذلك البيت.

زفر زكريا بعدم رضا قائلًا:

– أنت حقًّا مجنون، أتريد رؤيتها فعلًا؟

– في الحقيقة لا أعرف.

– حسنًا، إن كنتَ حقًّا بهذه الشجاعة فما رأيك أن تقوم باستدعائها؟ لستَ مجبرًا على السفر إلى ذلك البيت المهجور، يكفي أن تبحث عن

مكانٍ خالٍ ربما مقبرة أو شاطئ البحر ليلًا مثلًا، فمن المعروف أن تلك الأماكن الخالية هي أماكن ظهورها وقم بأداء طقوس استدعائها وستأتي إليك في الحال.

كان زكريا يتحدث بانفعال وبعصبية كبيرين، في الوقت الذي أتابعه بهدوء قبل أن أسأله باهتمام:

– هل لديك فكرة عن تلك الطقوس المتبعة لاستدعائها؟

تجمد زكريا مكانه ينظر إليَّ بعدم تصديق قبل أن يسألني:

– هل أنت جادٌّ فعلًا؟

– لِمَ لا؛ ما المانع من التجربة؟

– أتدرك حقًّا ما تقول؟ تريد أن تدخل نفسك في خزعبلات استدعاء الأرواح والتعامل مع الجن؟!

– ها أنت تعترف الآن أنها مجرد خزعبلات فلِمَ كل هذا القلق المبالغ فيه؟

– لأن كل من حاول قبلك دخل في متاهة لا نهاية لها.

– لا تقلق لن أفعل شيئًا؛ ببساطة لأني أعرف أن تلك الأمور مجرد خرافات لا تحدث سوى في الأفلام والروايات الأدبية لا غير.

* * *

اخترتُ إحدى الصخور المطلة على المحيط والبعيدة بعض الشيء عن صخب زوار كورنيش الرباط الذين جاؤوا لقضاء وقت ممتع بمحاذاة البحر، وعن الشباب الذين اختاروا ممارسة رياضاتهم المفضلة في ملاعبه المفتوحة، اعتدتُ دومًا كلما غادرتُ المقهى بعد لقائي بزكريا أن أتمشى قليلًا في هذا المتنفس أو الجلوس لمراقبة المحيط، كما أفعلُ الآن، ربما تساعدني مراقبة امتداد زرقة مياهه على التخلص من أفكاري المشوشة؛ لم يحدث ذلك معي من قبل منذ بدأت عملي الصحفي واخترت البحث في المواضيع الغامضة والمثيرة، ربما لأنها المرة الأولى التي أجد نفسي أقف في مكاني غير قادر على التقدم في الطريق الذي أريد، بل ولا تحديد ما أريده بالضبط، أخرجتُ هاتفي وأعدت الاتصال بذلك الشاب مرة أخرى، محاولًا إقناعه بلقائي، لكنه أصر على الرفض وإن منحني هذه المرة عنوان ذلك البيت المهجور.

أغلقتُ الخط وأنا أتطلع إلى تعاقب الأمواج الهائجة كهيجان الأفكار بداخلي. كانت السماء قد بدأت تتخلى عن زرقتها لتتزين بألوان الشفق الأحمر استعدادًا للتلحف بظلام الليل الدامس، كنتُ أفكر في السبب الذي يدفعني إلى التفكير في الذهاب إلى ذلك البيت. هل أريد بالفعل مقابلتها؟ هل أنتظر أن تظهر لي كما ظهرت لذلك الشاب؟ وإن حدث ذلك ما الذي يفترض بي فعله؟

لا أعرف بالفعل إن كنت أبحث عن مقابلتها أم لا، فأنا حتى هذه اللحظة ما زلت أشك في ظهورها كما يدعي البعض، لكن رغبة دفينة

كانت بداخلي تدعوني إلى زيارة ذلك البيت وكأنها سحر يشدني لأنقاد خلفه دون إرادة.

وقبل أن أغادر جلستي اتخذتُ قراري أخيرًا، وحتى لا أتراجع عن تنفيذ ما عزمتُ عليه أخرجت هاتفي مرة أخرى وحجزت تذكرة عبر الإنترنت للسفر إلى طنجة صباح اليوم التالي، فربما تساعدني هذه الرحلة على التخلص من حيرتي.

* * *

لا يزال أمامي بعض الوقت على موعد الرحلة بعد أن وصلت إلى محطة «الرباط-أكدال» لأستقل القطار الصباحي المتوجه نحو طنجة، اتجهتُ مباشرة نحو الرصيف المطلوب، وجلستُ مخرجًا هاتفي أطالع الأخبار، لكني لم أستطع التركيز في شيء كنتُ فقط أفكر في جدوى زيارة ذلك البيت، شعرت بغرابة ما أنا مقدم عليه فعلى ما يبدو أن مجرد البحث عن قصة «عَيْشَة قَنْدِيشَة» قد أصاب عقلي بلوثة فجعلني أقوم بتصرفات لا منطقية، فكرتُ في التراجع ومغادرة المحطة لكنني لم أفعل بقيت مكاني وعيني على خط السكة الحديدي أراقب امتداده الطويل منتظرًا ظهور القطار الذي لم يتأخر عن موعده المحدد.وصلتُ إلى مقعدي وجلست بالقرب من النافذة أزفر أنفاسي المتوترة، محاولًا اكتساب بعد السكينة والهدوء، لحظات وانطلق القطار يتأرجح على السكة بسرعة فائقة وأنا أراقب النافذة بعينين منهكتين من التعب، فقد عانيت من الأرق الليلة الماضية ونمت لساعات قليلة فقط، شعرت

برغبة في تناول فنجان من القهوة لأستعيد بعضًا من الطاقة، اتجهتُ نحو المقصف وجلستُ أرتشف القهوة الساخنة، فجأة استنشقتُ عطرًا جذابًا ملأ المكان من حولي، ودون إرادة مني وجدتني ألتفتُ بحثًا عن مصدر العطر المميز لتصطدم عيناي بامرأة تتجاوز باب المقصف بخطوات ثابتة لتجلس في المقعد بجواري، لم أستطع إبعاد عيني عنها وأنا أنظر إليها دون أن يطرف لي رمش، فتاة جميلة بقد ممشوق وشعر أسود فاحم متموج طويل تركته حرًّا ينسدل على كتفيها، ترتدي فستانًا أبيض يتجاوز ركبتيها بقليل ويحيط خصرها حزام بلون أحمر، تجمدت نظراتي على ملامحها الرقيقة دون أن أتمكن من السيطرة على نفسي لتنتبه وتبتسم لي برقة، استفقتُ من شرودي على صوتها وهي تقول:

– فنجان قهوة الصباح أمر لا يمكن الاستغناء عنه حتى وإن كنا على سفر.

تنحنحت بحرج وأنا أحاول السيطرة على تلك الرجفة التي سرت بجسدي راسمًا ابتسامة مصطنعة لأجيبها بارتباك:

– بالتأكيد.

لم تفارق الابتسامة الواثقة وجهها وهي تنظر إليَّ معتقدة أن نظراتي نحوها ما هي إلا إعجاب واضح، ولم تكن تدرك أن ذلك الارتباك الذي أصابني لم يكن سوى لأنها نسخة طبق الأصل من صورة «عَيْشَة قَنْدِيشَة» التي زارتني لأكثر من مرة في منامي، ابتلعتُ ريقي وحاولت أن أتحدث إليها دون أن أجعلها تشعر بشيء:

- هل أنتِ معتادة على السفر عبر القطار؟

- أجل، أذهب باستمرار في رحلات عمل إلى طنجة.

- بمفردك؟

اتسعت ابتسامتها وهي تجيبني: «غالبًا».

شعرتُ بالارتباك وأنا لا أجد كلمات يمكن أن أتابع بها الحوار المفتوح بيني وبينها، فكل ما كنتُ أفكر به في تلك اللحظة أنها ربما تكون عَيْشَة تجسدت لتشاركني الرحلة؛ للحظة فكرت ماذا لو أخبرتها أنها تشبه «عَيْشَة قَنْدِيشَة» كيف ستكون ردة فعلها؟ تذكرت عندما كنا أطفالًا كيف كنت أغيظ شقيقتي في أثناء شجارانا اليومي فأنعتها بعَيْشَة قَنْدِيشَة لأثير غضبها، كان الوصف يعني أنها شمطاء وبشعة بشعر منكوش وعينين جاحظتين، لم أستطع منع الابتسامة من الارتسام على وجهي وأنا أقارن بين الوصف الذي كبرنا عليه وبين ما رأيته في منامي وأراه أمامي الآن، التفتُّ نحوها عائدًا من شرودي وهي تسألني:

- لم تخبرني ما اسمك؟

- عمر... اسمي عمر.

- وأنا اسمي سارة وأعمل في شركة للسياحة.

- تشرفتُ بمعرفتك.

تبادلنا حوارًا قصيرًا قبل أن أعتذر لها عائدًا إلى مقعدي داخل مقصورة القطار، أردت أن أهرب منها ومن الحيرة التي تملكتني وأنا

أتساءل عن معنى هذه المصادفة التي تكررت للمرة الثانية، هل هي بالفعل نسخة من عَيْشَة؟ أم أنني أنا من صرت أرى صورتها في الوجوه من حولي؟ جلست مكاني أراقب الطريق محاولًا إبعاد تفكيري عنها، لكني ما لبثت أن استنشقت ذلك العطر من جديد، وقبل أن ألتفت كانت سارة تجلس في المقعد الخالي بجواري وهي تقول بابتسامة واسعة :

– يا لها من مصادفة!

نظرتُ إليها ببلاهة وأنا لا أفهم ما تقصد، لتضحك بدلال مبالغ فيه مشيرة إلى رقم المقعد أعلى النافذة: «أقصد أن أرقام مقاعدنا متجاورة».

ابتسمت محاولًا التغلب على ارتباك حضورها قائلًا :»معك حق».

ربما هي ليست مجرد مصادفة عادية، بل هي رسالة ما من عَيْشَة لتخبرني أني أُلبِّي دعوتها مسحوبًا بسحر لا قبل لي بمقاومته، نظرتُ إلى ملامحها التي أحفظها جيدًا ولا يزال السؤال بداخلي إن كانت هي حقًّا وتلعب معي لعبة لا أعرف ما الغاية منها، انتبهتُ إلى شرودي فسألتني باهتمام:

– تبدو لي شاردًا هل هناك مشكلة؟

– كلا، أنا فقط مشغول الفكر بأحد التحقيقات الصحفية التي أبحث فيها.

– أنت صحفي إذَنْ! هذا جميل، كنت أعشق مهنة الصحافة، لكني للأسف لم أستطع الالتحاق بالمعهد واخترتُ دراسة مجال السياحة.

– مهنة المتاعب كما يقولون، أعتقد أن السياحة أفضل بكثير.

– ربما؛ لكن أظن أن لكل مهنة متاعبها الخاصة.

أومأت برأسي والتفتُّ نحو النافذة أطالع الطريق، لم أكن أرغب في متابعة الحديث معها، فأنا لا أشعر بالارتياح لنواياها سواء كانت عَيْشَة فعلًا أم لا، ولا أعرف إن كانت فطنت لتهربي منها، لكنها أخرجت هاتفها تتصفحه بصمت، لم تمضِ سوى دقائق حتى سمعتها تسألني من جديد:

– هل يوجد قابس للكهرباء هنا شحن هاتفي على وشك النفاد؟

رفعت حاجبي باستغراب لكني تمالكت نفسي وأنا أشير إليه دون كلمة، التفتُّ مرة أخرى حتى لا تنتبه إلى الضحكة التي كانت على وشك مغادرة شفتي بالطبع، أدركت أنها كانت تلمح لأطلب رقم هاتفها بعد أن اقترب القطار من الدخول إلى محطة طنجة، فلا يمكن أن تكون على جهل بتفاصيل القطار وهي من قالت إنها معتادة على السفر باستمرار، تظاهرتُ بعدم الفهم وشكرت الله أني اخترت السفر عبر القطار السريع «البراق»، حيث لا تستغرق الرحلة سوى ساعة واحدة تقريبًا، ولم يتبقَّ سوى دقائق لنصل إلى محطة طنجة.

* * *

ما إن توقف القطار في محطته الأخيرة حتى ألقيت عليها كلمات وداع مقتضبة، وأسرعت لأغادر، انفتحت الأبواب لتنساب تيارات المسافرين نحو الرصيف وكل منهم يستعد لمغادرة المحطة سريعًا

نحو وجهته في هذه المدينة الساحرة؛ كانت المحطة مزدحمة، والناس يتحركون بسرعة يَجُرُّون خلفهم حقائبهم وكأنهم في سباق مع الزمن، مشهد مثير جعلني أتوقف للحظات أراقبه باهتمام، يتملكني شعور بالحماس والتوتر في الوقت نفسه، فأنا أيضًا على وشك بدء مغامرتي العجيبة، تحركتُ مغادرًا باب المحطة لكنني توقفت مرة أخرى وقد انتبهتُ إلى أمر هام لم أكن قد فطنتُ له وأنا أحجز تذكرتي بالأمس؛ فلا يزال الوقتُ مبكرًا ونحن في بداية اليوم، وبالتأكيد إذا ما اتجهت إلى ذلك البيت فلن أستطيع التسلل إليه دون أن يراني أحد، لم يكن أمامي أي حل سوى انتظار المساء قبل التوجه إلى هدفي.

تحركت مغادرًا نحو شوارع المدينة المزدحمة لأبدأ جولتي السياحية حتى يحين الوقت المناسب، لم تكن المرة الأولى التي أزور فيها هذه المدينة الساحلية الجميلة، عروس الشمال كما يطلق عليها لذلك، كنتُ أعرف بعضًا من معالمها السياحية المميزة، لكني اخترت أن أتوجه أولًا نحو المكتبة، فقد أردتُ أن أبحث قليلًا بين المراجع التاريخية، فربما أجد وثيقة أو كتابًا أستفيد من معلوماته في أبحاثي، ولأن المكتبة هي المكان الوحيد الذي يمكنني أن أقضي فيه الساعات دون أن أشعر بها، وبالفعل نسيتُ ما جئتُ من أجله وأنا مستغرق في قراءة كنز الكتب التاريخية التي وجدتها، ولم أتوقف إلا بعد أن شعرت بالجوع يقرص معدتي بشدة لأغادر المكتبة بحثًا عن مكان أتناول فيه طعامي، قبل أن أتوجه نحو مقهى «الحافة» الشهير في المدينة لأقضي به ما تبقى من وقت النهار، دخلتُ المقهى الذي شيد على خمس طبقات الواحدة فوق الأخرى كأنها سلالم تطل على منظر

ساحر للبحر الأبيض المتوسط وجزء من الأطلسي؛ كان المقهى كالمعتاد ممتلئ عن آخره بأمثالي من الباحثين عن اقتناص لحظات من الهدوء واستنشاق بعض النسمات النقية إلى صدورهم بعيدًا عن صخب المدن وازدحامها، وجدتُ مكانًا شاغرًا لأجلس وأطلب كأسًا من الشاي بالنعناع؛ لم تكن المرة الأولى التي ألج فيها هذا المقهى التاريخي الذي تجاوز عمره المئة عام؛ ومنذ زيارتي لها أول مرة حتى أغرمت به وأنا أستمتع بسماع هدير الأمواج وصوت النوارس التي تحلق بين ضفتي المتوسط، مرَّ الوقتُ سريعًا وأنا أنعم بلحظات هادئة أضفت السكينة على روحي قبل أن أغادره نحو ساحة مرشان ومنها متجهًا نحو المدينة القديمة؛ بدأت التجول عبر الأزقة التاريخية أتفرج على البيوت العتيقة التي يغلب عليها الطابع الأندلسي ومحلات الأكلات الشعبية المختلفة التي كانت الروائح المنبعثة منها تحرك عصافير البطن، أثار انتباهي دكان صغير ممتلئ عن آخره بالكتب القديمة التي صُفَّت فوق بعضها بعضًا، ووضعت أخرى أمام واجهة المحل كيفما اتُفق، تقدمت نحوه ووقفت أتأمل عناوين الكتب المعروضة والتي تنوعت بين الكتب الإسلامية والقانونية وبعض المجلات والروايات القديم منها والجديد نسبيًّا، وكعادتي دومًا أضعف أمام الكتب، وجدتني أجلس القرفصاء أمامها وأبدأ في تصفح كل ما يثير انتباهي من العناوين المعروضة، خاصة تلك التي أشتم بها عبق التاريخ فجأة انتبهت إلى صوت البائع الذي وقف إلى جواري قائلًا:

– إذا كنتَ تبحث عن كتب تاريخية فلديَّ مجموعة منها في الداخل أظن أنها قديمة جدًّا وربما تعجبك.

استقمت واقفًا وأنا أجيبه موافقًا: «يمكنني رؤيتها طبعًا».

التف عائدًا إلى داخل دكانه، لحظات ثم عاد يحمل بين يديه مجموعة من الكتب، أخذتها منه أتفحصها باهتمام شديد، وقد بدا أن ما بين يديَّ مجموعة من المخطوطات التي ربما تعود إلى العهد الأندلسي، معظم الأوراق كانت بالية بدأت تتآكل أطرافها وضاعت منها بعض الكلمات التي تشكل بداية أو نهاية الأسطر، انتبه البائع لما أتفحصه فأسرع قائلًا:

– لقد حصلتُ عليها وهي بهذه الحال يبدو أنها لم تكن محفوظة بشكل جيد ولكن محتواها لا يزال كما هو.

– بل ينقصه الكثير...

قلتها ببرود جعل البائع يتوجس من ضياع صفقة سوف تخلصه من كتب لن يجد من يهتم بها فأسرع يقول: «سوف آخذ ذلك بعين الاعتبار في أثناء اتفاقنا على السعر إن أردت اقتناءها».

لم أرفع رأسي وأنا أتفحص الكتب بفتور، كنت بالفعل أفكر في التخلي عن فكرة اقتنائها، فلا أعرف إن كنت سأجد بها ما يروي فضولي في القراءة التاريخية أم لا، لكن يديَّ التي كانت تقلب في الأوراق توقفت فجأة عند أحد المخطوطات الذي كتب بخط عربي بديع، وما إن قرأت أولى الجمل حتى شعرت برغبة قوية في متابعة القراءة، فقد كانت الكلمات أشبه بسيرة ذاتية، شدتني الكلمات حتى إني لم أعد أستمع إلى ثرثرة البائع الذي يحاول إقناعي بإتمام الصفقة، رفعتُ رأسي أنظر إليه لأسأله بجمود: «كم تريد ثمنًا للمجموعة كاملة؟».

- 300 درهم.

- بل سأعطيك 100 درهم فقط، فأنا لا أعرف إن كنتُ سوف أستفيد منها أم لا.

- ولكنها مجموعة كتب تاريخية قديمة.

- ليس كل قديم قيِّم.

قلتها بسرعة وأنا أمدُّ له الكتب متظاهرًا بعدم الرغبة في الحصول عليها، لكنه لم يأخذها مني بل رفع كفه يحك رأسه بتفكير قبل أن يمد لي يده قائلًا: «الله يسَّخر».دفعت إليه الدراهم ثم وضعت الكتب بحقيبتي وأنا متلهف لأنهي المهمة التي جئت من أجلها، لأتفرغ لقراءة تلك المخطوطة التي شدَّتْ انتباهي.

كانت الشمس قد بدأت تميل إلى الغروب، وأنا ما زلتُ أتجول باحثًا عن العنوان الذي أخبرني به ذلك الشاب حتى وصلتُ إلى الحي المطلوب، وقفتُ أمامه قليلًا وقد بدأت ضربات قلبي يرتفع وجيبها بعد أن صرتُ أقرب ما يكون منها، تحركتُ بخطوات بطيئة ومرتبكة أبحث عن ذلك البيت المهجور الذي يوجد حسب معلوماتي في الجهة الشمالية في نهاية الحيِّ، كنتُ كلما اقتربت منه زاد اضطرابي وزاد ارتباكي، وأنا أسأل نفسي وماذا بعد؟ ما الذي يفترض بي فعله حين أصل إليه؟

لم يطل تفكيري ولا حيرتي حتى وجدتني أقف أمام بيت قديم من طابق واحد مبني على الطراز الأندلسي، وبالطبع لم أحتج إلى الكثير

من الوقت لأعرف أن هذا البيت هو هدفي الذي خضتُ هذه الرحلة من أجل الوصول إليه، فقد كان هو البيت الوحيد ذو جدران باهتة الألوان، ونوافذه مغلقة بشبابيك خشبية قديمة جدًّا مكسورة، توقفتُ أمامه أتطلع إليه برهبة حتى لم أعد أحسُّ بأي شيء من حولي، انتفضتُ فجأة برعب عندما شعرتُ بلمسة على كتفي التفتتُ مذهولًا لأجد شابًّا يبدو أنه من سكان الحي يسألني:

– هل أستطيع مساعدتك؟ تبدو لي غريبًا عن هنا.

تنحنحت لأُجليَ صوتي قبل أن أجيبه:

– أجل كنتُ أريد أن أسأل عن أهل هذا البيت؟

نظر لي باندهاش، ثم رفع كتفيه علامة على الجهل وهو يقول:

– لا أعرف، ولا أظن أن أحدًا يعرف من يكون أصحابه، منذ أن وعيتُ وجدته بيتًا مهجورًا.

– لكن ربما يكون له مُلاك، حتى وإن لم يسكنه أحد كما تقول منذ سنوات؟

– ربما، لكن لماذا أنت مهتم به هل تبحثُ عن شخص معين؟

– كلا، أنا صحفي وأقوم ببحث عن البيوت العتيقة بالمدينة خاصة تلك التي تحمل البصمة الأندلسية للموريسكيين الذين قدموا من الأندلس بعد سقوطها.

– فهمت، لكن للأسف أعتقد أنك لن تجد هنا من يدلك على أصحاب هذا البيت، فكما أخبرتك هو مغلق منذ سنين، ولم يأتِ إليه أحد من قبل.

التفت الشاب واقترب مني مخفضًا صوته وهو يتابع: «لا أخفيك سرًّا إننا نخشى المرور بجانبه ليلًا، يقال إنه صار مسكنًا للأشباح».

– هل رأيتم أي شيء يؤكد ما تقوله؟

– عن نفسي لم أرَ شيئًا قطُّ، لكن الجميع يردد بعض القصص التي لا أستطيع تأكيد صدقها.مثل ماذا؟

– القصة الأشهر على الإطلاق هي تلك التي تخص أحد الأشخاص الذي قيل إنه حاول اقتحام البيت قبل سنوات والسطو عليه، باعتبار أنه لا صاحب له، ورغم تحذيرات الأهالي إلا أنه كسر الباب ودخل، لكن لم يمضِ سوى دقائق حتى رآه الناس يخرج هاربًا ممتقع الوجه وكأنه رأى جَحيمًا بالداخل، ويصرخ بصوت مرتعش: «المُسَامَحَة لم أكن أقصد أنا طَالْب التَّسْلِّيم يا أهل المكان».

– وهل عرفوا ما حدث له؟

– كلا، يقولون إنه منذ خرج لم يتوقف عن الركض هنا وهناك وهو يكرر الجملة نفسها.

– تقصد أن الرجل فقد عقله؟

– بالضبط، في الحقيقة أنا لم أره من قبل فقد مات بعد الحادث بأشهر قليلة، لكن الأهالي المتقدمون في السن يؤكدون لنا صحة الحكاية.

عدتُ أنظر إلى البيت مجددًا وما زلتُ أشعر بتلك الرهبة تجاهه قبل أن أعود إلى الشاب الذي تحدث إليَّ قائلًا:

– يمكنني أن أدلك على بيوت أخرى هنا في الحي أو في الأحياء المجاورة قد تفيدك في البحث الذي تقوم به.

شكرته بعد أن دونت المعلومات التي قدمها لي، متظاهرًا أنها بالفعل ما أبحثُ عنه، ثم غادرت الحي ولا أعرف إن كنتُ سأعود إليه مجددًا بعدما سمعته أم أعود أدراجي، لم يكن اتخاذ القرار بالأمر اليسير، بقيت أتجول بين الأحياء وساعات الليل تمضي بسرعة كبيرة، أخرجتُ هاتفي لأبحث عن مواعيد رحلات العودة نحو العاصمة، نظرتُ إلى الساعة لأصدم بأنها تجاوزت الحادية عشرة ليلًا، ولم يتبقَّ على موعد آخر قطار سوى ربع ساعة، لن تكون كافية لألتحق بالمحطة، تسمرت مكاني وأنا أفكر كيف مرَّ الوقت بهذه السرعة دون أن أنتبه، الآن صرتُ مجبرًا على المبيت في طنجة، وقبل أن أفكر أين يمكن أن أذهب تسمرت نظراتي على مدخل الحي الذي أقف على أعتابه، لقد قادتني خطواتي مرة أخرى إلى الحي نفسه حيث البيت المهجور.

* * *

(3)

تجمدتُ مكاني وأنا أنظر إلى الشارع الضيق الذي يفصل بين بيوت الحي القديم الذي خلا من المارة في هذا الوقت المتأخر من الليل، ما زلتُ أجهل كيف عدتُ إليه مجددًا، هل قادني سحرها بالفعل إلى هنا؟ أم أنني فقط فقدتُ البوصلة لأعود دون أن أنتبه إلى الاتجاه الذي أتحرك فيه؟ وقفتُ وأنا أمام خيارين إما التراجع لأبحث عن فندق أقضي فيه ليلتي، وإما أن أكمل مغامرتي نحو نهايتها، والتوجه نحو ذلك البيت من جديد.

ودون أن أفكر كانت قدماي قد تحركتا بالفعل حتى وجدتني أقف أمام بابه مرة أخرى، رفعت رأسي أنظر إلى الباب الخشبي المقوس ذي الدفة الواحدة والذي عليه نقوش بارزة، اقتربت أكثر مشعلًا كشاف الهاتف لأتفحص تلك النقوش عن قرب والتي بالتأكيد هي من رسم فنان مبدع، كانت عبارة عن أشكال هندسية مختلفة مرتبطة ببعضها بعضًا لتعطي رسومًا غاية في الجمال والدقة، تتخللها بعض الأحرف العربية، حاولت جمعها لأرى إن كانت تشكل كلمات مفهومة، أم أنها وضعت فقط كنوع من الزينة العربية:

الدِّينُ ناداكُمْ وفَوْقَ سروجِكمْ

غوثُ الصريـخِ وبغيةُ المسـتنرِ

رفعت رأسي بدهشة، فعلى ما يبدو أنه بيت شعري كتبه أحدهم

على باب البيت، لا شك إذا أن هذا المنزل كان سكانه من الموريسكيين القادمين من الأندلس، رفعت كفي أتلمس الباب بإعجاب شديد، لكني وجدته يتحرك ببطء مصدرًا أزيزًا قويًّا، تراجعت خطوة إلى الخلف أنظر إليه بصدمة، كان القفل القديم الصدأ لا يزال في مكانه، لكن مع ذلك شعرت بالباب يتحرك تحت كفِّي، عدت مرة أخرى لأدفعه بحذر فعاد ليصدر الصوت نفسه، وهو يتحرك إلى الخلف، ولم تكن سوى لحظات وانفتح أمامي ليستقبلني ظلام شديد، تقدمت بخطوات مترددة لأتجاوز الباب المفتوح مسلطًا ضوء الكشاف نحو الداخل لأتبين موضع خطواتي، لكني ما كدت أتجاوز العتبة حتى سمعت صوته يغلق بقوة كبيرة حتى خُيِّل إليَّ أن الأرض اهتزت تحت قدميَّ من شدتها، التفتت بسرعة وقلبي ينتفض برعب لأتوقف بصدمة أكبر، فلم يكن هناك أي أثر للباب الذي دخلت منه، فقط جدار يسد مكانه، تزايدت ضربات قلبي وأنا أتفحص الحائط، ربما أعثر على أي فجوة، وقد أدركت أني من دون شك دخلت الفخ بقدمي ولا أعرف كيف يمكنني الخلاص، زفرت زفرات متتالية محاولًا التحكم في الارتجافة التي تهز جسدي بقوة، مفكرًا في طريقة أخرج بها من هذا البيت الملعون، استدرت مجددًا نحو الداخل، كان الظلام شديدًا جدًّا فلم أستطع تبين أي شيء، تذكرت ما قاله ذلك الشاب الذي سبق واتصل بي وأنه دخل البيت من إحدى النوافذ المفتوحة فقررت البحث عنها، تحركت بمحاذاة الحائط ويدي تتحسانه بحثًا عن أي نافذة، لكني لم أصطدم سوى ببعض الحشرات التي تتخذ من ثقوبه سكنًا لها.

طالت حركتي ولم أجد شيئًا، لا نوافذ ولا أي فتحات نحو الخارج، شعرتُ أني تحركت لمسافةٍ كبيرة ربما أكبر من مساحة البيت نفسه، بدأتُ أشعر بالتعب ولا أعلم إن كان بسبب المشي أم الهلع الذي سيطر على كل ذرة في جسدي، توقفتُ وانهرتُ على الأرض دافنًا رأسي بين كفيَّ؛ ما الذي سأفعله الآن؟ كيف أخرجُ من هذه الورطة؟

تقافزت إلى مخيلتي كل تلك الحكايات التي سمعتها من قبل عن «عَيْشَة قَنْدِيشَة»، كيف تخلصتُ من ضحاياها وامتصت دماءهم لتتركهم جثثًا هامدة؟ هل خضتُ هذه الرحلة لتكون نهايتي على يد جِنيَّة وبطريقة ربما أبشع مما سمعتُ وقرأت؟

أغمضتُ عيني وبدأتْ مشاهد ما سيحدث لتتراقص أمامي، فبعد قليلٍ سوف تظهر لي بثوبها الأبيض الطويل وشعرها الأسود الغجري، تقترب مني لتأخذني إلى جُحرها وأكون وجبتها هذه الليلة، فجأة عدت لأفتح عينيَّ مجددًا وقد تذكرتُ أمرًا: عَيْشَة لا تختار ضحاياها بعشوائية، فهي لا تقتلهم لمجرد القتل هي تنتقم لبنات جنسها من ظلم الرجال، وأنا لم أفعل شيئًا من قبل يستدعي انتقام أي امرأة، علاقتي بكل من حولي كانت جيدة حتى إني لم يسبق أن دخلتُ في أي علاقة غرامية أو واعدتُ إحداهن وأخلفتُ وعدي، الفتاة الوحيدة التي أحببتها منذ الصغر هي مُنى التي راقبتها وهي تكبر أمامي في الحي نفسه وكنت مخلصًا لها حتى دون أن تدرك هي ذلك، اكتفيتُ بمراقبتها عن بعد، كنت كلما صادفتها في طريقي أشعر أن قلبي يكاد يغادر موقعه، دون أن أجرؤ يومًا على الحديث إليها سوى بإلقاء عبارة تحية سريعة، وكنتُ

أطير سعادة عندما تجيبني بابتسامة خجلة، حتى تقدمت لطلبها ما إن شعرتُ بأني على وشك فقدانها؛ أربع سنوات كانت فترة خطوبتنا تحمَّلتْ فيها ظروفي المادية المتواضعة حتى استطعتُ أخيرًا الالتحاق بواحدة من أكبر المجلات في البلد بعد أن أثبتُّ كفاءتي المهنية، بالإضافة إلى عملي في بعض المواقع الإلكترونية، ليتحسن وضعي المادي بشكل كبير لنتزوج أخيرًا. لم أفكر يومًا في غيرها، ولن أفعل، فأنا معها أشعر بالاستقرار والأمان.

ذكرياتي مع زوجتي منحتني بعض الاطمئنان، فرفعت رأسي أنظر إلى هذا البيت الملعون الذي دخلته بإرادتي ويجب أن أخرج منه أيضًا بإرادتي، عليَّ أن أتحرك بحثًا عن حلٍّ دون أن أنتظر ظهورها، تمالكتُ نفسي، واستجمعتُ بعضًا من شجاعتي، لأقف على قدمي من جديد، وجهتُ كشاف الهاتف نحو الداخل، وبدأتُ أتحرك بخطواتٍ حذرة أستكشف المكان؛ كنت في بهو كبير فارغ تمامًا من أي شيء عدا بعض القطع الخشبية الملقاة هنا وهناك، وبعض الحجارة مختلفة الأحجام، والكثير من الغبار وخيوط العناكب المتدلية من السقف والتي تضفي على المكان ظلالًا مخيفة تزيد من وحشته، تحركتُ بضع خطواتٍ ليظهر أمامي باب آخر مفتوح عن آخره، فتقدمتُ نحوه تجاوزته لأجد نفسي داخل غرفة واسعة مفروشة بأثاثٍ قديم، لكنه لايزال محافظًا على جماله، اقتربتُ أتفحص الآرائك الخشبية المنقوشة بشكلٍ بديع أمامها طاولة خشبية بنفس النقوش، لكن شيئًا أثار انتباهي لم يكن هناك ولا ذرة غبار واحدة على الفرش، وكأن أحدهم يحرص على تنظيفه بشكلٍ دائم؛

التفتُّ لأجد أمامي بابين أحدهما على الجدار الأيمن والثاني على الجدار المقابل له، يبدو أنهما لغرفتين من غرف المنزل، تقدمتُ نحو أول الأبواب وفتحته بحذر وأنا أطل برأسي، لكني ما إن نظرتُ حتى وجدتني أرفع ذراعي فوق عيني لحمايتهما من النور الساطع الذي انبعث من خلف الباب، لحظات وعدت لأنظر من جديد متقدمًا نحو الداخل، كان هناك سرير كبير يتوسط الغرفة بأعمدة نحاسية عالية، تواجهه خزانة ملابس كبيرة تغطي الجدار المقابل بأكمله، وفي الجهة التي تحاذي السرير مرآة كبيرة تغطي جزءًا هامًّا من الجدار، انتفضتُ بهلع وأنا أسمع صوت انغلاق الباب من خلفي بقوة، استدرتُ بسرعة أنظر نحوه خشية أن يختفي هو الآخر، لكنه كان لايزال مكانه.

- وصلتَ أخيرًا.

تجمدتُ مكاني ما إن سمعتُ الصوت الأنثوي خلفي، وشعرتُ أن كل حواسي تجمدت، ضممتُ قبضتي محاولًا السيطرة على خوفي، لكنني لم أستطع الالتفات نحوها لأسمع ضحكة رقيقة وجذابة وهي تقول:

- ما بك؟ هل تخشى النظر نحوي؟ أتظن أنك ستجد «عَيْشَة قَنْدِيشَة» تلك الشمطاء التي ترسمها لك مخيلتك؟

زفرتُ أنفاسي المشتعلة، والتفتُّ ببطءٍ لأتجمد مرة أخرى بصدمة؛ كانت المرأة نفسها التي قابلتها في القطار صباحًا، بنفس الثوب الأبيض والحزام الأحمر الذي يحيط خصرها وشعرها الأسود منسدل على ظهرها وكتفيها، سألتها بدهشة:

– هذه أنتِ سارة؟

– أو ربما عيشة!

– أيًّا كنتِ، ما الذي تريدينه مني؟

– أخبرتك من قبل أنك أنت الذي تريد.

– نحن لم نتقابل من قبل.

أطلقت ضحكة عالية وهي تتقدم نحوي بغنج، لأتراجع إلى الخلف بسرعة.

– بل تقابلنا كثيرًا.. (زاد اقترابها مني وما زلتُ أتراجع حتى التصق ظهري بالباب المغلق، لتكمل بصوتٍ هامس)..كثيرًا جدًّا.

ابتلعتُ ريقي بصعوبة وقد لفحتني أنفاسها الساخنة، مدت يدها لتمسك ذراعي لكني رفعتُ كفِّي بسرعة لأبعدها، فتزايدت ضحكاتها:

– هل أنت خائف مني... لا تبدو لي أنك جبان أبدًا.

– ماذا تريدين؟

– ما الذي يمكن أن تطلبه امرأة مثلي، بجمالي الذي لا يقاوم من رجل مثلك، وفي غرفة مغلقة كهذه؟

أنهت كلامها لتتبعه بغمزة وابتسامة مغوية، رفعت كفي خلف ظهري أتحسس الباب باحثًا عن مقبضه، وعيناي لا تفارقانها وأنا أقول لها:

- أنتِ مخطئة، ليس كل جمال لا يقاوم.

- معنى ذلك أنك ترفضني!

وصلت إلى مقبض الباب ففتحته بسرعة واندفعتُ خارج الغرفة، لكني وجدتُ أن الباب الأول الذي دخلت منه بدايةً قد اختفى، ولم يتبقَّ أمامي سوى باب الغرفة الثانية، اتجهتُ نحوه دون تفكير فتحته بسرعة دخلت وأغلقته خلفي وأنا ألهث أنفاسي المتلاحقة، كانت الغرفة غارقة في الظلام فلم أستطع تبين أي شيء بداخلها، لكن فجأة سمعتُ صوت صليل سلاسل حديدية قوي تتخبط على الأرض، نظرت أمامي بهلع لأرى شرارات نارية متطايرة، التصقتُ بالباب خلفي ويدي تبحثان عن المقبض، بدأ النور ينتشر شيئًا فشيئًا داخل الغرفة لتظهر أمامي بشكلها المرعب الذي سحب الدماء من جسدي. لم أكن أحتاج إلى التفكير لأعرف أنني أمام بغلة القبور بشكلها المرعب، جسد بغلة كبيرة بل أكبر من الحجم الطبيعي، بحوافر ضخمة، محاطة بسلاسل غليظة، لكن الجزء العلوي كان عبارة عن جسد أنثى عارية، يتدلى نهداها على صدرها، وشعرها طويل يغطي ظهرها، بملامح شابة، وعينين يتطاير منهما الشرر، ورقبتها محاطة بتلك السلاسل التي تقيدها، تسمرت مكاني وكل ما أفكر به أن عليَّ الخروج من هذا الجحيم، لكن مقبض الباب أبى أن يستجيب لي فجأة سمعت صوتها وكأنه قادم من بئر سحيق وهي تقول :

- لا تخف، لن أؤذيك.

ابتلعتُ ريقي إن كان لا يزال هناك ريقٌ باقٍ بحلقي الجاف، وأنا أحاول التحدث بصوتٍ مرتجف:

- ماذا تريدين مني؟

- أخبرتك صديقتي أنك أنت من تريد وليس نحن.

- أنا لا أريد شيئًا فقط الخروج من هذا الجحيم.

تزايد صوت صليل السلاسل وقد بدأت تتحرك متقدمة نحوي، في الوقت الذي استعصى عليَّ فتح الباب، كان صدري يعلو ويهبط بسرعة، وكلما أفكر به أن حياتي انتهت إلى الأبد شعرت بحرارة عالية تلفحني وقد صارت على مقربة خطوة واحدة مني، أغمضت عيني مستسلمًا لمصيري؛ فجأة سمعت تلك الضحكة المرتفعة لعَيْشَة، ففتحتُ عينيَّ لأجدها أمامي وقد اختفت بغلة القبور، تلفَّتُّ حولي بسرعة بحثًا عنها لكنها لم تكن موجودة، عدت أنظر إلى عَيْشَة التي كانت لا تزال تضحك باستمتاع.

- لم تلعبين معي بهذه الطريقة؟ إن كنتِ تريدين قتلي فافعلي وأنهي هذه اللعبة؟..

- ولم أقتلك؟.. ألم تقل إنك لم تخطئ في حقِّ امرأة من قبل؟

نظرت إليها بصدمة لتتسع ابتسامتها وهي تقترب مني وتابعتْ حديثها بهدوء:

- لا تندهش أنا أعرف كل ما تفكر به منذ وضعت قدمك داخل بيتي وربما قبل ذلك.

– ولأني واثق كوني لم أؤذ امرأة من قبل استدعيت تكمارت نيسمضال، فهي لا تفرق بين ضحاياها وتنتقم من أي رجل يقع تحت يديها أليس كذلك؛ أم أنكما بالفعل شخصية واحدة؟

حركت رأسها نفيًا ثم قالت:

– لكلٍّ منا قصتها، هي تنتقم ممَّن كان سببًا في إغوائها وجعلها تقع في الخطيئة التي لا تُغتفر.

– وأنتِ؟

– أنا، من أنا في نظرك؟

– مجرد جنيَّة خبيثة تستغلين قوتك لتنفيذ جرائمك البشعة ضد أناس لا حول لهم ولا قوة.

– تعتقد ذلك حقًّا؟!

قالت جملتها وتحركت داخل الغرفة بخطوات متغنجة وهي تمسك بخصلات شعرها تلعب بها بين أصابعها، قبل أن تتوقف وتستدير نحوي والابتسامة لا تفارق شفتيها لتقول:

– تقول الأسطورة إنني أنتقم لبنات جنسي من النساء، أختار ضحيتي بعد أن تقوم باستدعائي إحداهن، أو ربما إذا رأيتُ ما حدث لها فأظهر له كامرأة جميلة لا يقاوم فتنتي ويحاول إغرائي لقضاء متعته، وبالطبع لا أرفض، وأستدرجه إلى وكري، في الوقت الذي يظن أنه هو الفاعل، وبدلًا من أن يقضي وطره مني أقضي عليه بأبشع الطرق التي لا يمكن تصورها.. .أليس كذلك؟

لذتُ بالصمت وأنا أنظر إليها، وقد شعرت بنبرة استهزاء واضحة تقطر من بين كلماتها لتكمل حديثها:

– أرأيت ليس هناك ضحية بريئة؛ وكلهم كان طامعًا في مغامرة رومانسية ليست بريئة؟

– ليس كلهم.

– حقًّا! وما أدراك بذلك؟

– سمعت أن البعض تعرض لحوادث قاتلة بعد أن ظهرتِ أمامهم فجأة، وتسببتِ لهم بها.

عادت لتضحك بصوت مرتفع، وهي تشير إليَّ بكفها قائلة:

– وما أدراك أن ما سمعتَه هو الحقيقة؟ أليس من الممكن أنه متوقف وارء رغبة بي؟

رفعت كتفي علامة على الجهل، فأنا فعلًا لا أعلم إن كان ما قرأته وسمعته صحيحًا، بل إني أشك منذ البداية في صدق تلك الروايات، انتبهت على صوتها مرة أخرى:

– أرأيت لا يوجد خبر مؤكد مئة بالمئة.

– وما الحقيقة إذَنْ؟

– تريد الحقيقة التي جئت إلى بيتي بحثًا عنها؟ تريد أن تعرف من أكون؟

- عَيْشَة قَنْدِيشَة، أسطورة الغواية والانتقام.

اقتربت مني مرة أخرى وهي تقول:

- صحيح أنا هي... الكُونْتِيسَّة أسطورة الغواية والانتقام.

مدت كفها لتلتقط كفي فوجدتني أتبعها دون أي مقاومة، وإن كنت لا أعرف إلى أين تأخذني، لكني لم أعد أشعر بذات الخوف بل بدأ اطمئنان غريب يحتضنني، غادرنا الغرفة نحو الغرفة الأولى التي قابلتها فيها حتى توقفنا أمام المرآة الكبيرة لتشير إليَّ:

- انظر هنا.

نظرتُ إلى المرآة وأنا أتوقع أنا أرى انعكاسًا لصورتنا معًا، وقد كان لكن بشكل لم أكن أتوقعه؛ كانت عَيْشَة هي نفسها بنفس الملامح الرقيقة والشعر الأسود الذي كان هذه المرة بشكل ضفيرة طويلة منسدلة على إحدى كتفيها، ترتدي ثوبًا طويلًا مزركشًا بألوان زاهية، وعلى رأسها وشاح ملون، بينما أقف إلى جانبها وأنا أرتدي ثيابًا غريبة لم أرَ مثلها قط، تشبه إلى حد ما تلك التي نشاهدها في المسلسلات التاريخية.سألتها بدهشة:

- ما معنى هذا؟!

- معناه أنك على بعد خطوة واحدة من معرفة الحقيقة التي استدعيتني من أجلها.

جذبت كفي من بين يديها بعنف وأنا أصرخ:

- قلت لكِ سابقًا إني لم أفعل، لم أطلبك أبدًا.

- بلى، فعلت، ربما لم تدرك ذلك لكنك فعلت.

- كيف؟ أعرف أني بحثت عن معلومات تخصك، وأردت أن أقدم تحقيقًا صحفيًّا عن شخصية أسطورية لكن لم أقم باستدعائك أبدًا، وأنا لستُ الوحيد الذي فعل ذلك فهل ظهرتِ لهم جميعًا؟ أم أن ما أخبرونا به ونحن صغار صحيح؟

- وماذا أخبروك؟

- أن مجرد نطق اسمك هو استدعاء.

حرَّكت رأسها نفيًا وهي تبتسم بهدوء لتقول:

- ليس صحيحًا، ولم أظهر لأحد أبدًا، وأنت أول من أقرر مقابلته.

- لماذا؟

- انظر إلى صورتك في المرآة وسوف تفهم.

عدت أنظر مجددًا إلى ذلك الواقف بجانبها للحظات، ثم عدتُ لأنظر إليها قائلًا بغضب:

- هذه ليست صورتي، وهذا ليس أنا.

- الآن بدأت تفهم.

تجمدت مكاني وعدت أنظر إلى المرآة من جديد وقد بدأت الصورة تتضح أمامي، أنا أشبه هذا الرجل الذي يقف إلى جانبها، نفس الملامح تقريبًا، شعرت بكفها على كتفي وهي تقول بنبرة حزينة:

- واسمه أيضًا عمر، جمعتنا أشياء كثيرة مشتركة، كان أولها أن أسماءنا تبدأ بنفس الحرف.

قالتها بابتسامة حزينة فسألتها:

- حبيبك؟

- وزوجي وأخي وأبي وكنزي الذي وهبني الله إياه.

- ما الذي حدث له؟

- السؤال الأصح ما الذي حدث لنا؟

مدت كفها مرة أخرى لتمسك يدي فلم أمانع، وقد تلبستني روح الصحفي الذي على وشك الحصول على كنز من المعلومات غير المسبوقة، تحركت معها نحو المرآة ولا أعرف ما الذي ستفعله بي، ولكني تركت نفسي لها فأنا متأكد الآن أنها لا تفكر بإيذائي، اقتربنا من المرآة، ومدت قدمها أولًا لتجتازها وكأننا أمام باب مفتوح، تبعتها بدوري لأشعر وكأني أهوي بقوة داخل حفرة لا قرار لها، أغمضت عيني واستسلمت لتلك الجاذبية التي تشدني دون أدنى مقاومة.

* * *

(4)

سبتة 1415

«عائشة»

سبتة، مدينتي الفاتنة التي ولدتُ بين أحضانها، دار العلم والعلماء، وصلة الوصل بين المغرب والأندلس، يحتضنها البحر من جهاتها الثلاث ولا يترك لها منفذًا للبر إلا من جهة الغرب فقط، ولدتُ في إحدى الضياع الكبيرة في أطراف المدينة، أبي طبيب مشهور، وأمي أميرة أندلسية فرَّت من قرطبة مع عائلتها بعد سقوطها في أيدي الصليبيين واستقروا جميعًا في سبتة التي تُذكِّرهم بيوتها وأزقتها وشوارعها بتلك التي فقدوها في الأندلس، كنتُ قد أتممتُ عامي السادس عشر وأنا أنعم بحياة مدللة بين أبوين محبين، أنا الابنة البكر التي رزقا بها بعد حرمان لسنوات طويلة، لم يفكر فيها أبي في البحث عن زوجة أخرى، بل أصرَّ على البقاء مع أمي التي يعشقها حتى وإن بقيا دون أبناء، لكن الله عوضهما بي أولًا، ثم بعدها بإخوتي يزيد وفارس.

* * *

كانت الشمس قد بدأت تميل إلى المغيب في سماء مدينة سبتة، وبين أزقتها وشوارعها الضيقة انطلق عثمان يركض ويقفز بسرعة كبيرة كأن أحدهم يتبعه متجاوزًا المارة، حيث كان الجميع في طريق عودتهم إلى بيوتهم بعد انتهاء يوم عمل شاق وطويل؛ وصل إلى أحد المنازل

الموجودة في نهاية الزقاق ليطرقه بقوة، وما إن فُتح أمامه حتى اندفع إلى الداخل صارخًا بأعلى صوته:

- لقد وصلت، أنا جائع.

خرجت من المطبخ وهي ترسم على جبينها تقطيبة مصطنعة قائلة:

- ألن تكف عن الإزعاج؟..

اقتربت منه لتشده من أذنيه فبدأ يتلوى بألم محاولًا التخلص من قبضتها، وهي تتابع حديثها بصوت منخفض: «أخبرتك مرارًا ألا تتحدث بصوتٍ عالٍ، فأنت تزعج شقيقك».

- لم أفعل شيئًا أمي، ألا يحق لي المطالبة ببعض الطعام لأسكت صوت معدتي المتوسلة؟..

- أولًا بدِّل ثيابك المتَّسخة واغتسل، وسوف أحضر لك ما تريد.

قفز عثمان ليقبِّلها من وجنتها وهو يصرخ: «سأفعل حالًا».

ضربت فاطمة كفًّا بكف وهي تتابع صغيرها الشقي الذي انطلق راكضًا قبل أن تلتفت نحو بابِ الغرفة المغلق لتتجه نحوه؛ طرقته بخفة قبل أن تفتحه، ووقفت تنظر نَحو ابنها الأكبر عمر الذي يجلس متربعًا على الأرض أمام طاولة صغيرة فَرَدَ عليها مجموعة من الأوراق، ولا يزال منكبًّا يُدوِّن بتركيز شديد حتى إنه لم ينتبه إلى دخولها، تقدمت بهدوء إلى أن وقفت أمامه وهي تقول بصوتٍ حانٍ:

- ألن تستريح قليلا بُنَيَّ، أنت على هذه الحال منذ وقت طويل؟

رفع رأسه ينظر إليها ليبتسم لها بود قائلًا:

- لا يزال أمامي بعض الوقت لأكمل هذا الجزء الذي بين يديَّ.

- سأحضر الطعام لشقيقك، فما رأيك أن تشاركه؟

كاد أن يعتذر لوالدته لكنه انتبه إلى نظرات الاستجداء التي ترمقه بها ليستسلم لها قائمًا، واقترب منها مقبلًا رأسها:

- حسنًا أمي، لكِ ما تشائين.

ربتت على خده برفق ثم غادرت الغرفة، تابعها حتى ابتعدت ثم استدار يتطلع إلى الطاولة وهو يشعر بفخر مما أنجزه حتى الآن من نسخ للكتاب الذي حصل عليه ضمن مجموعة أخرى من الكتب أحضرها له أحد المهاجرين الفارين من الأندلس ليستقر بالمغرب، توجه نحو النافذة ليفتحها مستنشقًا بعضًا من نسمات الهواء الربيعية العليلة، لكن لم يكد يفعل حتى سمع صوت أمه تناديه فخرج ملبيًا نداءها.

* * *

«عائشة»

استرخيتُ على سريري أداعب خصلات شعري الطويل برفق وأنا أفكر فيما ينتظرني بعد أيام قريبة، قفزتُ فجأة متجهة نحو صندوق ملابسي، وأخذت أقلب ما فيه من أقمشة وفساتين، ثم قمتُ لأغادر الغرفة متجهة نحو حديقة المنزل الواسعة حيثُ كانت والدتي تقف إلى جانب أبي الذي انشغل بالعناية ببعض النباتات الطبية التي يحرص على

غرسها، وقفت بالقرب منهما وأنا أشبك ذراعيَّ خلف ظهري وأحرك إحدى قدميَّ برتابة، فلم أكن أعرف من أين عليَّ البدء بالحديث، التفتت أمي نحوي بعد أن انتبهت إلى حالتي لتسألني:

– ما بك عائشة؟

عضضت شفتي وأنا أبتسم بحرج قبل أن أجيبها:

– أرغبُ في الذهاب إلى السوق لا أزال بحاجة إلى بعض الأقمشة.

نظرت إليَّ أمي باستهجان: «لقد اشتريتِ الكثير، ألم تكتفِ بعد؟».

– ولكن أمي، أنا عروس ويجب أن أجهز نفسي بأفخر الملابس وأحسنها.

– دعي صغيرتي تشتري كل ما تريده.

ردَّ أبي، لأجد نفسي أقفز بسعادة وأتعلق بعنقه وأنا أهتف: «شكرًا لك أبي».

– أنت تدللها كثير يا أبا يزيد.

– من حقها أن تتدلل على أبيها...

قالها وهو يضمني إلى صدره مربتًا على ظهري بحب، ثم تابع: «سوف تتركين فراغًا كبيرًا داخل هذا البيت صغيرتي».

– لا تقل ذلك أبي فسوف أزوركم كل يوم.

– كان الله في عون عمر، لا أعرف أي ذنب جعله يُبتلى بك...

قالتها أمي ممازحة ليجيبها أبي: «بل أخذ جوهرةً لا تقدر بثمن».

– طبعًا، يكفي أنني ابنة كبير أطباء سبتة.

– هكذا إذَنْ اتفقتما عليَّ.

تركتُ والدي وتقدمت نحو أمي جواهر التي كتفت ذراعيها حول صدرها في غضب مصطنع، لأحتضنها برفق محاولة إرضاءها: «بل يزيده شرفًا أنه تزوج من ابنة حفيدة قاضي قضاة قرطبة».

زفر أبي منصور وتجهمت ملامحها إن جاء ذكر قرطبة، ثم استدار ليتابع عمله وقد حلَّقت فوق رأسه سحابة حزن لا تكاد تفارقه منذ زمن طويل، انتبهتُ إلى الأمر فعدتُ أنظر نحوه قائلة: «سيأتي اليوم الذي نستعيد فيه قرطبة وإشبيلية وطليطلة، أليس هذا ما أخبرتني به يا أبي؟ فلم كل هذا الحزن الذي أراه على وجهك كلما جاء ذكرها؟».

– لأني لا أرى بوادر استفاقة يا ابنتي، لم يتبقَّ من ممالك الأندلس المسلمة سوى القليل رندة ومالقة وألميرية وغرناطة، وأخشى أن تضعف هي الأخرى وتسقط كما سقطت سابقاتها.

– لن يحدث ذلك أبدًا يا أبي، لا تقلق، أنا واثقة بأنه سيأتي اليوم الذي نعود فيه إلى قرطبة وأزور ضيعة أجدادي، لا شك أن أشجار الزيتون والبرتقال التي غرسوها لا تزال على حالها، أليس كذلك ؟

ابتسم أبي بحزن وهو يومئ برأسه موافقًا:

– أجل يا ابنتي، أرجو أن يكون ذلك اليوم قريبًا.

* * *

بحماس كنتُ أمشي في شوارع سبتة رفقة مربيتي زينب يتبعنا الخادم خلدون بعد أن سمح لي أبواي بالذهاب إلى السوق وابتياع كل ما أحتاج إليه، لا تكاد الابتسامة تفارق شفتيَّ وأنا أتعلق بذراع زينب التي كانت تشعر بسعادة كبيرة لفرحي، فقد ولدتُ على يديها وتعتبرني ابنة لها، نظرت لي تتأمل تلك السعادة التي تطل من عيني العسليتين دون أن أستطيع إخفاءها لتقول لي مشاكسة:

– أكل هذا الفرح بسبب التسوق، أم هناك شيء آخر؟

ابتسمت بخجل وقد أدركت ما ترمي إليه، فأجبتها متظاهرة بعدم الفهم:

– ماذا تقصدين؟ أي سبب تتحدثين عنه؟.. لا يوجد شيء، أنتِ تعلمين أني أجد متعة كبيرة في التجول في السوق، فهو المكان الوحيد الذي أخرج إليه وأرى أصنافًا جديدة من البشر القادمين من كل بقاع العالم.

– هكذا إذَنْ؛ لستِ سعيدة لأننا ربما نمر بالقرب من مكتبة عمر، وقد نجده هناك يباشر عمله.

هربت بنظراتي وقد تدرجت وجنتاي بخجل، لتضحك زينب وهي تشدني نحوها أكثر مربتة على ظهري بحنو:

– ما هي إلا أيام وسوف تنتقلين إلى العيش معه تحت سقف بيت واحد...

تنهدتْ بحسرة وتابعت حديثها: «لا أعرف كيف يمكننا تحمل البيت من دون مشاكساتك؟.. سوف يصبح موحشًا دونك حبيبتي».

– لا تقولي ذلك، فأنا لن أبتعد عنكم سأكون قريبة دائمًا.

– هيا.. هيا صغيرتي لنسرع نحو السوق لأننا لو تابعنا السير بهذه الوتيرة سوف نصل مع إغلاق الدكاكين...

أومأت برأسي وأنا أقاوم تلك الدموع التي بدأت تتجمع بمقلتي بعدما رأيت ملامح زينب المتأثرة، وصلنا إلى السوق الذي استقبلنا بضجيج الباعة والمتسوقين وحركة الناس في كل اتجاه، والبضائع المعروضة والتي تفتح الشهية لاقتنائها، أوقفنا خلدون فجأة بعدما انتبه إلى الشجار الذي على وشك النشوب بين اثنين من الباعة، تقدم أمامنا لحمايتنا خشية أن نصاب بأي أذى قبل أن نغيَّر اتجاه سيرنا مبتعدين عن المشاجرة.

– ما رأيك أن نذهب إلى دكان التاجر صالح؟.. علمتُ أنه يأخذ بضاعته من تجار جِنوَة لديه أقمشة رائعة، أليس كذلك زينب؟

ابتسمت زينب وهي تجيبني: «أجل هذا صحيح، حتى إنه قريب من مكتبة عمر».

وكزت ذراعها بمرح لنتابع طريقنا نحو الدكان المطلوب، توقفنا عنده نتفحص البضاعة المعروضة وأنا أحاول أن أسترق النظر نحو نهاية الطريق ربما ألمحه واقفًا عند مدخل مكتبته، لكنني لم أصل إلى غايتي رغم أن المحل كان مفتوحًا بالفعل، قفزت إلى مخيلتي ذكرى

لقائي الأول بمن امتلك قلبي منذ اللحظة الأولى، كنتُ أقف نفس هذه الوقفة أقلب في الأثواب وأستمع إلى ثرثرة صاحب البضاعة، وهو يحاول إقناعي بجودتها وتفردها عن أي بضاعة أخرى موجودة في السوق، عندما لمحته يخرج ويقف عند الباب متحدثًا إلى أحدهم، شاب متوسط الطول، ببنية تميل إلى النحافة قليلًا، وسيم بعض الشيء، لكنَّ شيئًا واحدًا جذب نظراتي، لتتسمر على وجهه ابتسامته الجذابة وملامحه التي تبعث على الراحة؛ لم تدم مدة وقوفه فسرعان ما غادر زائره ليعود إلى الداخل، لم أستطع منع نفسي من التقدم نحو دكانه لكني توقفت أمام الباب المفتوح بعد أن اكتشفت أنني أمام مكتبة؛ تطلعت إلى الداخل، كان عمر يجلس خلف مكتب صغير وهو منكب على التدوين، ظللت أراقبه للحظات دون أن أشعر، وكأن ملامحه الهادئة تشدني دون مقاومة، لكنني فجأة انتبهت من شرودي على صوت زينب التي جذبتني من ذراعي وهي تطلب مني التحرك، نظرت إليها دون أن أتحدث أو أتحرك من وقفتي، فجأة رفع رأسه ونظر إلينا، لأشعر بضربات قلبي تزداد وتيرتها، خاصة بعد أن غادر مكتبه وتقدم نحونا راسمًا ابتسامة مرحبة ليسألنا بأدب:

- هل أستطيع مساعدتكما؟

ابتلعت ريقي وأنا أفكر بسرعة في رد لا يجعله ينتبه إلى تلك الفوضى التي تضطرب بداخلي، تنحنحت لأجلِيَ صوتي قبل أن أجيبه بكلمات خرجت همسًا:

- كنتُ أبحث عن كتاب يتحدثُ عن الأعشاب الطبية.

فتح فمه ينظر لي بدهشة انتبهت لها، لأسأله باستفهام:

- هل قلتُ شيئًا خاطئًا؟

رفع كفه يمسح على رأسه بحرج قبل أن يجيب: «لا بالتأكيد أنا فقط لم أتخيل أن فتاة جميلة... عفوًا أقصد أن تهتم فتاة باقتناء الكتب، ظننت أنكما تبحثان عن شخص ما أو عنوان آخر».

- ولماذا؟ تعتقد أن النساء لا يصلحن للعلم؟

تنحنح بحرج قائلًا: «كلا بالطبع العلم ليس حكرًا على جنس دون الآخر، سأبحث لك عن طلبك لكن سيتطلب الأمر بعض الوقت».

- ألا تعرف ما يوجد في مكتبتك؟

سألته بابتسامة مشاكسة لأشعر بتوتره الذي حاول التحكم فيه وهو يرد:

- بلى، لكني أريد أن أرشح لك أفضلها وهو كتاب «الجامع لصفات أشتات النبات» للإدريسي، والحقيقة أني أريد التأكد أن لدي نسخة إضافية هنا.

- لا بأس، يمكنني العودة في وقت لاحق.

غادرت وأنا أشعر بنشوة لا مثيل لها وقد أدركت أنه ظلَّ واقفًا يتابعُ ابتعادي حتى غبت عن مرمى بصره، ما فعلته ذلك اليوم كان شيئًا لم أستطع تفسيره، لكن شيئًا ما بداخلي كان يرغب في مقابلته مرة أخرى،

بل والوقوف أمامه لأسمع صوته وأرى ملامحه المريحة رغم أني لم أفعل أمرًا كهذا من قبل، ولا تخيلت أني قد أفعلها يومًا، عدتُ من ذكرياتي على صوت زينب:

– ما رأيك أرى أن نأخذ من هذا القماش سيكون فستانًا رائعًا؟..

أومأت لها موافقة دون أن أنبس بحرف، لتكمل زينب فصالها للبائع حتى تحصل عليه بثمن مناسب.

* * *

ابتسم منصور بارتياح وهو يضع يده يتحسس جبين الرجل الراقد على الفراش أمامه، بينما تتابعه عينا ابنته بترقب، قبل أن تسأله بقلق:

– ما الأمر؟

– لقد انخفضت حرارته كثيرًا عن الليلة الماضية، سيكون بخير يا ابنتي لا تقلقي.

– حقًّا؟

قالتها أروى وقد لمعت عيناها بدموع الراحة، بعد أن قضت ليلة عصيبة بجوار والدها، وأشد ما كان يُخيفها أن تنتهي هذه الليلة ومعها تنتهي حياة أبيها الذي لا تملك في الدنيا سواه، أكملت حديثها: «سيكون بخير أليس كذلك؟».

– بلى، ولكن لا تتوقفي عن وضع الكمادات المبللة بماء الورد على جبينه حتى تختفي الحمى تمامًا.

تراجع منصور مبتعدًا عن فراش المريض، وأخذ حقيبته ليخرج منها قنينة صغيرة قدمها إليها قائلًا:

– لقد أعددتُ هذا الدواء من أجله، أعطه جرعة الآن وأخرى ليلًا قبل النوم.

– سيكون بخير؟ أعادت أروى السؤال للمرة التي لم تعد تعرف عددها، ليبتسم لها منصور في شفقة قائلًا: «ألا تثقين بي؟».

– بلى؛ أثق بك طبعًا، ولكني لا أستطيع التخلص من هذا الخوف الذي يعتصر قلبي، أخشى فقدانه، ولا أتخيل كيف يمكنني العيش بعده.

– يجب أن يكون إيمانك بالله أقوى من هذا بُنَيَّتي، فالأعمار بيد الله وحده.

تمتمت أروى بخفوت: «ونعم بالله».

حمل منصور حقيبته مستعدًّا للمغادرة، والتفت نحوها قائلًا: «أعطه جرعات الدواء في موعدها، ولا تنسي الكمادات، وبإذن الله سأعود غدًا لأطمئن عليه».

– شكرًا لك عماه، لا أعرف كيف يمكنني أن أشكرك على اهتمامك بأبي.

– لا تشكريني على واجبي، كما أن أباك صديق عزيز وبمنزلة أخ لي.ودعت أروى منصور وعادت لتجلس إلى جوار أبيها تتأمل ملامحه

الساكنة، وضعت كفها على صدره لتطمئن أن أنفاسه لا تزال منتظمة بداخله كما ظلت تفعل طوال الليل، خشية أن تهدأ تلك الحركة الرتيبة لصدره، هي مؤمنة بقضاء الله وأنها لن تستطيع منع الموت إن حان الأجل، لكنها مع ذلك لا تتخيل كيف يمكن أن تكون حياتها من بعده، هل تنتقل إلى العيش في بيت شقيقها الأكبر جابر، مع زوجته مليكة التي تُكِنُّ لها كراهية لا تعرف لها سببًا، أم تبحث عن شقيقها الثاني سليمان الذي سافر إلى فاس لطلب العلم ولم يعد منذ سنوات؟.. والدها يقول لها دومًا إنه يتمنى أن يزوجها قبل رحيله، فلن يطمئن عليها إلا إذا صارت في كنف زوج محب يصونها ويكون لها سندًا، فهو يعرف أن لا عائلة لهم هنا في سبتة منذ أن جاء فارًّا من الأندلس وهو لا يزال طفلًا مع والديه، لكنه فقد والده في أثناء الرحلة ليصل إلى سبتة مع والدته فقط والتي كرست حياتها فيما بعد له وحده، ورفضت الزواج مجددًا من أجله، وهو كان لها نعم الابن البار حتى رحيلها.

زفرت أروى أنفاسها القلقة ورفعت الكمادة من فوق جبينه لتغطسها في ماء الورد البارد، قبل أن تعيدها فوق جبينه بعد أن قبلته بحب، ثم عادت لجلستها إلى جواره تراقبه وهي متمسكة بكفه، ولسانها لا يتوقف عن الدعاء حتى ينجيه الله من هذا المرض المفاجئ الذي أصابه.

* * *

«عائشة»

عاد أبي إلى البيت ليجد أمي بانتظاره، وما إن دخل حتى استقبلته متسائلة بقلق:

– كيف حال الشيخ محمود؟

– بدأ يتحسن قليلًا، الحمد لله حرارته آخذة في الانخفاض، وهذا مؤشر جيد أن جسمه يستجيب للعلاج.

– الحمد لله، أشفق كثيرًا على ابنته فليس لها أحدٌ سواه.

– لها الله يا جواهر.

سمعتُ جزءًا من حديثهما بعد أن غادرت غرفتي وخرجت لاستقبال أبي، فسألت بقلق:

– عمن تتحدثان؟ ما الأمر؟

التفت الاثنان نحوي بعد أن قاطعتهما، وقد ارتسمت علامات القلق على ملامحي، ليجيبني أبي مهدئًا من روعي:

– الشيخ محمود أصيب بحمى شديدة ليلة أمس لكنه اليوم صار أفضل.

– حقًّا! لم يخبرني أحدٌ بالأمر؛ يجب أن أذهب إلى أروى لأكون بجوارها.

– بارك الله فيك يا ابنتي، فليصحبك خلدون إلى بيتها.

– هل يمكن أن أبيت معها الليلة أبي؟

– بالطبع صغيرتي.

قاطعته أمي: «ولكن ماذا إن كان شقيقها معها في البيت؟.. لا يصح أن تكوني هناك».

– لا تقلقي يا جواهر، فذلك الشاب للأسف لن يكلف نفسه عناء البقاء مع والده وشقيقته وترك زوجته بمفردها بحجة أنها حبلى وتحتاج إلى مساعدته، وأنها ربما تلد في أي وقت.

– كيف تلد الآن أبي؟.. أخبرتني أروى أنها لا تزال في شهرها السابع.

– هي مجرد حجج للتهرب من العناية بأبيه...

قالتها أمي باستهزاء ليجيبها أبي:

– لا حول ولا قوة إلا بالله، لا أعرف كيف يمكنه أن ينام مطمئنًّا وهو يعرف أن والده مريض وشقيقته الصغرى بمفردها معه، وبالتأكيد هما بحاجة إلى وجوده معهما في هذه الظروف.

– كل ذلك بسبب تلك الأفعى التي تزوجها...

أجبته وأنا أقطب حاجبَيَّ في غضب قبل أن أتابع: «سوف أذهب لأغير ملابسي، وآخذ معي ما أحتاج إليه للبقاء معها هذه الليلة».

* * *

أغلق عمر مكتبته ثم انطلق عائدًا إلى البيت مع شقيقه الذي كان يصر على أخذه معه ليعلمه نسخ الكتب وتجليدها؛ المهنة التي ورثها عن أبيه الراحل والتي كانت سببًا في عشقه للكتب وللعلم، ومكنته من الاضطلاع على العديد من العلوم في كل المجالات، غير أن عثمان كان عكسه تمامًا لم يكن مهتمًّا بالقراءة، وكل ما يهمه هو قضاء اليوم في اللعب والركض بين الأزقة مع أقرانه.

بدأت الشمس تميل إلى المغيب لتضفي لونًا ذهبيًّا على أزقة سبتة التي تعج بالحركة، والهواء مشبع برائحة البحر الممزوجة برائحة البهارات والأسماك الطازجة من السوق الذي غادره عمر، ليدخل أحد الأزقة الضيقة التي تزينها المنازل البيضاء ذات الأبواب الخشبية المزخرفة، ما كاد يتحرك داخل الزقاق حتى تركه عثمان وانطلق راكضًا بسرعة، صرخ عمر مناديًا إياه ليتوقف، فأجابه ضاحكًا:

- إلحق بي إن استطعت!

- هكذا إذا تظن أني لا أستطيع؛ سوف أمسكك وأعلقك من أذنيك.

- لن تتمكن من اللحاق بي.

- حسنًا سوف نرى.

همَّ عمر بالانطلاق خلف أخيه راكضًا، متخليًا عن رزانته المعهودة، لكنه لم يكد يفعل حتى توقف بصدمة وهو يلمح عائشة تقف تتطلع إليه وعلى وجهها ابتسامة واسعة، شعر بالحرج ليتقدم نحوها متسائلًا:

– ماذا تفعلين هنا؟

– أنا في طريقي لزيارة صديقتي أروى والدها مريض.

– حقًّا؟

– سوف أبيت عندها هذه الليلة أيضًا.

قطب حاجبيه بغير ارتياح وهو يقول:

– هل وافق عمي منصور على ذلك؟

– بالطبع لم أكن لأفعل دون موافقته، ما بك كأنك لا تريدني أن أبيت عندها.

– لا أقصد، ولكن ماذا إن كان شقيقها ذاك؟..

قاطعته بسرعة: «ليس موجودًا، هي بمفردها مع أبيها المريض وبالتأكيد تحتاج إلى مساعدتي».

– وإن حضر؟

– لن يفعل، وعلى كل حال خلدون سيكون بالقرب.

– لا بأس.

ابتسمت عائشة بخجل ولم تستطع أن تمنع لسانها من سؤاله:

– أتخاف عليَّ، أم تغار منه؟

اتسعت ابتسامته وهو ينظر إليها قبل أن يجيبها:

– أنتِ زوجتي، وأنا أغار عليك حتى من الهواء الذي يعبث بوجهك الجميل.

أخفضت عينيها تنظر إلى الأرض هربًا من نظراته التي حاصرتها، وفرت الكلمات منها لتسمعه يضحك بصوتٍ عالٍ، رفعت رأسها وقد رسمت علامات غضبٍ مصطنع وشبكت ذراعيها حول صدرها قائلة: «لماذا تضحك؟».

– بالطبع من منظرك، كأنك تحولتِ إلى شخص آخر.

رفعت أحد حاجبيها في تحفز وهي تتقدم نحوه، ورفعت أصبعها في وجهه قائلة: «ماذا تقصد؟».

رفع كفيه أمامها مستسلمًا: «لا شيء إطلاقًا حبيبتي».

– لحسن حظك أنني على عجلة من أمري وإلا...

– وإلا ماذا؟

رفعت كتفيها مبتسمة لتجيبه بدلال: «في الحقيقة لا أعرف».

عاد إلى الضحك من جديد وهو يقول: «الحمد لله أنك لا تعرفين».

– يجب أن أذهب الآن لقد تأخرت.

– سوف أوصلك.

– لا داعي فمعي خلدون.

– وهل خلدون أحق مني وأنا زوجك؟

– لا بالطبع؛ ولكنك متعب من يوم عمل طويل، ويجب أن تعود إلى البيت لترتاح قليلًا.

– لن أرتاح إلا وأنا مطمئن عليك.

أشار إليها لتتحرك إلى جانبه، حين سمع صوت عثمان الذي كان يقف بالقرب متكئًا على جدار أحد المنازل يتابع بابتسامة مشاغبة: «يبدو أنك نسيت وجودي».

التفت إليه عمر ليرمقه بنظرات ساخطة وهو يقول: «لا أظن أنك يمكن أن تتوه بين أزقة سبتة التي تحفظها أكثر مما تحفظ دروسك؛ عد إلى البيت وسوف ألحق بك».

– وماذا سأقول لأمي إن سألتني عنك؟

أجابه وهو يكتف ذراعيه حول صدره ويلاعب حواجبه بمشاكسة:

– بالتأكيد سأقطع لسانك الطويل يومًا ما.

– أخبرها أنه لا يزال منشغلًا بنسخ كتاب الإدريسي.

التفت عمر نحو عائشة التي كانت تبتسم بتسلية وهو يقول: «هكذا إذا يبدو لي أنكما متفقان على إغاظتي»، عاد ينظر إلى شقيقه قائلًا: «بل أخبرها أني ذهبت لأوصل زوجتي إلى بيت صديقتها، واغرب عن وجهي الآن قبل أن أمسك بك وأمزقك إربًا».

انطلق عمر مع عائشة يغمره شعور قوي بالسعادة لقرب تحقق أهم أمنياته؛ لا يزال يتذكر زياراتها له في المكتبة لتسأل عن الكتاب الذي

أخبرها أنه سوف ينسخه لها لعدم توفره على نسخة جاهزة، في الوقت الذي كان يمتلكها بالفعل فقط حتى تعود مرة وراء أخرى، لم يكن يتبادل معها سوى حوارٍ سريع لا يتعدى سؤالها عن الكتاب، فيجيبها في كل مرة أنه اقترب منَ الانتهاء، معتذرًا عن تأخره لأسباب ينجح في اختلاقها، فتبتسم تلك الابتسامة التي أخذت لبَّه وهي تخبره أنها ستعود في وقت لاحق، لكنه صُدم عندما عرف أنها ابنة الطبيب منصور السبتي أحد أكبر الأطباء في المدينة، وبالتأكيد لا يمكن لطبيب مثله ألا يمتلك ذلك الكتاب داخل مكتبته، لم يكن ذلك يعني له سوى شيءٍ واحدٍ، أنها أيضًا اختلقت عذرًا لزيارته، لكنه ظل لأيام طويلة خائفًا مترددًا من أن يكون تحليله مجرد أمنية بداخله، قبل أن يقرر قطع الشك باليقين، فتوجه مباشرة لزيارة والدها وطلبها للزواج.

* * *

طنجة 2023

صوت هاتفي جعلني أنتبه أني لا أزال داخل غرفة عَيْشَة قَنْدِيشَة؛ أدرت بصري في الغرفة لأنتبه إلى تلك الومضات المنبعثة من هاتفي الملقى بجوار السرير، اعتدلت في جلستي على الأرض بجانب المرآة قبل أن أتحرك لأخذ الهاتف الذي عاد إلى سكونه بعد انقطاع مكالمة زوجتي؛ لا شك أنها تشعر بالقلق لتأخري، فلم أخبرها أني سأبيت خارج المنزل اليوم، حاولت إعادة الاتصال بها، لكن على ما يبدو أن هاتفها صار خارج التغطية أو أن خاصتي كذلك، فتحت تطبيق الواتساب وكتبت لها

رسالة أعتذر لها عن عدم اتصالي لظروف طارئة، وأخبرتها بأني لن أعود هذه الليلة بعد أن فاتني موعد القطار على أن أكلمها فيما بعد، تركت الهاتف والتفت نحو المرآة بحثًا عن عَيْشَة، لكن لم يقابلني سوى انعكاس صورتي، قمتُ من مكاني ولا أعرف ما الذي يمكن أن أفعله الآن كيف أعود لأشاهد حكاية عَيْشَة؟ هل اختفت قبل أن تكمل لي ما بدأته؟ وقفت أمام المرآة ومددت يدي نحوها، ربما أجد فيها الحل لأنتبه إلى شيء غريب، فالتفتُّ بسرعة نحو السرير خلفي، كانت حقيبتي التي أحملها معي موضوعة في منتصفه، لا أتذكر متى فقدتها بعد دخولي البيت، لكني متأكدٌ أنها لم تكن معي في هذه الغرفة، تحركت نحوها وقد شعرتُ أن وجودها معي الآن، ربما يحمل لي لغزًا جديدًا، وبمجرد أن فتحتها حتى تذكرت المخطوطة التي اشتريتها هذا اليوم، جلست على طرف السرير وأخرجتها بحذر حتى لا أتسبب في إتلافها، ثم وضعتها أمامي وأخذت أقلب صفحاتها، كانت الصفحة الأولى التي لفتت انتباهي عليها قصيدة كتبت بخط عربي بديع بينما كُتِبَ الباقي بخط آخر، خَمَّنتُ أن كاتبه بالتأكيد شخص مختلف عن كاتب القصيدة، وكأنه استغل الورقة التي كتبت عليها ليبدأ حكايته، كان أقل وضوحًا وكأنه لم يكن يجيد العربية، عدتُ إلى الصفحة الأولى وتحديدًا إلى الجملة التي جذبتني:

«كل ما حدث لي كان بسببك، بسبب حبي لك منذ رأيتك أول مرة، كنتِ جميلة رائعة فتنتني نظرة عينيك القاسية أدركتُ أن خلفها وجعًا لا يحتمل، عاهدتك على البقاء على حبك ما حييت، وها أنا أفي لك بوعدي بعد كل هذه السنوات،

أَنّى أُضَيِّعُ عَهدَك
أَم كَيفَ أُخلِفُ وَعدَك
وَقَد رَأَتكَ الأَماني
رِضًا فَلَم تَتَعَدَّك
يا لَيتَ ما لَكَ عِندي
مِنَ الهَوى لِيَ عِندَك
فَطالَ لَيلُكَ بَعدي
كَطولِ لَيلِيَ بَعدَك
سَلني حَياتي أَهَبها
فَلَستُ أَملِكُ رَدَّك
الدَهرُ عَبدِيَ لَمّا
أَصبَحتُ في الحُبِّ عَبدَك

(شعر ابن زيدون)

فرق كبير بين ذلك الحب الذي ينتشلك من غيابات الظلام إلى النور وبين ذاك الذي يهوي بك نحو بئر سحيق لا قرار له».

توقفتُ عن القراءة وأنا أنظر إلى الصفحة بدهشة؛ لماذا شدتني هذه الكلمات التي يبدو أن أحدهم كتبها لحبيبته التي أراد إهداءها قصيدة حب زينها ببعضٍ من مشاعره، زفرتُ وأنا أهم بإغلاق المخطوطة،

لكن ومضة قوية انبعثت من المرآة جعلتني أتوقف، بالتأكيد هي عَيْشَة؛ عدتُ أنظر إلى المخطوط أمامي لأتفاجأ أنه فُتح تلقائيًّا على الصفحة الثانية.

* * *

«إدوارد»

لشبونة 1415

لم تكن تلك الليلة مناوبتي على الحراسة، لكن زميلي أصيب بحمى مفاجئة جعل رئيس الحرس بالقصر الملكي خوسيه يطلب مني أخذ مكانه، لم أملك حق الرفض ولا حتى التذمر، فلم يمنحني خوسيه الفرصة بعد أن أمرني بأن ألحق بمكاني بقاعة العرش دون تأخير، فالملك جون الأول في طريقه إليها، وقفت مكاني وبداخلي نار متأججة أفكر في حبيبتي لوتيسيا التي لا شك أنها الآن تنتظرني في مكان لقائنا المعتاد بالحديقة، بالتأكيد سوف تعتقد أني تخلفتُ عن موعدي متعمدًا، وربما لن تصدقني عندما أعتذر لها وأخبرها بما حدث كما في المرة السابقة عندما تأخرت عنها مضطرًّا، انتبهت من استغراقي في أفكاري عندما سمعتُ صوت خطوات الملك جون الأول تقترب لأقف منتصبًا وأنا أقبض على سلاحي بقوة، وما هي إلا لحظات حتى كان الملك يدخل بخطواته الثابتة متجهًا نحو كرسي العرش ليجلس عليه ومعه ابنه الأمير هنري، الذي وقف إلى جواره مشيرًا إلى الخادم ليقدم كأس النبيذ للملك الذي كان يبدو أنه يفكر في أمر ما، فلم يرتشف من الكأس سوى رشفة

واحدة وأخذ يقلبه بين يديه في شرود، لم يمضِ سوى وقت قصير حتى وصل إلى القاعة خوان أفونسو المشرف الملكي على مالية البرتغال، تقدم نحو الملك والأمير هنري وانحنى لتحيتهما، ثم عاد ليعتدل في وقفته واضعًا قبضته على صدره، أومأ له الملك جون في صمت، ثم استقام من جلسته وتقدم مع الأمير هنري نحو طاولة الاجتماعات الكبيرة المنقوشة بزخارف جميلة والتي تتوسط القاعة الملكية الضخمة، وقف أمامها حيث سطحت فوقها خريطة تظهر إحدى المدن ومواقع أبراجها وأسوارها والمناطق الاستراتيجية الأخرى بها، لحق بهما خوان أفونسو ليقف إلى جوارهما صامتًا، ينتظر معرفة السبب الذي استدعاه الملك من أجله، لم يطل انتظاره حتى سمع صوته يقول وهو يشير بخنجره نحو الخريطة:

– هذه هي المدينة بكل مرافقها بداية من الأسوار ومواقع أبراج المراقبة وكل ما تضمه من أسواق ومساجد وفنادق وغيرها.

– سيكون فتحها نصرًا للرب لننتقم من هؤلاء الكفار ونتخلص من وجودهم إلى الأبد...

قالها الأمير هنري ليلتفت إليه والده بوجه متجهم ونظرات تُظهِر تلك الحيرة التي لا تزال تسيطر على تفكيره، ثم أجابه قائلًا:

– الأمر ليس بهذه البساطة فقد يكلفنا ذلك الهجوم الكثير خاصة أمن سفننا التجارية التي تجوب البحر، فلن تسلم من انتقام قراصنتهم.

– لا تقلق يا مولاي فنحن سنكون في حماية الرب ومباركة البابا الذي أذن لنا بالقيام بهذه الغزوة المقدسة.

التفت جون نحو خوان أفونسو الذي كان يقف في صمت يتابع الحوار باهتمام ليسأله:

– وأنت أفونسو، ما رأيك؟ هل خزينة الدولة تسمح لنا بالتجهيز لحملة كبيرة في هذه الظروف؟

– مولاي، تعلم أن الحرب مع القشتاليين أنهكتنا كثيرًا نحن بحاجة إلى موارد جديدة، وأظن أن غزو سبتة سيفتح لنا الأبواب للحصول على ثرواتها وتكون انطلاقة لغزو باقي بلاد المغرب.

– بل يجب أن نسرع قبل أن تلتفت مملكة قشتالة وتسبقنا إليها...

قالها هنري لينظر إليه جون مجددًا ثم عاد بنظره إلى الخريطة أمامه، ليتابع هنري حديثه:

– إن هذا الوقت هو أفضل توقيت يمكننا فيه تنفيذ حملة الرب المباركة دون أن نخشى من منافسة أحد، فالوصي على عرش قشتالة فرديناند لا يشغله شيء الآن سوى التخطيط للاستيلاء على العرش لنفسه وإزاحة ابن أخيه الصغير.

– ولكن ألا تظن أننا لو اتفقنا معهم ونفذنا حملة مشتركة، سيكون ذلك أفضل وأنجح؟

– بل ننفرد نحن بالحصول على كل الثروات التي تزخر بها المدينة، وتكون لنا السيطرة على طريق تجارة الذهب دون منافس.

قالها خوان أفونسو.

– مع ذلك يجب أن نفكر مليًّا قبل أخذِ هذه الخطوة، فلا أريد أن أزُجَّ بالدولة في حرب قد لا نستطيع تحمل تبعاتها، فإرسال جيش كبير للغزو من الممكن أن يجعلنا عرضة للخطر إذا ما هاجمنا القشتاليون في التوقيت نفسه.

– لن يفعلوا ذلك يا مولاي فبيننا معاهدات ومواثيق.

– لا أثق بعهودهم، على كل حال دعوني أفكر في الأمر.

أشار الملك جون الأول إليهما ليغادرا القاعة ويتركاه بمفرده، وبقي وحده أمام الطاولة ينظر إلى الخريطة بشرود تام.

* * *

غادر الأمير هنري قاعة العرش متجها نحو الجناح الملكي؛ توقف أمام إحدى الغرف ليطرق الباب بخفة، ثم فتحه بعد أن سمع الإذن بالدخول، تقدم بهدوء لا يعكس ما يشعر به من توتر وضيق نحو الشرفة حيث كانت تجلس والدته الملكة فليبا؛ انحنى ليرفع كفها ويقبلها قبل أن تدعوه ليشاركها الجلسة، نظرت إلى ملامحه المتشنجة لتسأله مستفهمة:

– ما الأمر، لا تبدو لي على ما يرام؟

– مولاي الملك لا يزال مترددًا في التحضير لحملة نغزو بها سبتة، يبدو أنه غير مقتنع بجدواها حتى الآن.

– لأن المسألة ليست سهلة يا هنري، سبتة مدينة قوية ومحصنة بشكل جيد، وإذا لم نكن حذرين قد نتعرض لخسائر فادحة.

– أخشى إن تأخرنا عن التحرك في هذا الوقت، أن يسبقنا ملك قشتالة إليها وعندها نصير محاصرين وقد يحاولون العودة لمهاجمتنا من جديد.

– أفهم جيدًا ما تقوله، لكن مع ذلك علينا أن نكون حذرين لا يمكننا أن نغامر بحياة جنودنا وثرواتنا دون تقدير الخطر.

– لكن هذه الحرب هي الفرصة الوحيدة التي ستجعلنا أنا وإخوتي دوراتي وبدرو نحصل على رتبة الفروسية.

صمتت فليبا للحظات وهي تتطلع إلى وجه ابنها الذي اكتساه القلق، زفرت بتوتر قبل أن تقول:

– سأحاول فعل ما بوسعي لنحقق ما نرجوه.

– أجل أمي، ولا تنسي أن هذه الحرب ستكون من أجل رضا الرب فهؤلاء الكفار هم أعداؤنا، ويجب أن نتخلص منهم وننشر دين الرب في كل البقاع.

* * *

(5)

طنجة 2023

هل يجب أن أشعر بالدهشة لما أراه أمامي، أم يجب أن أكون قد تأكدتُ أن كل ما حدث لي منذ اتصال ذلك الشاب ليخبرني عن لقائه بعَيْشَة قَنْدِيشَة؟ حتى شرائي لهذا المخطوط لم يكن مجرد مصادفة.

– بالطبع لا توجد أي مصادفة، أنتَ تحرَّكتَ كما أردتُ لك أن تفعل.

التفتتُ نحو عَيْشَة التي عادت للظهور من جديد أمامي في الغرفة، فتركتُ المخطوط مكانه وقمتُ متقدمًا نحوها لأسألها:

– فقط لأني أشبهه؟

رفعت كتفيها مبتسمة وهي تحرك رأسها نفيًا ثم قالت:

– تعتقد أن ذلك سببٌ كافٍ؟

– بالطبع لا.

– لو كان للشبه فقط فهناك غيرك الكثير يحملون الملامح نفسها، لكن هناك أشياء أخرى بالطبع.

وقبل أن أطلب منها شرحًا كانت قد اختفت تمامًا من أمامي، عدتُ أنظر إلى المخطوط ثم توجهت نحوه لأكمل قراءته بفضول بدأ يتزايد أكثر من أي وقت مضى.

* * *

لشبونة 1415

«إدوارد»

وقفت تحت نافذة غرفة لوتيسيا أنتظر أن تطل عليَّ بعد أن أرسلتُ إليها أكثر من رسالة أطلب لقاءها، لأشرح لها ما حدث ذلك اليوم، لكنها لم تجبني، كنتُ أعلم أنها غاضبة بشدة بعد أن أخلفتُ موعدي معها، بقيت أغدو وأروح تحت النافذة المفتوحة وأنا متأكدٌ من مراقبتها لي من خلف ستائرها الحريرية، فظلُّها واضح لي، لكنها مع ذلك لم تمنحني نظرة واحدة، كان الوقت يمر بسرعة، وموعد مناوبتي في الحراسة يقترب، لم أجد حلًّا سوى أني أخرجت الرسالة التي سبق وكتبتها قبل مجيئي، لففتها حول حجر صغير ثم قذفت بها نحو النافذة، راقبتها حتى تأكدت أنها أخذتها وعندما لم أجد أي ردٍّ منها غادرت الشارع عائدًا إلى القصر لأبدأ عملي، ما إن وصلت إلى باب القصر حتى قابلت زميلي ماثيو الذي لاحظ مسحة الحزن على ملامحي فأوقفني متسائلًا:

- ما بك يا صديقي، لا تبدو بخير؟

- لا شيء.. لا شيء.

- أخبرني ما الأمر ربما أستطيع مساعدتك؛ هل زاد المرض على والدتك؟

رفعت رأسي أنظر إلى ملامح الاهتمام البادية عليه، ثم زفرتُ بضيق قبل أن أجيبه فقد كنت بالفعل بحاجة إلى من يشاركني همومي: «كلا أمي لا تزال على حالها... ولكن».

- ولكن ماذا؟

- يبدو أن عملي في حراسة القصر سوف يجعلني أخسر حبيبتي لوتيسيا.

- ماذا تقصد؟

- مرة أخرى أتخلف عن موعدي معها، ولا تريد أن تمنحني فرصة لأشرح لها ما حدث.

- أهذا ما يجعلك حزينًا بهذا الشكل؟

رفع يده وربت على ذراعي وهو يبتسم قائلًا: «دعِ الأمر لي سأخبرها بكل شيء، لقد انتهت فترة عملي لهذا اليوم ولن أعوَد إلى منزلي قبل أن أنفذ هذه المهمة».

- حقًّا ستفعل؟

- بالتأكيد.

أخذت مكاني داخل القاعة الملكية وقد انتابني شعور بالراحة بعد حديثي مع ماثيو، لكم أتمنى أن ينتهي هذا الخلاف فأنا لا أشعر بطعم للحياة بعيدًا عن لوتيسيا، لكن تلك العجوز والدتها لا تزال تصر على رفض زواجنا ما دمتُ أتحمل مسؤولية رعاية والدتي المريضة.

انتبهت من شرودي على حركة من زميلي ينبهني لأحافظ على تركيزي، فأومأت له إيماءة خفيفة شاكرًا، ثم عدتُ أراقب قاعة القصر بمن فيها؛ كان الملك جون الأول يجلس على كرسي عرشه الوثير وأمامه

رجال دولته وكبير الأساقفة وأبناؤه الثلاثة، بهدوء اتكأ على ذراع الكرسي المرصع بالجواهر، وتقدم إلى الأمام قائلًا بحزم:

– كما تعلمون جميعًا أن اتخاذ قرار شن حملة لغزو سبتة أمر بالغ الأهمية، وربما يكون فرصتنا لتوسيع مملكتنا وبسط سيطرتنا ونفوذنا على الطرق التجارية، لهذا أريد أن أسمع آراءكم جميعًا.

بحماس كبير اندفع الأمير هنري قائلًا: «مولاي سيطرتنا على سبتة لن تمنحنا فقط الفرصة للسيطرة على الطرق التجارية، بل ستكون بمنزلة قاعدة لنا لننطلق نحو باقي بلاد المغرب، بل وسنتمكن من السيطرة على البحر ونقضي على هؤلاء القراصنة الذين عاثوا في سفننا فسادًا، يجب أن نبدأ في الاستعداد لتجهيز قواتنا وجيشنا في أسرع وقت».أجابه الملك بهدوء: «على رسلك أيها الأمير، الأمور لا تؤخذ بهذه السرعة، يجب أن نفكر جيدا قبل البدء في أولى الخطوات».التفت نحو كبير الأساقفة ليسأله: «ما رأيك أيها الأب دانييل؟».

– يا مولاي، إن هذا الغزو ليس مجرد حملة عسكرية، بل إنه حملة صليبية مقدسة؛ سبتة تحت حكم أعدائنا منذ زمن طويل وكانت سببًا في عبورهم نحو مملكتنا، وكما نجحنا في دحرهم هنا وانتصرنا لدين الرَّب سوف ننجح في استعادتها وسيكون ذلك نصرًا للإيمان المسيحي، وكما تعلم يا مولاي فإن البابا قد بارك هذه الحملة وأَذِنَ لنا بالقيام بها.

رفع خوان أفونسو يده مطالبًا بالتدخل ليأذن له الملك بذلك:

– مولاي الملك، هناك أمورٌ يجب أن نأخذها في حسابنا، فغزو سبتة سيكلف خزينة الدولة أموالًا طائلة، لذلك أقترح أن نبحث عن ضمان تمويلٍ كافٍ لهذه الحملة.

– وماذا تقترح خوان أفونسو؟

– يمكننا الرفع من قيمة الضرائب؛ كما يجب أن نضمن أن لدينا ما يكفي من الموارد لدعم قواتنا بعد الغزو.

وقف الملك جون الأول وتقدم نحو رجاله ليقفوا جميعًا بدورهم احترامًا له، التفت نحو القائد فرناندو قائلًا:

– ابدأ في إجراءات تجهيز الجيش.

ثم التفت نحو خوان أفونسو: «وأنت أريدك أن تجتمع مع التجار وكبار الفلاحين وأصحاب المصارف لنضمن تمويلًا كافيًا لتجهيز الأسطول، يجب أن يكون كل شيء جاهزًا في خلال أشهر قليلة».

انحنى الاثنان وهما يقولان بصوت واحد: «أمرك مولاي سنبدأ في التنفيذ على الفور».

بابتسامة راضية قال الأسقف دانييل: «سوف نقيم الصلوات من أجل نجاح هذه الحملة، ونأمل أن يباركنا الرب في مسعانا».

عاد الملك مجددًا ليقف أمام عرشه وهو يتطلع إلى الحماس الذي تلبس رجاله، ورغم أنه كان لا يزال مترددًا بعض الشيء في اتخاذ هذه الخطوة، لكنه بدأ يقتنع بضرورتها خاصة بعد عودة الجواسيس الذين

أرسلهم ليتقصوا أخبار المدينة، وعادوا بمعلومات أسالت لُعَابه ورجاله للسيطرة على هذه المدينة الغنية بثرواتها وموقعها الاستراتيجي الهام، رفع يديه لينهي الاجتماع وهو يقول:

– ليباركنا الرب، انطلقوا لتنفيذ ما اتفقنا عليه، لكن يجب أن تحرصوا جميعًا على أن تكون هذه الاستعدادات في سرية تامة، لا أريد لأعدائنا أن تصل إليهم أي أخبار فيستعدوا لمواجهتنا، يجب أن تكون ضربتنا مباغتة وقاصمة.

* * *

سبتة 1415

«عائشة»

وقفت أتطلع إلى المرآة بسعادة وأنا أدور حول نفسي منبهرة بفستان العرس الذي أصبح جاهزًا، كانت أروى تقف خلفي تبتسم بدورها لسعادتي، سألتها مرة أخرى: «ما رأيك أما زال الفستان يحتاج إلى أي تعديل؟».

– كلا، لقد سألتني عشرات المرات السؤال نفس، وقلت لك إنه لم يعد يحتاج إلى شيء، إنه يليق بك جدًّا عزيزتي.

– أشعر بالتوتر يا أروى، ضعي يدك على صدري واسمعي ضربات قلبي، إنه يدق بسرعة وبعنف، حتى إنني أخشى أن يتوقف.

ضحكت أروى وهي تقترب لتضمني إليها قائلة: «حفظك الله من كل شر حبيبتي، مع أني لم أجرب هذا الشعور من قبل، لكني أظنه أمرًا طبيعيًّا فأنتِ على مشارف بداية حياة جديدة، فلا داعي للتوتر».

– قريبًا جدًّا سوف أقف أنا أيضًا هذه الوقفة نفسها لأقول لكِ: لا داعي لكل هذا التوتر عزيزتي فالأمر بسيط وطبيعي.

ضحكنا بسعادة قبل أن نسمع صوت فتح الباب لتدخل زينب وهي تحمل صينية عليها كوبان من الحليب وبعض الفطائر:

– أحضرتُ لكما بعض الطعام، وضعته على الطاولة.

والتفتت نحو أروى قائلة: «أقنعي صديقتك بأن عليها أن تأكل جيدًا، منذ أيام وهي لا تتذوق سوى القليل فقط».

– ليست لدي أي شهية حقًّا.

– ما الذي تقولينه يا عائشة؟ يجب أن تأكلي، ماذا تريدين أن يقول زوجك إذا ما وجدك هزيلة وشاحبة ربما يتهمنا بتجويعك؟

– وربما يعيدها إلينا خالتي زينب، أليس كذلك؟

– يبدو أنكما وجدتما فرصة للتسلية على حسابي.

تحركتُ داخل الغرفة أدور حول نفسي بخيلاء قائلة: «أنا جميلة في كل حالاتي وعمر يعشقني كما أنا».

توقفت مرة أخرى أمام المرآة وأنا أنظر إلى السعادة البادية على ملامحي بوضوح، لم يتبقَّ سوى أيام قليلة على موعد العرس، مرَّ كل

شيء كحلم جميل، ما زلت حتى الآن لا أصدقه منذ رأيته أول مرة في مكتبته وحتى فوجئت بأبي يخبرني عن زيارته وطلبي للزواج، وبأنه سيأخذ بعض الوقت حتى يتأكد من أنه مناسب لي قبل إعطاء رأيه النهائي، شعرتُ حينها بخوف شديد من أن يرفضه أبي لأي سبب، لكن خوفي لم يطل فسرعان ما زفت لي أمي خبر موافقتهم على الخطبة، ولم تكن سوى أيام حتى عاد عمر صحبة والدته وأفراد عائلته للاتفاق على تفاصيل الزواج، وبعدها بأيام أخرى كنا على موعد جديد لعقد القران وتحديد موعد العرس، بعد أن ينهي عريسي تجهيز البيت الذي سوف يكون سكنًا لنا، لا أعرف حقًّا إن كانت الأيام مرَّت بسرعة كما أشعر بها أم فقط لأنها أسعد أيام حياتي، انتبهت من شرودي على صوت أروى التي كانت تجذبني من ذراعي وهي تضحك بصوت عالٍ قائلة: «إلى أين ذهب عقلك؟.. ابقِ معنا قليلًا فلم يتبقَّ سوى أيام وتذهبين إلى بيت من سرقه»، وكزتها بغضب مفتعل لنتبادل الضربات المرحة، وزينب تراقبنا وتدعو الله أن يديم علينا هذه الفرحة.

* * *

تحركت أروى بخطوات سريعة بين أزقة المدينة متجهة نحو بيتها، بعد أن رفضت المبيت لدى عائشة، لم تكن تطمئن على ترك والدها بمفرده في البيت رغم تحسن حالته الصحية، لكنها لم تتخلص من الخوف الذي صار يعشش بصدرها من احتمالية فقدانه في أي لحظة، فجأة توقفت بعد أن كادت تصطدم بالرجل الذي ظهر فجأة أمامها دون سابق إنذار، رفعت رأسها نحوه لتصرخ في وجهه بغضب:

– ألا تنتبه أيها الأبله؟

نظر إليها بابتسامة متسلية دون أن يتحرك ليجيبها: «ألن تلجمي لسانك السليط هذا أبدًا؟».

تراجعت إلى الخلف خطوة لتبتعد عنه وهي تقول: «لساني سليط مع من يستحق».

همَّت أن تغادر وتواصل طريقها، لكنه أسرع ليوقفها قابضًا على ذراعها قائلًا: «على رِسلك، أريد التحدث إليك قليلًا».

نظرت إلى يده التي تمسك بها بغضب قبل أن تجذبها منه بعنف صارخة: «إياك أن تكررها مرة أخرى وإلا سوف ترى مني ما لا يسرك أبدًا».

– لا أعرف لم تكرهينني بهذه الدرجة؟.. أنا لم أفعل شيئًا يستحق كل هذه الكراهية، بل أني أحبك وأرغب في أ...

أوقفت سيل كلماته بسرعة وحزم: «وأنا أخبرتك مرارًا أني لا أريدك حتى وإن كنتَ آخر الرجال في سبتة، وأحذرك من أن تلحق بي في أي مكان مرة أخرى... أفهمت؟».

تركته يقف مكانه وانطلقت بسرعة مبتعدة عن طريقه، بينما تابعها بنظراته حتى اختفت بين الأزقة.

وصلت إلى المنزل وحاولت أن تخفي الاضطراب الذي سبَّبته لها ملاحقة ذلك المدعو غسَّان والتي تكررت مرات عدة، دخلت غرفة

أبيها للاطمئنان عليه، وجدته جالسًا فوق فراشه يقرأ في مصحف بين يديه، اقتربت منه وقبَّلت رأسه بابتسامة حانية وهي تقول:

- كيف حالك يا أبي؟.. هل أنت بخير؟

رفع رأسه ليقابلها بابتسامته الحنون: «بخير يا ابنتي، كيف حال صديقتك وعائلتها؟».

- كلهم بخير، عائشة قلقة ومتوترة لم يبقَ الكثير على موعد العرس.

- بارك الله لها.

أمسك كفها بين يديه وهو ينظر إليها، وقد غشيت ملامحه سحابة من القلق: «كم أتمنى أن أراكِ أيضا عروسًا قبل أن تحين ساعتي».

- أطال الله عمرك يا أبي، لا تقل هذا؛ سوف تزفني بنفسك لزوجي بل وتُزَوِّج أبنائي من بعدي.

ربت بلطف على كفيها قائلًا: «بإذن الله حبيبتي».

انتفضت قائمة وهي تقول: «سوف أذهب لأحضر لك العشاء، يجب أن تأكل جيدًا حتى تستعيد عافيتك بسرعة».

أومأ لها برأسه وعاد إلى متابعة قراءته، بينما انطلقت أروى هاربة من أمامه حتى لا ينتبه لقلقها وارتباكها، اتجهت نحو المطبخ ولا يزال لقاؤها بغسان يسيطر على تفكيرها،

غسان صديق شقيقها جابر منذ سنوات طويلة قبل أن يصير صهره، لطالما دخل بيتهم قبل زواج جابر وهي لا تزال طفلة صغيرة، لم تكن

تشعر بالراحة في وجوده أبدًا، فقد كانت تلحظ دومًا نظراته الجريئة نحوها كلما قدَّمت له واجب الضيافة بطلب من شقيقها، وحين أخبرت هذا الأخير عن نظرات صديقه الوقحة تجاهها سخر منها، فكيف يمكن لصديقه أن ينظر إلى طفلة لا تزال تحبو نحو عالم الأنوثة، ولم تتوقف عن تقديم الضيافة له إلا بعد أن تدخل والدها بعدما أخبرته بالأمر، بل طلب من جابر أن يتوقف عن استقبال صديقه في البيت، لكنه اعترض واتهمها بمحاولة إثارة المشاكل دون سبب، ظنَّت أن الأمر انتهى عند هذا الحد لكنها فوجئت برغبة جابر في الزواج من شقيقته،

طيف ذكرى ليلة زفاف جابر حلَّق فوق رأسها عندما استغل غسان وجودها بمفردها ترتاح من تعب تحضيرات العرس في مكان منزو بعيدًا عن ضجيج الحفل، فجأة وجدته أمامها يتفحص تفاصيلها بوقاحة، استقامت واقفة ودون أن تتكلم، وتحركت لمغادرة المكان، لكنها فوجئت به يغلق عليها منفذ الخروج وعلى وجهه ابتسامة مقززة، زاد ضيقها وإن حاولت التحكم في أعصابها وهي تقول: «من فضلك أريد الذهاب».

- إلى أين جميلتي؟.. ما رأيك أن نتحدث قليلًا؟

نظرت إليه بصدمة، فلم تتوقع أبدًا أن تصل جرأته إلى هذه الدرجة، قطبت حاجبيها وضمَّت قبضتيها بغضب ولا تزال تتحكم في توترها، لعدم إثارة أي مشكلة في هذه الليلة ضغطت على كلماتها قائلة: «ابتعد عن طريقي يا غسان، لو علم جابر بما تفعله فلن تمر هذه الليلة على خير».

اتسعت ابتسامته وهو يقترب منها، بينما تتراجع نحو الخلف حتى اصطدمت بالحائط ليقف أمامها وهو ينظر إلى مفاتنها بجرأة قائلًا: «جابر لن يفعل شيئًا، ولن يصدقك من الأساس، فهو في غنى عن أي مشكلة مع صهره خاصة في ليلة كهذه».

كان يتحدث وهو يقترب أكثر منها، ثم مد يده ليتحسس جسدها لكنها استجمعت شجاعتها ودفعته بقوة؛ فاجأه رد فعلها ففقد توازنه وكاد أن يسقط أرضًا، استغلت الفرصة وفرَّت من أمامه، ومنذ ذلك الوقت وهو يتتبع أثرها ويلحقها أينما ذهبت، محاولًا التحرش بها، لم تخبر أحدًا، لعِلمها أن جابر لن ينصفها، خاصة بعدما رأت علاقته بزوجته التي جعلته كالخاتم بإصبعها، لذلك آثرت الصمت حتى تجد طريقة تخلصها منه إلى الأبد.

* * *

أحنى غسان قامته الطويلة حتى يستطيع الدخول من باب الحانة الصغير، وما إن دخل حتى اختار ركنًا منزويًا ليرمي بجسده أمام الطاولة الفارغة وهو يصفق بعنف مناديًا النادل ليحضر له كأس النبيذ المعتق، كانت الحانة مكتظة عن آخرها بالبحارة والتجار، تعمها روائح الخمور وأضواء الشموع الراقصة تلقي بظلالها على وجهه الغاضب، استغرق في أفكاره وهو يتذكر وجه أروى الجميل ببشرتها البيضاء وعينيها الواسعتين اللتين تحملان لون السماء الصافية، وتلك النظرة الشرسة التي تقابله بها كلما حاول التقرب منها والتي تزيد من رغبته في

الحصول عليها، لا يعرف ما الذي جذبه نحوها منذ رآها في بيت صديقه جابر قبل سنوات؟ ورغم أنها كانت لم تتجاوز بعدُ العشر سنوات إلا أنه افتتن بجمالها الذي لم يَرَ له مثيلًا في كل النساء اللواتي عرفهن، وكلما كبرت ازداد افتتانه بها رغم إصرارها على رفضه.

وضع النادل كأس النبيذ أمامه فأخذها بسرعة وتجرعها دفعة واحدة، ثم ألقى بها بعيدًا مطالبًا بكأس أخرى، لمعت عيناه بتحدٍّ وصورتها متجسدة أمامه: «سوف تكونين لي يا أروى مهما تمنعتِ، وسوف أجعلك تدفعين ثمن غرورك ورفضك لي».

صرخ مرة أخرى على النادل: «أين الشراب أيها المأفون؟».

لحظات وكان يأخذ الكأس الثانية ليصبها في جوفه؛ فجأة شعر بظل يقع أمامه على الطاولة فرفع رأسه نحو ذلك الذي وقف أمامه مترنحًا قبل أن يجذب الكرسي ويجلس متسائلًا:

- ما بك يا صديقي تبدو لي غاضبًا؟

- تلك القطة الصغيرة ما زالت تصر على سن مخالبها في وجهي.

- من تلك التي تتمنع عن الريس غسان أعظم بحار في سبتة؟

رفع غسان أحد حاجبيه في استهجان وهو ينظر نحو صديقه، ثم انفجر ضاحكًا ليتراجع بجسده إلى الخلف حتى كاد يسقط من على الكرسي قبل أن يقول: «أعظم بحار في سبتة! لا شك أنك تريد بعض المال وإلا لما نافقتني بهذا المدح المبالغ فيه!».

- أنا لا أكذب عليك يا صديقي.

– دعك من هذا وأخبرني ما الذي تريده؟

– قبل ذلك أخبرني من هذه التي سلبت عقلك وجعلتك بهذه الحال؟

– لا شأن لك...

أجابه غاضبًا ليرفع الآخر كفه معتذرًا قبل أن يقول: «لا يهم أن أعرف من تكون، ولكن إن كانت تعجبك لهذه الدرجة لم لا تتزوجها؟».

– أتزوجها؟!

صمت غسان وقد تردد صدى الكلمة في عقله، تراجع متكئًا على ظهر الكرسي وهو يحك لحيته المبعثرة محدثًا نفسه: «لم لا؟.. فإن كنتُ لا أستطيع نيلها سوى بالزواج فليكن؟!» زفر وهو يتذكر والدها العجوز الذي بالتأكيد سيقف بجانبها إذا رفضت طلبه، ولن يجبرها على قبوله، انتبه من أفكاره على صوت صديقه الذي كان ينظر إليه بابتسامة واسعة: «يبدو أن رأيي نال رضاك».

– ما الذي تريده؟ هيا تحدث بسرعة وإلا اغرب عن وجهي، فلستُ في مزاج لثرثرتك الفارغة.

– لا شيء مبلغٌ بسيط وسوف أعيده إليك بعد يومين، أريد تعويض خسارتي لهذه الليلة.

ابتسامة سخرية ارتسمت على جانبي شفتيه وهو يقترب منه، ليشده من ياقته ويجذبه بشدة قائلًا:

– هل نسيت أنك حتى اليوم لم تُعِد لي ما اقترضته قبل أيام؟

– لا... لا هذه المرة سوف أعيد المبلغ كاملًا؛ أعدك جولة واحدة فقط وأستعيد أموالي.

– بل جولة واحدة تخسر فيها ما أقرضك إيَّاه.

دفعه بقوة ليسقط على الأرض وهو يقول: «اغرب عن وجهي، لن أمنحك شيئًا، فأنا لا أرمي نقودي لمُقامر خاسر مثلك».

استقام صديقه واقفًا وهو لا يزال يترنح، حاول أن يتحدث لكن نظرات غسان ألجمته، ليرفع يديه مبتعدًا عنه وهو يتمتم بسخط، بينما بدأت فكرة الزواج تختمر في رأس غسان، وبدأ يفكر في الخطة التي تجعله يتمكن من تحقيق هدفه الذي لن يصل إليه إلا إذا تخلص من العقبة التي تقف في طريقه؛ ذلك العجوز الذي يحمي أروى ويمنعه عنها والدها «الشيخ محمود».

* * *

لشبونة 1415

«إدوارد»

لا أعرف ما الذي حدث هذه المرة، لم يحدث أبدًا أن طال خصامي أنا ولوتيسيا لأيام طويلة، فمهما حصل كنا سريعًا ما نتصالح، لكنها رفضت رفضًا قاطعًا مقابلتي أو حتى سماع أعذاري، لم أستطع تحمل بُعدَها فقررت الذهاب إلى بيتها، وقفتُ متوترًا أنتظر أن يفتحُ لي الباب

لتخرج أمها؛ وقفت وهي تضع يديها على خصرها وتتفحصني بازدراء قائلة:

- ما الذي جاء بك؟

ابتلعت ريقي لأجيبها بصوت مرتبك:

- جئتُ من أجل لوتيسيا؛ أريد أن أشرح...

قاطعتني بصرامة: «لا يوجد شيء يمكنك أن تشرحه، لوتيسيا لم تعد تريد رؤيتك مجددًا».

- أرجوكِ سيدتي، أريد فقط فرصة يجب أن تعرف..

عادت لمقاطعتي مرة أخرى: «لِمَ لا تريد أن تفهم؟.. لقد انتهى الأمر لوتيسيا سوف تتزوج قريبًا».

جحظت عيناي وفتحتُ فمي بصدمة، وعندما انتبهت من صدمتي، كانت قد أغلقت الباب في وجهي وتركتني أقف مكاني، لم أستطع العودة إلى البيت، فلا أريد لأمي أن تنتبه إلى حالتي، لذلك اتجهت مباشرة إلى القصر وطلبت من رئيس الحرس أن آخذ مداومة إضافية، كنتُ بحاجة إلى أخذ بعض الوقت لأفكر هل ما قالته تلك المرأة حقيقة، أم أنها فقط تريد إبعادي عن ابنتها بأي طريقة؟ لا أعرف ما الذي يمكنني فعله، لكن يجبُ أن أجد طريقة لأصل إليها مهما كلفني الأمر، لم أتوقف عن التفكير طوال ساعات عملي، ويبدو أنني لستُ الوحيد الذي كان منشغلًا حتى وإن اختلفت مشاغلنا، فبقاعة العرش وأمام النافذة الزجاجية الكبيرة

التي تحمل على حافتها علم البرتغال وقف الملك جون الأول يتطلع إلى حديقة القصر أمامه، وعقله منشغل بالحدث الأهم الذي تستعد له المملكة، التفت عندما سمع صوت حارس البوابة يقول:

– مولاي، الأمير هنري والسيد فرناندو قائد الجيش يطلبان الإذن بالدخول.

استدار جون وأشار بيديه قائلًا: «دعهما يدخلان».

تحرك بخطواته الثابتة نحو منتصف القاعة حيث طاولة الاجتماعات ليقف عندها شابكًا ذراعيه خلف ظهره، تقدم الرجلان وانحنى كل منهما مقدمًا التحية قبل أن يجلس الملك ويطلب منهما الجلوس بدورهما، وجه نظراته نحو فرناندو قائلًا: «أين وصلت التجهيزات للحملة العسكرية أيها القائد؟».

– كل شيء يمشي كما خطط له مولاي، لقد بدأنا باستئجار السفن وسيتم تجهيزها بالأسلحة الضرورية.

– ألا تعتقدان أن هذه الاستعدادات التي نقوم بها من شأنها أن تلفت إلينا الانتباه، وربما يصل الأمر إلى أعدائنا؟

أجابه الأمير هنري قائلًا: «معك حق يا مولاي». صمت مفكرًا لبعض الوقت قبل أن يتابع: «ماذا لو أننا أشعنا أخبارًا مزيفة عن خطط غير حقيقية لنشتت انتباههم؟».

نظر إليه الملك وقد بدا أن الفكرة نالت استحسانه: «فكرة جيدة...». قالها ثم وقف وأخذ يتحرك داخل القاعة مفكرًا تحت نظراتهما، ثم توقف فجأة واستدار نحوهما قائلًا: «فرناندو، اكتب رسالة تهديد إلى دوق هولندا وأخبره أنه إن لم يوقف السرقات والأضرار التي يقوم بها رعاياه ضد تجارنا الذين يمرون من مضايق بلاده، فإننا لن نسكت على ذلك وستكون الحرب بيننا».

صمت فرناندو في صدمة قبل أن يتمتم: «ولكن يا مولاي دوق هولاندا يملك جيشًا قويًّا، ولن يتردد في إعلان الحرب علينا إن وصل إليه تهديدنا المباشر، وليس من مصلحتنا مواجهته الآن».

– هذا إن لم يكن يعلم بحقيقة الأمر، رسالة التهديد يجب أن يعلم بها الجميع حلفاؤنا قبل أعدائنا، لكن في الوقت نفسه سوف أرسل الأمير بيدرو لمقابلة الدوق لأعلمه بخطتنا الزائفة، وبالطبع دون أن يخبره عن نوايانا الحقيقة تجاه سبتة، وفي الوقت ذاته سنعزز تحركاتنا العسكرية بالقرب من الحدود الهولندية، لتبدو نوايانا جادة.

سأل الأمير هنري:

– وماذا إذا اكتشف الدوق خطتنا الحقيقية؟

– لن يكتشف ذلك حتى فوات الأوان، علينا التحرك بسرعة ودقة؛ ابدؤوا بإعداد الرسائل والتحضيرات العسكرية.

أجاب الملك بثقة ليقف القائد فرناندو قائلًا: «على الفور يا مولاي».

التفت الملك نحو الخريطة التي كانت فوق طاولة الاجتماعات ليتحدث بابتسامة واسعة: «يجب أن نحقق أهدافنا دون أن ندع لأعدائنا فرصة للتصدي لنا، ولن نترك أيضا الفرصة لمنافسينا ليسبقونا إلى سبتة التي ستكون في قبضتنا قريبًا».

* * *

(6)

طنجة 2023

وقفت أمام النافذة أراقب الأفق الممتد أمامي المتشح بالسواد، وشعور بالضيق يضغط على صدري بعد قراءتي لكلمات إدوارد، فقد حملت لي كلماته ذكرى علاقتي بزوجتي التي خِلتُ في وقت من الأوقات أنني خسرتها بعد أن علمتُ بتقدم أحدهم لخطبتها، شعور مقيت بالعجز تملكني وضاق عليَّ الكون على رحابته، حينها كنتُ لا أزال صحفيًّا مبتدئًا، ولم أتجرأ على التقدم لها خشية ألا يحظى طلبي بالقبول.«ترقَّب إذا جنَّ الظلام زيارتي

فإنِّي رأيت الليل أكتم للسرِّ

وَبي منك ما لو كانَ بالشمسِ لم تلح

وبالبدر لم يطلع وَبالنجم لم يسرِ»

ولادة بنت المستكفي.

صوت عَيْشَة قَنْدِيشَة أعادني من ذكرياتي، رفعتُ رأسي ونظرتُ إليها، كانت تتطلع إليَّ بابتسامة متسلية تحركت نحوي متابعة كلماتها:

أغَارُ عَليْكَ مِن عَيْنِي رقيبي

ومنكَ ومِنْ زمانك والمَكَان

وَلو أنِّي خَبَّأتُك فِي عُيُوني

إِلَى يَوْم القِيامَة مَا كَفَاني

حفصة بنت الحاج الركونية.

الحب شعور ليس له مثيل في هذا الكون، أليس كذلك؟

التفتنا معا بعد أن سمعنا صوت طقطقة السلاسل يقترب قبل أن نسمع صوتها القادم من قعر بئر سحيق:

– بدايته نشوة ونهايته لعنة.

نظرتُ إلى تلك الشرارات المتطايرة من عينيها كأنها دموع تغادرها ألمًا وحسرة، لم أكد أتحدث حتى وجدتُ عَيْشَة تسبقني بالكلام: «ليس كل حب لعنة، ونحن من نختار أيُّها نريد».

تابعتها في صمت، ثم نظرت نحو المخطوط الذي أعاد لي تلك الذكرى قبل أن أرفع رأسي نحو عَيْشَة متسائلًا:

– هل حقًّا نحنُ من نختار أيها نريد؟

– قد لا تكون بداية الحب اختيارًا، لكن الاستمرار فيه، وكل تصرف نقوم به باسمه، هو قرار واختيار.

قالت عيشة جملتها واتجهت مرة أخرى نحو المرآة، فتبعتها دون أن أضيف كلمة واحدة.

* * *

سبتة 1415

ما إن انتهى عمر من الاغتسال في الحمام الذي كان مجهزًا له بماء معطر بالورد وبعض الأعشاب الطبيعية حتى توجه نحو فناء المنزل حيث ينتظره الحلاق ليصفف شعره ويهذب لحيته الخفيفة، كان يتحرك بخفة وسعادة رغم التوتر الذي يشعر به وهو على مشارف حياة جديدة، لكنه يحاول إخفاء ارتباكه بتوزيع الضحكات والكلمات المرحبة على أصدقائه وبعض أفراد عائلته الذين جاؤوا ليشاركوه استعدادات هذا اليوم المميز؛ بصحن البيت وقفت فاطمة وقد ارتدت ثوبًا أنيقًا من الحرير الأحمر المطرز بخيوط ذهبية، وعيناها امتلأتا بالدموع وهي تتطلع إلى عمر الذي خرج لتوه من غرفته، بعد أن أتم ارتداء ملابسه قميصًا أبيض من الكتان الناعم، وسروالًا فضفاضًا أبيض، وارتدى فوقهما قفطانًا تقليديًّا أزرق مزينًا بتطريزات فضية، ولف حول خصره حزامًا مطرزًا، مكملًا مظهره بارتداء قبعة أنيقة، تقدمت نحوه وقد فرت الكلمات من حلقها بعد أن غلبتها مشاعر السعادة، ابتسم بدوره وهو يحتضنها برفق قبل أن يسمع كلماتها التي خرجت مرتجفة:

– بارك الله لك يا ولدي.

أرسلته من بين أحضانها وضمت وجهه بكفيها لتكمل: «لقد دعوت الله كثيرًا حتى يطيل في عمري لأعيش هذه اللحظة وأراك عريسًا».

– أطال الله عمرك يا أماه، بل سوف تحضرين زواج أبنائي بإذن الله.

– كم كنتُ أتمنى لو أن والدك كان معنا هذا اليوم.

رفع عمر كفيه ليمسح الدموع التي أخذت طريقها على وجنتي أمه، ثم قبَّل رأسها دون أن يقول شيئًا، حاولت فاطمة التغلب على مشاعر الشجن التي انتابتها لرؤية ولدها في ليلة عمره، فابتسمت من وسط دموعها قائلة:

- هيَّا كي لا نتأخر على عروسك فاليوم ليس وقتًا لنبش الأحزان.

لم تكد تنهي جملتها حتى قفز عثمان ليتعلق بشقيقه وهو يقول مشاكسًا: «كل هذا لأن عمر سوف يتزوج، ماذا ستفعلين إذا يوم زفافي؟».

أجابه عمر بابتسامة متسلية:

- سوف ترقص سعادة لأنها تخلصت منك...

- لن تتخلص مني بسهولة فأنا لن أغادر هذا البيت بل سأحضر زوجتي لنعيش هنا.

لم تتمكن فاطمة من تمالك مشاعرها وهي تراقب مشاكسة ولديها وإن اعتادتها دومًا، لكن اليوم كان خاصًّا درجة أنها تركت العنان لدموعها لتغمر وجهها، انتبه إليها الاثنان فتقدما نحوها ليحتضناها معًا، وهي تدعو لهما بأن يمنحهما الله السعادة ويحفظهما من كل شر.

* * *

«عائشة»

في غرفة الاستقبال الواسعة ببيتنا الذي وزعت الشموع بكل أركانه لتنعكس أضواؤها على الفيسفساء البديعة المزينة لجدرانه، والورود

الموزعة في كل أرجائه ابتهاجًا بحفل الزفاف، جلستُ وسط صديقاتي ونساء عائلتي بعد أن ارتديت ثوبًا بلون أخضر براق مطرزًا بنقوش ذهبية، وأسدلت على رأسي وشاحًا شفافًا بلون أخضر، ومددت يديَّ لتتزين بنقوش الحناء، وأنا أستمع إلى الأهازيج التي ترددها النسوة من حولي، جلست أروى إلى جواري تشارك أحيانًا في الغناء، ثم تعود لتتبادل الحديث معًا مخففة عني بعض التوتر والارتباك الذي لم أتمكن من التخلص منه في هذا اليوم المميز، انحنت أروى مقتربة من أذني لتهمس لي بمشاكسة:

– لقد جفت الحناء على كفيك، ومعنى ذلك أنه لم يتبقَّ الكثير على موعد الرحيل.

التفتُّ نحوها لأجيبها بخجل: «أشعر بالخوف، أو ربما الحزن لا أعرف مشاعري كلها متداخلة، وأرغب في البكاء الآن».

– إياكِ؛ سوف تفسدين الزينة.

– لا يهمني.

ضحكت أروى وهي تربت على ذراعي بحنوٍّ: «اهدئي عزيزتي، كل تلك المشاعر التي تزعجك الآن سوف تتحول إلى سعادة لا مثيل لها بمجرد دخولك إلى بيتك الجديد ولقاء زوجك».

أومأت لها وأنا أحاول بالفعل إقناع نفسي وتصديق حديثها، فرغم سعادتي بزواجي بمن امتلك قلبي، إلا أنني لم أكن أستطع تجاوز مشاعر

الرهبة من الحياة الجديدة التي على وشك الإقبال عليها، وأيضًا مشاعر الحزن لفراق بيتِ أبي الذي لم أغادره أبدًا طوال سنوات حياتي.

دخلت أمي الغرفة وهي تبتسم بسعادة مرحبة بضيفاتها، ثم تقدمت نحوي لتقبل رأسي قائلة:

- هيا حبيبتي، يجب أن تغيري ثيابك وترتدي فستان العرس، زوجك وعائلته على وشك الوصول.

رفعتُ عيني المترقرقتين بالدموع نحوها، وما إن انتبهت لي حتى أمسكت وجهي بين كفيها وهي تغالب بدورها تلك الرغبة في البكاء التي انتابتها وهي تقول: «حفظك الله يا أجمل عروس، ورزقك السعادة والبركة في حياتك القادمة بإذن الله».

عدتُ إلى غرفتي لأرتدي فستاني الحريري الأبيض المزين بخيوط فضية براقة، واضعة حول عنقي قلادة من الذهب المزين باللؤلؤ الأبيض، ووضعت على رأسي تاجًا صغيرًا من الزهور البيضاء،

كانت أصوات الموشحات الأندلسية تصل إليَّ قادمة من ساحة البيت الخارجية حيث تجمع الأهل والأصدقاء من ضيوف والدي ومعهم عمر وعائلته الذين وصلوا قبل فترة، جلستُ بالقرب من النافذة المطلة على الساحة أراقب الجمع من خلف الستائر، وأستمتع بما يصل إليَّ من كلمات تطرب أذنيَّ وتخفف عني وطأة التوتر:

يا أُهَيْلَ الحيِّ منْ وادِي الغضا
وبقلْبي مسْكَنٌ أنْتُمْ بهِ
ضاقَ عْنْ وجْدي بكُمْ رحْبُ الفَضا
لا أبالِي شرْقُهُ منْ غَرْبِهِ
فأعِيدوا عهْدَ أنْسٍ قدْ مضَى
تُعْتِقوا عانِيكُمُ منْ كرْبِهِ
واتَّقوا اللهَ وأحْيُوا مُغْرَما
يتَلاشَى نفَسًا في نفَس

لكن وكلما مرَّ الوقت واقترب آن الرحيل إلا وشعرت بضربات قلبي تزداد ارتفاعًا حتى اختفت الأصوات من أذني، ولم أعد أستمع إلى شيء حتى لثرثرة أروى التي لا تكف عن الحديث، استقمتُ واقفة بسرعة ما إن ارتفعت الزغاريد خارج غرفتي، وشبكت كفيَّ أنظر نحو الباب الذي فتح ببطء ليدخل أبي، توقف للحظات عند الباب وهو يتفحصني وبعينيه كل ذكرياته منذ أن حملني بين ذراعيه بعد ولادتي مباشرة، ورؤيته لي أكبر أمام عينيه كزهرة جميلة تنمو وتكبر بكل جمال ورقة، حتى أتى اليوم الذي سوف يسلمني بيديه لزوج يرجو فيه أن يكون نعم السند والظهر، اقترب مني بخطوات وئيدة ليقبلني على جبيني قائلًا:

– صغيرتي، لا أصدق أنني أراكِ اليوم عروسًا جميلة ومستعدة لبداية حياة جديدة. أريدك أن تثقي دومًا بنفسك وبزوجك كوني له زوجة

صالحة، قوية؛ حكيمة؛ صبورة؛ كوني سندًا له في كل الأوقات السيئة قبل الجيدة، زوجة محبة ومتفهمة، واعلمي يا ابنتي أنني دائمًا هنا من أجلك أدعو الله أن تكون حياتك مليئة بالحب والسعادة والبركة.

أومأت برأسي موافقة وقد تسللت الدمعات على خدي، عاد أبي ليقبلني مرة أخرى على جبيني قبل أن يأخذ بيدي، ليقودني إلى الفناء حيث ينتظرني عمر وسط زغاريد الأهل والأصدقاء.

* * *

هدأت الحركة في شوارع وأزقة سبتة بعد أن غلفها الظلام كعباءة سوداء تتخللها الأضواء الخافتة المتسللة من نوافذ البيوت الهادئة، بخطوات خفيفة تحرك غسان وهو يلتفت يمينًا ويسارًا حتى يطمئن أن أحدًا لا يراه، متجهًا نحو بيت الشيخ محمود، وما إن وصل إلى الحي الذي يضم البيت حتى توقف وعيناه تدوران في كل اتجاه، ثم اقترب من إحدى النوافذ ليخرج خنجره محاولًا فتحها بهدوء دون إحداث أي ضجة تثير إليه الانتباه، وسرعان ما خضعت له النافذة لتفتح على مصراعيها فانطلق متسللًا إلى الداخل بحذر، كان البيت ساكنًا تضيئه بعض الشموع التي تضفي عليه نورًا خافتًا، تقدم ببطء نحو غرفة الشيخ محمود الذي يغط في نوم عميق. كان يعلم أنه لا أحد بالبيت سواه، فهو لا يزال مريضًا وغير قادر على مغادرة فراشه، بينما اليوم هو زفاف عائشة صديقة أروى والتي بالتأكيد سترافق صديقتها بعد أن أطمأنت أن جابر سيبقى بجواره، لكنها لم تكن تدرك أن شقيقها

سرعان ما ترك البيت عائدًا إلى زوجته مقنعًا نفسه أن أباه سينام الليل ولن يحتاج إلى شيء في غيابه.

وقف غسان أمام فراش الشيخ محمود يتطلع إليه بِغلٍّ، تقدم نحوه وجثا على ركبتيه أمام ليحدثه بصوت لم يغادر شفتيه: «لن أنسى لك أيها العجوز أنك حرمتني من رؤية أروى عندما جعلتها تعصي شقيقها وصارت تختفي عندما أدخل هذا البيت، وأعرف أنك لن تسمح لي بالاقتراب منها لا أعرف لم تكرهني أنت وابنتك رغم أني أعشقها»... صمت قليلًا مفكرًا، ثم عاد ليكمل حديث نفسه: «لكني لن أستسلم حتى أحصل عليها ستكون لي برغبتها أو دون رضاها، لا يهم ولن أتركك تقف في طريقي أبدًا...».

جحظت عينا غسان عندما استفاق الشيخ محمود فجأة لينظر إليه بجزع، حاول التحرك لكن غسان أوقفه سريعًا، بعد أن سحب الوسادة من تحت رأسه ليكتم بها أنفاسه دون أن يهتم لصوت أنينه المكتوم وحركة يديه التي رفعها متخبطًا في الهواء محاولًا تخليص نفسه، لكن قوته كانت أضعف من مواجهة قوة الكره بقلب غسان الذي ضغط بشدة حتى بدأت حركة الشيخ محمود تخفت شيئًا فشيئًا إلى أن توقفت تمامًا، استقام واقفًا وهو يتنفس بعمق وتراجع إلى الخلف ينظر إلى الجسد المسجى على الفراش، رفع الوسادة عن وجهه وألقى نظرة أخيرة على وجهه الذي أغمض عينيه بعد أن سلم روحه إلى بارئها، ودون أن يشعر بذرة ندم تحرك مغادرًا البيت من الطريق نفسها التي سلكها للدخول.

* * *

«عائشة»

لم أكن أشعر بما يدور حولي ولا أسمع سوى صوت نبضات قلبي التي خِلتُ أن صداها يصل إلى الجميع ونحن في الطريق نحو بيتي الجديد، دخلتُ الغرفة وجلستُ على حافة السرير أفرك كفيَّ بتوتر بالغ وأنا أنظر إليهما غير قادرة على رفع وجهي نحو عمر الذي اقترب ليجلس إلى جواري في صمت وقد بدا لي أنه أيضًا مرتبك بعض الشيء، لحظات من الصمت قبل أن أنتفض عندما مد يديه ليرفع الوشاح عن وجهي المتورد، بقيت على وضعي دون حركة فشعرت بكفه ترفع ذقني لأجدني في مواجهة عينيه المتألقتين ببريق جذاب؛ ابتسم بهدوء قائلًا:

– ما زلتُ لا أصدق أننا صرنا معًا في بيت واحد.

عدتُ لأخفض رأسي مرة أخرى هاربة من نظراته التي زادت من وجيب قلبي وقد انعقد لساني عن الكلام، سمعتُ ضحكته المتسلية فرفعت رأسي أنظر إليه بغضب مفتعل شابكة ذراعاي حول صدري وأنا أقول:

– ما الذي يضحكك؟

أشار إليَّ وهو يقول: «هذه هي عائشة التي أحببتها تلك المشاكسة، أما الخجولة التي لا تستطيع النظر في وجهي فأنا لا أعرفها».

ابتسمتُ بخجل وأنا أسأله: «هل تحبني حقًّا؟».

– منذُ أول يوم رأيتك فيه ولا أعرف كيف حدث ذلك، ما أعرفه أني وجدتُ نفسي لأول مرة أكذب وأضطر إلى نسخ كتاب أمتلك منه أكثر من نسخة فقط خشية ألا أراك ثانية إذا ما أخذتِه.

– أنا خائفة؟

– لماذا؟

– لا أعرف، فقط أشعر بالخوف لم أتخيل أن تتحقق أحلامي هكذا بكل بساطة.

– على اعتبار أنه لا يوجد حب دون عذاب وألم.

رفعتُ كتفَيَّ وزممت شفتَيَّ وأنا أجيبه: «ربما».

– إن كان الأمر كذلك فنحن سنكون الاستثناء، أعدك أني سأفعل المستحيل لأجعلك سعيدة حتى آخر يوم في حياتي.

كنتُ خائفة بالفعل، خائفة من تلك السعادة التي طرقت بابي واستقبلتها بترحاب، لا أعلم لم نتوجس خيفة من القادم إذا ما فرحنا نشعر أن السعادة ما هي إلا هدوء ما قبل العاصفة تلك المشاعر التي تفسد علينا جمال اللحظات التي نعيشها، لكنني قررت أن أتجاهل هذا الشعور فلن أتركه ينغص عليَّ أجمل لحظات حياتي سأترك القلق جانبًا وأستمتع بما أنا فيه، فكل لحظة سعيدة تستحق أن أعيشها كما هي دون قلق أو خوف.

* * *

أشرقت شمس الصباح وتسللت أشعتها من خلف الستائر لتداعب وجه أروى التي بالكاد نامت ساعات قليلة في غرفة صديقتها عائشة بعد رحيل هذه الأخيرة، كانت ترغبُ في العودة إلى بيتها مباشرة بعد انتهاء العرس، لكن جواهر رفضت تركها تغادر بعد أن تأخر الوقت وأصرت أن تبيت معهما الليلة.

استيقظت فاتحة عينيها ببطء ثم اعتدلت في جلستها على الفراش، أخذت نفسًا عميقًا وهي تضع يدها تتحسس صدرها حيث كانت تشعر بانقباض شديد بقلبها لم يفارقها طوال الليل، غادرت فراشها لتستعد للعودة إلى البيت، فبالرغم من أنها تعلم أن جابر بات ليلته مع والدها لكنها لا تشعر بالاطمئنان عليه إلا بوجودها، فربما يحتاج إلى أمر لا يستطيع جابر قضاءه له، حاولت تجاهل ذلك الشعور بالخوف الذي تلبسها وهي في طريقها إلى البيت، وما إن وصلت حتى استقبلها الهدوء الشديد نادت شقيقها فلم يقابلها سوى الصمت، أسرعت الخطى نحو غرفة والدها، أمسكت بالمقبض وفتحته بحذر خشية أن يزعجه صوت صرير الباب، ووقفت تنظر إليه مستلقيًا على فراشه بهدوء، اقتربت بخطوات حذرة ثم جثت بالقرب من الفراش تتطلع إلى ملامحه الساكنة، تنفست بعمق محاولة السيطرة على تلك المشاعر التي تنتابها قبل أن تمد يدها لترفع كفه وتربت عليها وهي تناديه بصوت خافت: «أبي... أبي».

شعرت ببرودة كفه بين يديها فزادت ضربات قلبها اقتربت منه أكثر لتحركه بلطف، منادية إياه بصوت بدأ يرتجف: «أبي، استيقظ هل أنت بخير».

لم يقابلها سوى صمته وجموده التام، وضعت رأسها على صدره لتدرك أن قلبه متوقف عن النبض، رفعت رأسها برعب تنظر إلى وجهه الساكن وانهمرت دموعها على خديها، لكنها حركت رأسها في عدم تصديق وهي تناديه مرة أخرى: «أبي أرجوك استيقظ».

خيِّل إليها أن صدره يتحرك تلك الحركات الرتيبة التي تدل على تحرك الهواء برئتيه، فوضعت يديها فوقه ثم عادت لتضع يديها بالقرب من أنفه، لكن لا وجود لهواء يدخل أو يخرج، أدركت في تلك اللحظة أنه لا يتنفس زحفت متراجعة إلى الخلف بصدمة وهي تردد: «لا... لا يمكن... أبي لا يمكن أن ترحل بهذه الطريقة... أنت نائم فقط، وسوف تستيقظ لتبتسم لي وتخبرني أنك صرت بخير، أليس كذلك؟.. هيا أبي استيقظ».

لا تعرف ما الذي حدث فتحت أروى عينيها لتقابل نظرات شقيقها جابر القلقة، انتفضت بجزع وهي تتلفت حولها لتجد أنها لا تزال على الأرض في غرفة والدها، نظرت نحو الفراش لترى جسده مغطى بالكامل، عادت تنظر إلى جابر تسأله بصدمة:

- ما الذي حدث؟

- يبدو أنك فقدت وعيك بعد أن...

صمت وهو يغلق عينيه بألم محاولًا منع الدموع التي تجمعت بهما قبل أن يتابع: «لقد رحل أبي».

انتفضت من مكانها وجذبته من قميصه تصرخ بوجهه: «لا تقل ذلك، أبي لم يمت، أنت تكذب... أنت تكذب».

قبض على مرفقيها محاولا تهدئتها: «اهدئي حبيبتي».

جذبت يديها منه، ثم دفعته بقوة على صدره وهي تصرخ: «أين كنت؟ لم تركته وحيدًا؟».

ابتلع جابر ريقه ولم يستطع الرد وهو يتذكر كيف تركه بالأمس وعاد إلى بيته، فزوجته أخبرته أنها لا تستطيع المبيت بمفردها، كما رفضت مرافقته للمبيت مع والده، بحجة أنها متعبة وغير قادرة على التنقل، شعر بالندم يأكل قلبه فلم يخطر بباله أن تلك الليلة ستكون الأخيرة في حياة أبيه، ولو كان يعلم لما تركه لحظة واحدة، ترك أروى تُخرِج ألمها وهي تصرخ في وجهه وتلومه على ذنب يعرف جيدًا أن اقترفه دون قصد، حتى انهارت على ركبتيها تنتحب بألم مزق قلبه، فاقترب منها وضمها وتركها تفرغ دموعها وصراخها فوق صدره، ثم رفع رأسها بين كفيه قائلًا:

– هيا عزيزتي، يجب أن تكوني قوية علينا الآن أن نبدأ التجهيز لمراسم الدفن والعزاء.

نظرت إليه بصدمة لا تصدق أن هذا الذي يتحدث عنه هو والدها الحبيب الذي سيضمه التراب بعد ساعات قليلة ولن ترى وجهه وابتسامته الحانية بعد اليوم، التفتت تنظر إليه، ثم تحركت بخطوات بطيئة لتقف أمام جسده المسجى على السرير، رفعت الغطاء عن

وجهه بهدوء تتطلع إلى ملامحه الساكنة، شعرت بكفي جابر على كتفها فاستدارت تنظر إليه بغضب، ثم انطلقت لتغادر الغرفة، لكنها ما إن خرجت من الباب حتى تسمرت مكانها عندما اصطدمت بغسان واقفًا وسط فناء البيت ينظر إليها بنظرات غريبة لم تستطع تفسيرها، لكنها جعلت جسدها يرتجف بقوة.

* * *

(7)

طنجة 2023

هل ما أسمعه صوت أنين بالفعل؟ أرهفتُ السمع ليصل إليَّ صوت بكاء مكتوم، تحركتُ بحذر تحت ضوء القمر الباهت المتسلل من النافذة المكسورة للغرفة، وما إن فتحت الباب حتى اصطدمت بتلك الشرارات المتطايرة، توقفتُ مكاني خشية أن تصل إليَّ فأحترق بها، لكني شعرتُ بالشفقة على تكمارت نيسمضال التي كانت تجلس على الأرض وعيناها لا تتوقفان عن إطلاق تلك الدموع النارية، فجأة سمعت صوتها وهي تقول:

– لم أكن أعلم أن ليلة واحدة مشؤومة من الضعف ستقودني إلى هذا المصير الملعون؛ استسلمت لرغباتي وتركت نفسي للفناء تحت وطأة الخطيئة.

سألتُها بتعاطف:

– تبكين ندمًا؟

لا تتوقف، ولن تتوقف هذه الدموع وستظل تحرقني وتذكرني أني كنتُ أستطيع مقاومة تلك الرغبة اللعينة لأحافظ على طهارتي ونقائي.

– لذلك تقولين إن الحب لعنة؟

تدخلت عَيْشَة التي كانت تقف خلفي تتابع الحوار الدائر بيننا، لتقول وهي تكتف ذراعيها حول صدرها، وتنظر نحوها بعتاب:

– لم يكن حبًّا؛ بل مجرد رغبة آثمة سيطرت على قلبها، ودفعتها نحو منحدر الخطيئة الذي لم تستطع العودة منه.

– تلومينني لأني وقعتُ في الحب في الوقت غير المناسب وللشخص غير المناسب.

– وهل كان حبًّا حقًّا؟

سألتُ باستهجان لتجيبني عَيْشَة: «بالطبع لا، مجرد رغبة جامحة».

– الحب والرغبة متشابهان في بعض الأحيان، ومع ذلك هما مختلفان تمامًا...

قالتها تَكْمَارْت بنبرة حزينة قبل تطرق برأسها إلى الأرض وكأنها تهرب من مواجهة نظراتنا المصوبة نحوها، وهي تكمل بصوت هامس بالكاد وصل إلينا: «بالنسبة لي كان حبًّا؛ لكنه كان مشوبًا برغبة لم أستطع إخمادها، لقد أحببتُ بشدة، ولم أفكر في عواقب الاستسلام لتلك المشاعر، وتلك الرغبة المتقدة التي دفعتني لأرتكب خطيئة لا تُغتفر، ربما لم أستطع التمييز بينهما فسقطت في هاوية لا عودة منها».

شعرتُ بالحزن من أجلها، فكم من شخص قادته مشاعره إلى مصير مؤلم ولم ينفعه ندمه، كما أراها الآن تتعذب في كل لحظة مكبلة بسلاسل ذنبها غير قادرة على التخلص منها، التفتُّ نحو عَيْشَة التي كانت تقول: «الحب والرغبة قوتان عظيمتان يمكن أن ترفعك إلى السماء أو تهبط بك إلى أعماق الجحيم، ويجب على كل إنسان أن يختار ما يشاء بحكمة، وإلا سوف يجد نفسه في مصير أسود».

- وهل ما فعله غسَّان كان بدافع الحب أم الرغبة؟

- أيًّا كان فقد اختار السقوط في الخطيئة التي لا تغتفر.

تذكرتُ كيف كان حبي لمنى دافعًا قويًّا لأبحث عن فرص عمل أفضل حتى أتمكن من التقدم لها دون خوف من أن يرفضني أهلها ولأستطيع توفير حياة كريمة لها وهي زوجتي، نظرتُ إلى عَيْشَة التي استدارت عائدة نحو الغرفة، ثم عدتُ أنظر نحو تكمارت نيسمضال التي لا تزال على حالها تبكي في صمت، قبل أن أستدير بدوري لألحق بعيشة وبداخلي سؤال يتردد منذ رأيت تكمارت مرة ثانية، وأدركتُ أنهما بالفعل مختلفتان وليستا شخصًا واحدًا كما يعتقد البعض؛ ما العلاقة بينهما، ولم تجتمعان معًا في مكان واحد؟ دخلتُ الغرفة خلف عيشة فوجدتها تقف أمام المرآة بابتسامة واسعة قبل أن تقول: «الغواية والانتقام».

- لا أفهم قصدك!

- هذا ما يجمعني بها، لكننا مختلفتان تمامًا، ولا وجه للمقارنة، وسوف تدرك ذلك بنفسك.

فتحتُ فمي لأستفسر منها أكثر، لكنها لم تنتظر سماعي واستدارت لتختفي من جديد داخل المرآة.

* * *

سبتة 1415

مرَّ اليوم طويلًا جدًّا على أروى حتى إنها لا تعرف كيف وصل الليل وبدأت وفود المعزيين في المغادرة بعد أداء واجب العزاء، كانت تجلس في ركن الغرفة تضم نفسها ولا تشعر بما يدور حولها، ما زالت لا تصدق ما حدث، كيف مات والدها بعد أن بدأت صحته في التحسن وبدأ الاطمئنان يتسلل إليها بأنه تجاوز مرحلة الخطر، لم تفارقها عائشة لحظة واحدة منذ سمعت بالخبر، كانت تجلس إلى جوارها تحتضنها تارة، وتربت عليها تارة أخرى، بدأت غرفة النساء تخلو أيضًا، التفتت عائشة إلى أروى لتسألها بقلق:

– ما الذي ستفعلينه الآن؟

زفرت أنفاسها المثقلة بالألم قبل أن تجيبها: «ماذا تقصدين؟».

– أقصد هل ستبقين هنا في المنزل بمفردك؟

– لا أعرف.

رفعت أروى رأسها تنظر إلى تلك التي كانت تجلس متبرمة تحيط بطنها المتكور بكلتا يديها، وعلى وجهها أمارات السخط، قبل أن تعود لتتكئ على عائشة متابعة حديثها: «انظري إليها كأنها تجلس على الجمر لا تريد حتى أن تكمل واجب عزاء والد زوجها».

– دعكِ منها، أنتِ تعرفينها جيدًا.

– وأعرف أن أخي لا يرد لها كلمة، إنه أمامها كالحمل الوديع، لا صوت له ولا رأي.

– لهذا أسألك ما الذي تفكرين به؟.. لا أعتقد أنها تقبل بك في بيتها.

– بل كوني متأكدة من ذلك، ولا أنا أرغب في العيش معها، لن أرتاح في بيت تكرهني صاحبته.

– ولا يمكن أيضًا أن تعيشي بمفردك إلا إذا عاد شقيقك سليمان.

تنهدت أروى بألم وهي تقول: «وأين هو سليمان؟.. لا أعرف أين يكون، ولا متى سيعلم بأمر رحيل أبي؟».

ربتت عائشة على ظهرها بحنو وهي ترى تلك الدموع التي عادت للانسكاب بغزارة، ثم قالت لها مواسية:

– هوني على نفسك حبيبتي.

رفعت أروى كفها لتمسح دموعها وهي تقول: «لا تقلقي؛ علمني أبي أن أكون قوية، وسأكون كذلك ولن أخيب رجاءه بي».

عادت تنظر إلى عائشة في أسف وهي تقول: «أعتذر منك تركتِ بيتك في أول يوم زواج من أجلي».

قاطعتها عائشة بسرعة وهي تحتضنها بحرارة: «لا تقولي ذلك أبدًا، أنتِ لستِ صديقتي فقط، أنتِ شقيقتي، ولا يمكن أن أتركك أبدًا في وقت عصيب كهذا».

نظرت أروى إلى صديقتها بامتنان كبير، وشعرت ببعض الراحة

لوجودها بجانبها، لكنها عادت لتقول لها: «اذهبي الآن إلى بيتك لا يجب أن تتركي زوجك قد يغضب».

قاطعتها عائشة مرة أخرى: «عمر لن يغضب، فهو يعرف مدى حبي لك، حتى إنه أخبرني أنه بإمكاني المبيت معك الليلة».

ابتسمت أروى لأول مرة منذ صباح هذا اليوم المؤلم، ومدت يديها تحتضن كفي صديقتها قائلة: «يقولون إن الطيور على أشكالها تقع، الآن تأكدت أن هذه المقولة صادقة بالفعل».

- عمر طيب جدًّا.

- بارك الله لك فيه.

- وبإذن الله سيبعث لك الله أيضًا من يستحقك.

ابتسمت أروى بحزن، ثم أرخت جسدها لتتكئ على صديقتها تستمد منها بعض القوة والدعم.

* * *

أمام باب البيت وقف جابر يتلقى التعازي من الجيران والأقارب الذين جاؤوا لمواساته في مصابه بفقدان أبيه، ظل غسان بجانبه منذ صباح اليوم بعد أن اكتشفوا وفاة الشيخ محمود ولم يتركه لحظة واحدة، كان جابر شاردًا عندما انتفض على لمسة غسان لكتفه فالتفت إليه ليقابله هذا الأخير قائلًا:

– أعرف أن فقدان والدك الشيخ محمود خسارة كبيرة، لكن يجب أن تكون قويًّا فخلفك مسؤوليات لا حصر لها.

تنهد جابر بألم وهو يمسح وجهه بكفيه ويتنفس بعمق، ربما يتخلص من تلك الغصة التي تضغط على صدره، تذكره أنه ترك والده يحتضر وحيدًا بينما كان ينام هانئًا على فراشه في أحضان زوجته، انتبه غسان لما يفكر به صديقه فقال مواسيًا: «ما كنتَ لتمنع عنه الموت، إنه أجله».

– ولكن كان يمكن أن أكون على الأقل بجانبه في لحظاته الأخيرة؛ أن ألقنه الشهادة؛ أن أقبِّل جبينه وأغمض عينيه بيدي...

أوقفه غسان على الاسترسال في الحديث بعدما انتبه إلى سحابة الدموع التي غطت عينيه، وأمسكه من ذراعه قائلًا بحزم:

– توقف عن جلد نفسك، فذلك لن يعيد إليه الحياة، الآن يجب أن تفكر في القادم.

– ماذا تقصد؟

– زوجتك على وشك الولادة ويجب أن تكون بجانبها حتى تضع طفلها على خير، وشقيقتك التي صارت الآن وحيدة وأنت مُعيلها الوحيد.

زفر جابر بضيق ما إن تذكر شقيقته أروى، فهو يعلم جيدًا العلاقة المتوترة بينها وبين زوجته، ولا يعرف كيف يمكنه إقناع كلتاهما بالعيش تحت سقف بيت واحد، لم يخفَ على غسَّان ما يفكر به

صديقه، كادت ابتسامة انتصار تنفلت من بين شفتيه وهو يُمَنِّي نفسه أن اللحظة التي خطط لها لم تعد بعيدة، لكنه ألجم تلك الابتسامة وعاد ينظر إلى جابر قائلًا:

- أعرف ما تفكر به.

- أريدك أن تساعدني وتقنع مليكة بأن تقبل الوضع الجديد على الأقل حتى يعود سليمان، لقد أرسلت إليه لأخبره بوفاة أبينا ولا شك أنه سيعود إلى سبتة ما إن تصل إليه رسالتي.

- أجل، ولكنه لن يعود قبل أشهر، وأنا أعرف شقيقتي جيدًا، خلقها ضيق ولن تتحمل وجود شخص آخر معها في البيت، خاصة أروى التي لا تطيقها ولا أعرف ما سر تلك العداوة بينهما.

- ولا أنا؛ لقد حاولتُ مرارًا أن أقرب بينهما، لكن دون جدوى.

- ولن تعرف؛ عقول النساء صغيرة جدًّا يا صديقي.

- ما يهمني الآن أن أجد حلًّا بسرعة.

- قد يكون الوقتُ غير مناسب، ولكني فكرت في أمر سوف يرضي جميع الأطراف ويخفف عنك عبء شقيقتك.

نظر إليه جابر باستغراب ليتظاهر غسان بالتوتر والخجل وهو يقول بصوت هامس: «في الحقيقة أنا أفكر في الأمر منذ فترة طويلة... و...».

- لم لا تقول ما عندك بوضوح؟.. ما بك يا غسان، لم أعهدك مترددًا

من قبل؟

– لأني لا أعرف كيف ستتقبل طلبي، ولا أريد لشيء أن يؤثر على صداقتنا.

– تحدث دون قلق فأنت لستَ صديقي فحسب ولكنك صهري وخال طفلي القادم.

– حسنًا، كنت أريد التقدم لطلب شقيقتك أروى للزواج.

نظر جابر بصدمة إلى صديقه الذي كان يقف متوترًا، فلم يتخيل أبدًا أمرًا كهذا، غسان يصبح زوج أخته الوحيدة، لم يجد حرجًا في الأمر بل على العكس بدأت مشاعر الراحة تتسلل إليه، فهذا هو الحل الأمثل الذي يخلصه من مشكلته المستعصية، طال صمته وهو يفكر ليتحرك غسان خطوة كأنه يستعد للمغادرة قائلًا:

– إذا لم يكن طلبي ليحظى بالقبول فاعتبر أني لم أقل شيئًا؟.. اِنسَ الأمر.

– ما تقوله مفاجأة حقيقية لم أتوقع ذلك على الإطلاق.

– لا بأس، اِنس الأمر.

ابتسم جابر بهدوء وهو يربت على ذراع صديقه قائلًا: «لا تقل ذلك، أنتَ صديقي وبالتأكيد لن أمأن على شقيقتي مع شخص آخر أكثر منك، لكن أظن أن الوقت الآن غير مناسب، علينا الانتظار قليلًا قبل أن أفاتحها في الأمر».

- معك حق.

تراجع غسان إلى الخلف وهو يخفي تلك السعادة التي يشعر بها، خطته تمضي بخطوات ثابتة، فها هو تخلص من ذلك العجوز دون أن يشك أحد في سبب موته، والآن يرى ملامح الراحة بادية بوضوح على جابر الذي لن يتردد في القبول ليتخلص من حمل شقيقته الثقيل، عليه الآن أن يجعل مليكة بالمقابل تضغط أكثر على جابر حتى يجبر أروى على قبوله زوجًا، فهو يعلم يقينًا أن تلك العنيدة لن تتردد في رفضه كما تفعل دومًا، لكنها هذه المرة محاصرة من كل اتجاه، ولا سبيل لها إلى النجاة سوى الرضوخ وقبول طلبه، لكن يجب ألا يتأخر الأمر كثيرًا فربما يعود سليمان ويفقد فرصته الذهبية التي لن تعوض.

* * *

لشبونة

«إدوارد»

انتهيتُ من إطعام أمي الحساء بعد أن حضرته لها بنفسي، كنتُ أشعر بالراحة كلما قابلتني نظراتها الممتنة وابتسامتها الراضية منذ سنوات وهي طريحة الفراش لا تتحرك إلا بمساعدتي، حتى إنها لا تستطيع تغيير ملابسها ولا الاستحمام إلا إذا ساعدتها، ليس لها أحدٌ سواي شقيقاتي، كلهن تزوجن وصارت لديهن مسؤوليات أخرى، لم تكن تخفَى عليَّ تلك النظرات الحزينة التي ألمحها أحيانًا بعينيها، وأعرف أنها تفكر في كونها صارت عبئًا ثقيلًا يحرمني من ممارسة حياتي كأي شاب في سني، لكني

لم أشعر بذلك مطلقًا، كنتُ راضيًا بخدمتها، سعيدًا إذا ما رأيتها مرتاحة لا ينقصها شيء، ولا تشكو من شيء... لكن والدة لوتيسيا ترى عكس ذلك تخشى إذا ما تزوجتُ ابنتها أن أجبرها على خدمة والدتي، ورغم أني أكدت لها مرارًا أن ذلك لن يحدث، وأني كفيل بالعناية بها بمفردي لكنها لم تغير رأيها أبدًا، جلستُ بجوار أمي التي أغمضت عينيها لتغط في نوم عميق، قبلتُ جبينها، وأحكمت البطانية فوق جسدها وغادرت الغرفة لأتركها تنعم بنوم هادئ، سمعت طرقات على الباب فاتجهت إليه لأجد شقيقتي أماندا التي اندفعت مباشرة إلى داخل المنزل قائلة:

- أعرف أني تأخرتُ عليك كنتُ في السوق لأحضر حاجيات البيت.

- لا عليك عزيزتي، لا يزال أمامي وقت قبل موعد عملي.

تحركت أماندا نحو غرفة أمي لكني أوقفتها: «إنها نائمة الآن».

- حسنًا، لا بأس، سوف أذهب إلى المطبخ لأحضر لكما طعام هذا اليوم.

- لا تتعبي نفسك أماندا، لقد جهزتُ الطعام.

- لِمَ فعلت ذلك؟.. أخبرتك أني سآتي اليوم و...

قاطعتها وأنا أتقدم نحوها لأضم كتفيها قائلًا: «لا عليكِ، المهم أخبريني كيف حال زوجك وطفليك؟».

- جميعهم بخير، ما يقلقني ويشغل تفكيري هو أنت.

– أنا!

أجبتها باستغراب لتكمل حديثها: «ألم يحن الوقت بعد لتبحث عن عروس إلى متى ستعيش وحيدًا؟».

– ماذا تقصدين بأن أبحث على عروس؟.. تعلمين أني لستُ بحاجة إلى البحث، أنا بالفعل أحب لوتيسيا وأريدها زوجة لي».

– وأمها ترفض هذا الزواج وهي لا تستطيع مواجهة أمها بل تنفذ ما تطلبه منها... قالتها بغضب لأنظر إليها وقد زادت دهشتي من تغير موقفها؛ أماندا دومًا كانت تساندني وتشجعني لأحارب من أجل تحقيق أمنيتي في الزواج بمن اختارها قلبي، لكنَّ ملامحها هذه المرة تحمل مزيجًا من الألم والغضب والحيرة لأستفسر منها:

– أماندا، أشعر أن هناك ما تخفينه عني، أرجوكِ تحدثي بوضوح.

– حسنًا سأفعل؛ على كل حال يجب أن تعرف حتى تتوقف عن انتظار أمر لن يحدث أبدًا.

– ماذا تقصدين؟

– منذ فترة قابلت لوتيسيا وتحدثت إليها وأخبرتني أن ارتباطكما لم يعد ممكنًا، وأن الأمر انتهى إلى الأبد، كنتُ أظنها فقط غاضبة، أردت أن أستفسر منها عن سبب هذه القطيعة خاصة بعدما وضحت لها ظروف عملك، لكنها رفضت الاستماع لي، لم أخبرك شيئًا، أردت الانتظار بعض الوقت فربما تهدأ قليلًا وتعيد التفكير، لكن ما وصل إليَّ من

أخبار أكدت لي أنها كانت جادة في إنهاء علاقتكما، وربما استغلت أول فرصة لاختلاق مشكلة لتنفيذ ما تفكر به...

- ما زلتُ لا أفهمك أماندا.

- لوتيسيا سوف تتزوج.

* * *

سبتة 1415

خلا البيت سوى من ساكنيه بعد أن غادر جميع من جاء للمشاركة في تشييع الشيخ محمود الذي كان محبوبًا بين الناس، جلست أروى في غرفتها رفقة زينب بعد أن أصرَّت هذه الأخيرة على البقاء معها، خاصة بعد رحيل عائشة نحو بيتها فقد رفضت أروى بقاءها معها وهي لا تزال عروسًا، حملت مصحف أبيها لتقرأ منه ربما تطمئن روحها بذكر الله، في الوقت الذي كان جابر في غرفة أخرى مع زوجته بعد أن قرر بدوره المبيت في بيت والده، رغم تذمر مليكة التي كانت تزفر أنفاسها الغاضبة وهي تتحرك ببطء داخل الغرفة، قبل أن تقف أمامه واضعة إحدى يديها على بطنها والأخرى خلف ظهرها، وهي تقول بغيظ:

- لا أعرف لم تصرَّ أن نبيت هنا، تعرف أني لا أرتاح سوى في فراشي.

قاطعها محاولًا تهدئتها قائلًا: «أعرف حبيبتي، لكن ليس من اللائق أن أترك أختي بمفردها اليوم، ماذا سيقول الناس عنا؟».

– هي ليست بمفردها، أليست معها تلك المدعوة زينب؟

– وهل يعقل أن نتركها مع الغرباء؟.. أتريدين أن أكون سخرية للجميع؟

زفرت بضيق ثم تقدمت لتجلس إلى جواره، أحاط كتفيها بذراعه وهو يبتسم محاولًا كسب تعاطفها: «أروى صارت الآن وحيدة لا أحد لها غيري، وليس من الشهامة أن أتركها في هذه الظروف يجب أن أظل إلى جوارها حتى أطمئن عليها».

التفتت تنظر إليه بتوجس وقد تغضن جبينها بعد أن خمَّنت ما يلمح له زوجها لتقول بلهجة صارمة: «ما تفكر به غير ممكن يا جابر، اِنس الأمر».

– لن يطول كثيرًا أيام فقط.

– تعتقد أني غبية يا جابر، كيف لأيام فقط هل ستجد حلًّا سحريًّا يخلصنا منها بهذه السرعة؟

– سوف يعود سليمان قريبًا، وإن تأخرت عودته فربما تتزوج قبل ذلك.

كتفت مليكة ذراعيها وهي تبتسم باستهزاء قائلة:

– ومن هذا الذي يمكن أن يفكر في شقيقتك؟

– غسان...

قالها بسرعة وهو ينتظر رد فعلها.

انتفضت واقفة وهي تصرخ: «هل جننت؟.. تريد أن تزوج أختك سليطة اللسان لأخي؟».

قفز جابر من مكانه بسرعة وهو ينظر ناحية الباب المغلق قائلًا:

– أخفضي صوتك فربما تسمعنا، لستُ أنا من يريد هذا الزواج بل غسان هو من عرض عليَّ الأمر.

صمتت تنظر إليه في دهشة فلم تكن تتخيل أن شقيقها يمكن أن يفكر في أروى أبدًا، استغل جابر صمتها ليكمل حديثه برجاء:

– سوف تبقى معنا لفترة قصيرة فقط، أنا ليس لدي أي مانع لإتمام هذا الزواج.

– وهل كنتَ لتفكر في رفض أخي؟

– بالطبع لا، فغسان صديقي منذ سنوات طويلة وأنا أعرفه جيدًا.

قالها بابتسامة مصطنعة وهو يفكر أنه بالفعل يعرفه جيدًا، ولو كان تقدم له في ظروف أخرى ما كان ليقبل، لكنه الآن مضطر إلى ذلك فهو لا يملك حلًّا بديلًا لمشكلته سوى إتمام هذا الزواج وفي أقرب وقت.

* * *

«إدوارد»

وقفتُ على ظهر السفينة التي كانت تشق طريقها ببطء فوق مياه البحر الهادئة، أتطلع إلى السماء المظلمة إلا من القمر المكتمل الذي يلقي بظلاله على الأسطول البرتغالي، لم يكن قرارًا سهلًا ذلك الذي اتخذته

بالانضمام إلى الجيش لكني لم أجد طريقة أخرى أهرب بها من ألمي الذي لا يحتمل سوى أن أرمي بنفسي في هذه المغامرة التي لا أضمن عواقبها، عادت بي ذاكرتي إلى ذلك اليوم حين أخبرتني أماندا بأن لوتيسيا سوف تتزوج قريبًا، غادرتُ المنزل متجهًا نحو القصر وأنا لا أميز موضع خطواتي، كنتُ شارد الذهن كل ما أفكر به كيف لها أن تقبل بالزواج من شخص آخر، هل نسيت كل تلك السنوات التي قضيناها معًا، ذكرياتنا وأحلامنا معًا، كيف تغيرت بهذه السرعة؟.. أكانت بالفعل تُبيِّت النية واستغلت أول فرصة؟.. لقد تغيرت بالفعل في الفترة الأخيرة لم تعد تلتمس لي الأعذار، وتغضب لأتفه الأسباب، لكني مع ذلك لم أتوقع مطلقا أن تصل الأمور إلى هذا الحد وأن تتخلى عن حبنا بهذه البساطة، وصلتُ إلى باب القصر ولا أعرف كيف وصلت، فربما قدماي فقط اعتادتا المشي في الطريق نفسه، ألقيتُ التحية على الحراس ودخلت قاصدًا غرفة رئيس الحرس خوسيه لأتسلم عملي، لكن يبدو أن حالتي كانت مزرية إلى درجة أن ينتبه لها كل من رآني، فلم أكد أتجاوز البوابة حتى سمعتُ صوت أحد الحراس يناديني:

- إدوارد انتظر.

توقفت والتفت نحوه بعينين شاردتين، فاقترب مني متسائلًا:

- ما بك لا تبدو لي بخير؟

- مجرد إرهاق بسيط.

- هل تريد أن آخذ مكانك اليوم؟.. يمكننا أخذ الإذن من السيد

خوسيه.

لم أكن بالفعل قادرًا على العمل تلك الليلة، فعقلي مشوش، ولا أرى أمامي سوى صورة لوتيسيا وهي ترتدي فستان عرسها وتزف إلى رجل آخر، فأشعر بنار تحرق صدري وبروحي تكاد تسحب من جسدي، غادرتُ القصر مرة أخرى بعد أن وافق السيد خوسيه على منحي إجازة استثنائية هذه الليلة عندما رآني على تلك الحال، ظنًّا منه أن علة أصابتني، تركت قدماي تتحركان دون أن أحدد لهما وجهة معينة، وكل ما أفكر به أني يجب أن أقابلها لأفهم منها ما حدث حتى وجدتُ نفسي بالقرب من منزلها، توقفتُ ولا أعرف ما الذي يمكن أن أفعله، ولا كيف يمكنني رؤيتها، لا أعرف كم مضى من الوقت وأنا أقف مكاني حتى تفاجأت بصديقي ماثيو يتقدم نحو باب المنزل محملًا بالهدايا، فُتِح الباب لتظهر لوتيسيا من خلف والدتها لتتقدم نحوه وهي تبتسم بخجل...

عدتُ من ذكرياتي على صوت زميلي ريكاردو:

– هل أنت نادم على قرارك؟

زفرتُ أنفاسي المثقلة بالهم وأنا أجيبه: «ما أنا نادم عليه هي ثقتي التي وضعتها بمن لا يستحق».

– تقصد ماثيو؟

– ولوتيسيا، هما معًا، لم أتخيل أبدًا أن تأتيني الضربة القاتلة منهما معًا.

ربت ريكاردو على ذراعي مواسيا قبل أن يقول: «يجب أن تنسى ما

حدث الآن، نحن على مشارف حرب قوية ويجب أن يكون تركيزك بالكامل فيما نحن مقبلون عليه».

أومأتُ إليه موافقًا، وقد تذكرت القرار الذي اتخذته في تلك الليلة التي شعرت فيها بالخذلان، لم أكن أستطيع مواجهتهما فلا كلمات يمكن أن تقال، اتجهتُ مباشرة نحو القصر لأقابل قائد الجيش وأبلغته عن رغبتي في الانضمام إليه، كنتُ على علم باقتراب انطلاق الحملة العسكرية نحو مدينة سبتة في الجانب الآخر من البحر وهذا ما أحتاج إليه؛ الابتعاد حتى أتمكن من النسيان، وها أنا الآن مع انطلاق السفينة تنتابني مشاعر متضاربة، وكل ما أتمناه أن أجد في هذه الحرب ما يخفف عن قلبي الكسير وينسيني ذكرياتي المؤلمة.

* * *

(8)

طنجة 2023

يبدو أن الحب هو كلمة السر التي تُحرِّكُنا دومًا وتدفعنا إلى اختيار الطريق التي نسلكها بحثًا عنه أو هربًا منه، سمعتُ صوت صليل سلاسلها المميز وهي تقترب من الغرفة حتى ظهرت شراراتها المتطايرة أمامها قبل أن تقف عند الباب قائلة:

– أرأيتم أن ذلك الشعور الذي يتملك قلوبنا هو ما يجبرنا على السير في الاتجاه الذي يريد؟

هزت عَيْشَة كتفيها وهي تحرك رأسها في عدم تصديق لكلامها، ثم قالت: «في كل مرة تحاولين أن تجدي حجة تبررين بها خطيئتك».

– أنا لا أبرر، إنها الحقيقة.

– إذن لماذا دفعتِ الثمن غاليًا إن لم يكن ما فعلته اختيارًا؟

كنتُ أتابع ذلك الجدال الذي لا يتوقف بين عيشة تكمارت نيسمضال قبل أن أتدخل بينهما قائلًا:

– ألا تريان أننا ندور وندور، ثم نعود إلى نفس النقطة؟

– حقيقة الاختيار...

قالتها عَيْشَة وهي توجه نظراتها نحو تكمارت التي بدأت تتراجع مبتعدة عن الغرفة، فأطلقت عَيْشَة ضحكة عالية، ثم أكملت حديثها

وهي تشير نحوها: «أرأيت، دومًا تهرب عندما لا تجد حججًا قوية تدافع بها عن نفسها؟».

- أظنها تريد أن تقول إنها اختارت ولكن ليس بإرادة حرُّة؟

- لا يوجد اختيار دون إرادة، لأننا حين نختار يجب أن نفكر في نتائج اختياراتنا، فسوف نضطر إلى تحمل المسئولية كاملة.

- والضعف؟

- لحظة واحدة ندفع عمرنا ثمنًا لها.

* * *

«إدوارد»

ضباب كثيف وتيارات بحرية قوية أجبرت سفننا على تغيير اتجاهها لنتوقف في ميناء الجزيرة الخضراء، بعد أن أرسل الملك جون الأول إلى ملك قشتالة وقدم له كافة الضمانات لسلامتهم، وقفتُ على ظهر السفينة أتطلع إلى الأسطول العظيم الذي يقوده الملك بنفسه ومعه أبناؤه الثلاثة الأمير هنري والأمير دورتي والأمير بيدرو.

كنتُ أتساءل أي جيش هذا الذي يمكنه مواجهتنا؟.. لقد نجح الملك في حشد جيش كبير أكثر من مئتي سفينة وخمسون ألفًا من الجنود الأقوياء، لا أظن أن أحدًا قادر على قهرنا، شعرتُ بالفخر لمشاركتي في هذه الحرب التي نحن على أبوابها، ربما ما حدث قدم لي فرصة لم أكن لأفكر فيها لأكون موجودًا في هذه الحرب العظيمة، سمعتُ صوت ريكاردو الذي اقترب من مكاني، التفتُّ نحوه لأسأله:

– هل سنتوقف هنا كثيرًا؟

– لا أظن، إنهم ينتظرون فقط تحسن الأجواء.

عدتُ إلى النظر نحو صفوف السفن الممتدة على مرمى البصر، قبل أن أتجمد مكاني عندما سمعت زميلي يقول:

– صديقك ماثيو هنا في مقدمة الجيش على متن السفينة التي يقودها الملك.

نظرتُ إليه بصدمة وأنا أسأله: «كيف؟.. هل أنت واثق من ذلك؟».

– بالتأكيد، عرفت أنه أيضًا انضم إلى فرسان الجيش.

هكذا إذا، قلتها وأنا ألتفتُ نحو البحر؛ ماثيو إذَنْ هنا، ترك عروسه ولم يمض على زواجهما سوى وقت قصير وجاء ليحقق المجد في هذه الحرب، لطالما أخبرني أن ذلك هو حلمه عندما، لم أكن أعرف أن له أحلامًا أخرى حققها على أنقاض قلبي، لا أعرف إن كنتُ سأراه وسط الآلاف من الفرسان، لكني أشعر أننا على موعد وأن وجودنا معًا في نفس المكان ليس مجرد مصادفة حمقاء، لقد هربتُ من مواجهته في لشبونة، وأظن أنني لن أهرب مرة أخرى إذا ما أتيحت لنا فرصة المواجهة مرة أخرى في سبتة.

* * *

سبتة 1415

«عائشة»

مرَّت ثلاثة أشهر منذ استيقظت لأول مرة ذلك الصباح ووجدتُ عمر إلى جواري، شعرتُ أن كل شيء في حياتي قد اختلف عما كان عليه، كل مخاوفي عن الحياة بعد الزواج تبددت تمامًا، فعمر لم يتغير وما زالت تلك النظرة المحبة التي يغمرني بها تحتضنني باستمرار، كنتُ أكتشف كل يوم شيئًا جديدًا عنه، لم أكن أعرف حبه للعلم وللكتب وأنه لا يتخذها مجرد عمل يكتسب منه، كل يوم كان يحكي لي عما جاء في الكتب التي ينسخها، وبدوري أشاركه ولا أتوقف عن الأسئلة لأروي فضولي ولأستمتع بحديثه الذي لا يتوقف كل ما كان الأمر يخص كتابًا ما.

في ذلك اليوم جلستُ في غرفتي أنتظر عودته كالعادة، كل ليلة حينما سمعتُ صوت الباب أسرعت لأتأكد من مظهري قبل أن أخرج لاستقباله، قابلني بابتسامته المعهودة وهو يخرج من حقيبته ورقة ملفوفة لأسأله باستغراب:

- ما هذه؟

- أعجبتني فنسختها من أجلك.

ابتسمتُ بسعادة وأنا آخذ منه الورقة لأفتحها وأقرأ ما جاء فيها:

أَنّى أُضَيِّعُ عَهدَك

أَم كَيفَ أُخلِفُ وَعدَك

وَقَد رَأَتكَ الأَماني
رِضًا فَلَم تَتَعَدَّك
يا لَيتَ ما لَكَ عِندي
مِنَ الهَوى لِيَ عِندَك
فَطالَ لَيلُكَ بَعدي
كَطولِ لَيلِيَ بَعدَك
سَلني حَياتي أَهَبها
فَلَستُ أَملِكُ رَدَّك
الدَهرُ عَبدِيَ لَمَّا
أَصبَحتُ في الحُبِّ عَبدَك

كان قلبي ينتفض داخل صدري مع كل كلمة أقرأها، رفعتُ رأسي أنظر إليه بحب ليقول لي: «ليتني كنتُ أجيد كتابة الشعر، لكتبتُ لك قصائد حب تملأ مجلدات لا حصر لها».

سحابة من الدموع تجمعت بعيني وشعرتُ برغبة في البكاء لكني تمالكت نفسي وأنا أجيبه:

– لستَ بحاجة إلى كتابة الشعر، فكل كلمة تقولها لي هي عندي أجمل من أي قصيدة قرأتها.

اقترب مني ليقبل جبيني وعلى وجهه ابتسامة حانية، لكن سرعان ما تغضن جبينه وهو يقول: «ما هذه الرائحة؟».

انتبهتُ بدوري ولم أحتج إلى كثير من الوقت لأدرك أنها رائحة طعام يحترق، رميت له القصيدة وركضت بسرعة نحو المطبخ، يتبعني صوت ضحكاته الساخرة.

* * *

كيف لحياتك أن تتغير بين يوم وليلة، كل ما كانت تخشاه أروى حدث بعد وفاة والدها، انتهت أيام الراحة والأمان التي كانت تحياها بجانبه، وجاءت الأيام العجاف التي قتلت الأحلام بداخلها، فلم تعد تفكر في شيء سوى حياة هادئة دون مشاكل والتي بدأت ما إن انتهت أيام العزاء، ووجدت جابر يطلب منها مرافقته للعيش معه في بيته، حاولت أن تصر على الرفض لكنها في النهاية انصاعت له، فلم يكن لديها حل بديل، وما إن دخلت بيته حتى حاولت زوجته أن تجعل منها خادمة تقوم بجميع أشغال البيت، خاصة بعد أن وضعت طفلها، لتبدأ الصراعات التي لا تنتهي بينهما أمام نظر جابر الذي لا يحرك ساكنًا بل يكتفي بمواساتها في الخفاء بعيدًا عن أنظار زوجته ويطلب منها الصبر، حتى صُدِمت به يخبرها عن طلب غسان للزواج منها وموافقته على ذلك.

قطع حبل أفكارها صوت صرير الباب يفتح ببطء فالتفتت نحوه لترى رأس عائشة يطل بحذر قبل أن تدخل الغرفة وهي تقول بتذمر مصطنع:

– يبدو أنه لم يعد لي مكان في هذا البيت بعد أن أخذتِ غرفتي.

استقامت أروى من جلستها وتقدمت نحو صديقتها لتحتضنها وتدفن رأسها على صدرها قبل أن تطلق العنان لدموعها، ربتت عائشة على ظهرها مواسية:

– اهدئي حبيبتي.

رفعت رأسها وهي تمسح دموعها: «رأيت ما فعله جابر يريد أن يزوجني رغمًا عني لصهره المعتوه».

– لن نسمح له بذلك أبدًا...

قالتها عائشة بحزم لتتنهد أروى وهي تتحرك نحو الفراش مرة أخرى لتجلس عليه: «ولكن لا يمكن أن أبقى هنا في بيت عمي منصور...».

قاطعتها عائشة: «ما هذا الذي تقولينه؟.. هذا البيت هو بيتك أيضًا، وأبي هو والدك رغم أنني بالتأكيد سوف أشعر بالغيرة لأنك أخذتِ مكاني».

ابتسمت أروى وهي تقول: «لم أجد حلًّا أمامي بعد إصرار جابر على إتمام ذلك الزواج سوى الهروب من منزله إلى هنا، خشيتُ إن بقيت هناك أن أجد نفسي رغمًا عني زوجة لذلك الرجل الذي لا أكره في حياتي شخصًا مثل كرهي له».

– حسنًا فعلتِ، أنتِ هنا في أمان وجابر لن يستطيع إعادتك إلى بيته رغمًا عنك، فأبي لَن يسمح له بذلك.

– لن أنسى لكم هذا المعروف ما حييت.

– كفي عن قول الحماقات فالبيت بيتك، أخبريني هل هناك أخبار عن شقيقك سليمان؟

حركت أروى رأسها نفيًا وهي تزفر بضيق: «لا شيء، ولا أعرف إن كان وصل إليه خبر وفاة أبي حتى الآن أم لا».

– حتمًا سوف يصل إليه الخبر ويعود إلى سبتة، وحينها لا شك أنه سوف يقف إلى جانبك.

– وما أدراكِ أنه أيضًا تزوج وربما تكون زوجته أسوأ من مليكة؟..

– تفاءلي بالخير عزيزتي.

– الأهم من انتظار سليمان أو جابر أريد أن أجد عملًا أكسب منه قوت يومي، فلا أحتاج إلى أحد.

– وما الذي يمكنكِ فعله؟

– لا أعرف.

صمتت عائشة وهي تتحرك داخل الغرفة واضعة يدها أسفل ذقنها مفكرة، ثم توقفت فجأة ونظرت تجاه أروى التي كانت تتابعها: «ما رأيك أن تعملي مساعدة لأبي لا شك أنه سوف يحتاج إليكِ؟».

– لكني لا أفهم شيئًا في الطب.

– يمكنك التعلم، ثم إنه ما عليك سوى اتباع تعليماته فقط... ها ما رأيك؟

– لا أعرف...

– ماذا عن نسخ الكتب؟ يمكنك أن تعملي مع عمر أيضًا.

صمتت أروى وهي تنظر إلى عائشة بامتنان كبير، الآن تعلم أنها ليست وحدها، وأن لديها عائلة أخرى لن تخذلها أبدًا.

* * *

ألقت الشمس الحارقة أشعتها على أشرعة السفن البيضاء التي تدفعها الرياح ببطء باتجاه سواحل سبتة، وفي مقدمة الأسطول كانت السفينة التي يقودها الملك جون الأول تتقدم بثبات، وعلى ظهرها يقف الملك مرتديًا درعه البراق الذي يلمع كأنه صنع من الذهب الخالص وعلى رأسه خوذة من المعدن اللامع يراقب الشواطئ التي اقتربت بعينين ثاقبتين، ويستمع إلى أصوات الأمواج المرتطمة بقوة بالسفن، وإلى جانبه قادة جيشه ومستشاريه والأمراء، ليتحدث بحزم:

– ها نحن الآن على أبواب التاريخ، لم يتبقَّ لنا سوى القليل لنسيطر على سبتة وتصير تحت أيدينا.

تقدم نحوه القائد فرناندو ليقول بثقة: «مولاي نحن مستعدون وفي انتظار أوامرك؛ الخطة التي وضعت محكمة للغاية سنحقق النصر بمباركة الرب».

أومأ الملك جون موافقًا قبل أن يتحدث: «هذا جيد».

- جلالتك، لدينا إمدادات تكفينا لأشهر السفن محملة بالطعام والماء والذخائر الكافية، وطرق الإمداد مؤمنة من البرتغال حتى هنا، والجنود متحمسون جدًّا الجميع يعرف أهمية هذه المهمة، ومستعدون للقتال بشجاعة حتى تحقيق النصر.

عاد الملك جون الأول ينظر تجاه الشاطئ وعيناه تلمع بحماس كبير قائلًا: «يجب أن تكونوا جميعا على قدر المسئولية، سوف نقاتل حتى النصر الذي أراه الآن أمامي واضحًا كهذه الشمس التي فوق رؤوسنا».

* * *

«إدوارد»

على سطح السفينة كنتُ أقف مع زملائي من الجنود نراقب الشاطئ الذي بدأت تبدو معالمه بوضوح، تملكني إحساس غريب بين الحماس وبين الخوف، كانت رحلة طويلة وشاقة، وها نحنُ أخيرًا نصل إلى هدفنا، سمعتُ صوت أحد زملائي يقول:

- تظنون أننا نستطيع تجاوز أسوار المدينة بسهولة؟

التفتُّ نحوه لأجيبه بحماس: «لا أشك أنها ستكون معركة صعبة، لكننا بالتأكيد قادرون على الفوز بها».

عدتُ بذاكرتي إلى الأشهر السابقة بعد انضمامي إلى معسكر الجيش، ملاذي الذي دفنتُ فيه آلام قلبي الجريح، قسوة التدريب كانت الوسيلة

الوحيدة لأفرغ ما بداخلي من وجع، منذ استيقاظي أندفع في التدريبات بكل قوتي، أهرب فيها من ذكرياتي من تلك الصور التي تطاردني وتزيد من نزيف قلبي، ملامحها الجميلة، ضحكتها؛ نظراتها البريئة التي كانت تخفي خلفها خنجرًا غرزته بصدري بكل قسوة، وها أنا الآن صرتُ أكثر صلابة، لم تعد تلك الذكريات تؤلمني كالسابق، خضت خطوات كبيرة نحو الشفاء، وصرتُ مستعدًّا لأخوض معركتي القادمة وبدء حياة جديدة، عدتُ أنظر إلى الشاطئ أمامي، وشعور غريب تملكني لم أستطع تفسيره، لكني أدركتُ أن ما ينتظرني في تلك المدينة شيء مختلف سوف يغير حياتي إلى الأبد.

* * *

سبتة

اقتربت الشمس من المغيب وبدأت تلملم أشعتها الدافئة معلنة الرحيل، كانت الحركة هادئة حول أبراج المراقبة الموزعة على أسوار المدينة الممتدة على طول الساحل، أخذ الحارس يتجول متفحصًا الأفق بعيونه المتيقظة، وأصوات الرياح المختلط مع الأمواج المصطدمة بالصخور أسفل الأسوار يصل صداها إليه، تحرك بخطوات بطيئة حاملًا درعه المعدني وسيفه المعلق حول خصره، صعد الدرج الحجري المؤدي إلى البرج المرتفع الذي يضم فتحات ضيقة تسمح برؤية البحر الممتد أمامها، وصل إلى قمة البرج، ثم وقف في مقابل إحدى الفتحات ينظر بتركيز شديد، لكنه تصلب مكانه حينما لمح أسطولًا ضخمًا من السفن

يتقدم ببطء نحوهم، ظن في البداية أنها سفن صيد أو سفن تجارية عائدة إلى الميناء، لكن عددها الكبير أثار شكوكه، حاول تدقيق النظر أكثر ليلمح الأعلام البرتغالية ترفرف على مقدمتها، وبسرعة انطلق راكضًا لينزل الدرج وهو يصرخ على باقي زملائه يبلغهم بالهجوم الوشيك، وفي لحظات تجمع أفراد الحامية وأسرع القادة العسكريون، وبدؤوا بإصدار الأوامر لتجهيز الأسلحة الدفاعية وتوزيع الجنود على أبراج الرماية استعدادًا للدفاع عن المدينة، بينما انطلق أحد الجنود بسرعة نحو قصر أمير المدينة ليطلعه على الأمر، وما إن وقف أمامه حتى ألقى ما بجعبته بسرعة: «مولاي، الأسطول البرتغالي يقترب من سواحلنا».

انتفض الأمير من مكانه وقد ارتسمت علامات الدهشة والقلق على وجهه، لكنه سرعان ما استجمع رباطة جأشه قائلًا:

- نحن لا نخشى أي هجوم سوف نستطيع صدهم بإذن الله.

وبسرعة أصدر أوامره لتحريك الجنود إلى مواقعهم وتحصين الأسوار، واستدعى القادة العسكريين وأمرهم بتجهيز القوات والاستعداد للمعركة الوشيكة.

* * *

«عائشة»

منذ تركت أروى وأنا أشعر أن قلبي مثقل بالهم، كنتُ أرغب في إيجاد حل لمشكلتها، أعرف أنها لن تقبل البقاء في البيت مع والدَيَّ دون أن يكون لها مورد رزق، دخلت الغرفة حيث كان عمر يجلس أمام الطاولة

منشغلًا بنسخ أحد الكتب، جلستُ إلى جواره في صمت قبل أن ينتبه لي، رفع رأسه ليسألني:

- ماذا هناك يا عائشة؟

- كنتُ أفكر في أمر ولا أعرف إن كنتَ ستقبل به.

- أي أمر؟

- هل يمكن أن تسمح لأروى بالعمل معك؟

نظر لي باستغراب للحظات قبل أن يقول: «لماذا؟».

- أنت تعلم ظروفها، أروى عزيزة النفس ولن تقبل العيش عالة على أحد.

- وذلك المدعو جابر، أليس من المفترض أن ينفق على شقيقته، أم أنه سيتركها من دون معيل؟!

- كأنك لا تعرفه، إنه لن يفعل ما دامت زوجته تمنعه، وبالتأكيد يريدون الضغط عليها حتى تقبل الزواج بغسان.

فتح فمه ليتكلم لكنه عاد إلى الصمت وقد تغضنت ملامحه بغضب، فأدركتُ أنه كان على وشك إطلاق بعض الشتائم في حق جابر، لكنه تراجع قبل أن يقول: «حسنًا، ولكن هل هي مستعدة؟ تعلمين أن نسخ الكتب يتطلب صبرًا ودقة عالية».

- لا تقلق، أنا واثقة بأنها ستكون متفانية جدًّا، وسوف تبذل قصارى جهدها لتعمل بإتقان.

- لا بأس.

قام عمر من جلسته متجهًا نحو أحد الصناديق ليخرج مجموعة من المخطوطات، وضعها أمامي قائلًا: «هذه الكتبُ حصلتُ عليها من أحد الفارين من الأندلس، استطاع تهريبها قبل أن يعثر عليها القشتاليون ويحرقوها، لقد بدأتُ بنسخها، لكني لا أجد الوقت لإكمالها».

أخذتُ أحدها أقلبه بين يدي كان كتابًا في علم الفلك، قلبتُ صفحاته وأنا أقرأ بعض ما جاء به، وأستمع إلى عمر الذي أكمل حديثه: «يمكنك أن تأخذي إليها هذه الكتب لتنسخها، وسوف نرى مدى إتقانها».

ابتسمتُ بسعادة وحملتُ الكتب وأنا أنظر إليه بامتنان كبير، فعمر لم يخيب ظني أبدًا، قلبه طيب يجعله لا يتردد في مساعدة من يحتاج إليه، انتبه إلى نظراتي نحوه ليبتسم قائلًا:

- ما بكِ يا عائش؟

- أنا محظوظة بك جدًّا.

انتفضت واقفة من جلستي فجأة قائلة: «هل يمكنني أن آخذ لها الكتب الآن؟».

- بهذه السرعة؟

- ولماذا التأخير؟

– لكن الوقت قد تأخر ولن تتمكني من الذهاب والعودة قبل حلول الظلام.

اقتربتُ منه لأتعلق بذراعه أنظر إليه برجاء، وأتحدث بدلال: «ألا يمكن أن أبيت هذه الليلة معها؟ منذ زواجنا لم أبت ليلة واحدة في منزل أبي».

رفع حاجبيه مدعيًا التفكير وهو يقول: «وتتركينني أبيت بمفردي؟».

وضعتُ رأسي على كتفه وأنا أجيبه: «حتى تتمكن من إكمال عملك دون إزعاج».

– إذا كان الأمر كذلك فلا بأس، استعدي إذَنْ لأوصلك إلى بيت والدك.

انطلقنا بين أزقة المدينة متجهين نحو الضيعة وأنا أتعلق بذراعه، كانت تنتابني مشاعر غريبة ذلك اليوم لم أعرف لها سببًا، فرغم سعادتي إلا أن قلبي كان منقبضًا بشدة، رفعتُ رأسي أنظر إليه، ولم أستطع أن أخبره بشيء، لم أرد أن أشغل باله وأقلقه بشأني، لكني وجدتُ نفسي أتأمل ملامحه كما لم أفعل من قبل، كأني أردتُ في تلك اللحظة أن أحفرها بصدري فلا تغيب عني لحظة واحدة، وصلنا إلى البيت وبقي عمر مع أبي لبعض الوقت يتبادلان الأحاديث المختلفة، بينما صعدتُ إلى غرفتي وأنا أحمل كنز الكتب لأقدمه لأروى التي كادت تطير فرحًا وهي تقلب المخطوطات وتبحث بأيها تبدأ العمل.

غادر عمر البيت بعد العشاء ووقفتُ أودعه أمام الباب وقد زاد ذلك الانقباض بقلبي، وقبل أن يتحرك كنتُ أمسك بذراعه أقول بتوسل:

- لِمَ لا تبقى معنا هذه الليلة؟

رفع أحد حاجبيه واقترب مني ليجيبني بغضب مفتعل: «ألم تكن تلك رغبتك في تركي وحيدًا؟».

أجبته وأنا أشعر بالدموع تتجمع بعيني منذرة بعاصفة وشيكة، ربما تمسح عن قلبي ذلك الشعور المقيت:

- أنا لم أقل ذلك...

رفع كفه مربتًا على خدي قائلًا: «أعرف يا حبيبتي، وأنا بالفعل يجب أن أعود لأكمل عملي لأسلم الكتاب غدًا لصاحبه، فلا يمكن أن أخلف موعدي معه».

- يمكنك أن تكمله صباحًا.

- ما بك يا عائش؟

- لا أعرف، لكني لستُ مطمئنة، بصدري ثقل لا أعرف سببه.

- لأنها الليلة الأولى التي نفترق فيها منذ زواجنا، هذا كل ما في الأمر بعد ذلك سوف تعتادين، وربما تبيتين بالأيام وتتركينني دون أن تهتمي لأمري...

قالها ساخرًا لأجيبه بسرعة: «لن يحدث ذلك أبدًا».

طبع قبلة على جبيني بعد أن ردد على مسامعي كلمات يفترض بها أن تطمئنني، لكنها زادت من قلقي قبل أن يغادر عائدًا إلى البيت، تابعته حتى غاب عن مرمى بصري وبقيت متسمرة مكاني قبل أن أشعر بأروى تجذبني لأعود إلى الداخل.

* * *

انطلق عمر عائدًا إلى منزله مسرعًا وكل ما يفكر به أن أمامه سهرة طويلة قبل أن يكمل نسخ الكتاب الذي تركه على الطاولة بغرفته، لكنه ما إن وصل إلى ساحة المدينة حتى توقف فجأة وهو يرى مجموعة من الفرسان على ظهور الخيل يتحركون وسط الساحة بتوتر جليٍّ، أثار وجودهم انتباه الأهالي قبل أن يتوقف أحدهم صارخًا:

– المدينة تتعرض للهجوم، السفن البرتغالية تقترب من سواحل سبتة.

تجمد الناس للحظات في أماكنهم، كأنهم يحاولون استيعاب الخبر وقد علت أمارات الصدمة والخوف وجوههم، قبل أن تعود الحركة من جديد وترتفع الأصوات، وبدأ الكل يركض نحو غايته، وقف عمر ينظر إلى المشهد أمامه بصدمة، لا يعرف ما الذي عليه فعله، كان قد اقترب من الزقاق حيث منزله ومنزل والدته، فأسرع نحو هذا الأخير دون تفكير وأصوات الفرسان لا يزال صداها يصل إلى أذنيه «احتموا في منازلكم وأغلقوا الأبواب والنوافذ».

ما إن دخل البيت حتى استقبلته فاطمة بوجه شاحب انسحبت منه الدماء وهي تسأله بهلع:

- هل ما أسمعه صحيح؟ المدينة تتعرض للهجوم؟..

- أجل يبدو ذلك، أين عثمان؟

- في غرفته.

تنهد عمر بارتياح، لكنه سرعان ما عاد إلى التوتر والقلق:

- هل سنبقى هنا في منازلنا في انتظار وصولهم؟

- ماذا تقصد يا ولدي؟

- علينا أن نخرج للحرب.

أمسكته فاطمة من ذراعه وقد جحظت عيناها برعب وهي تتوسل إليه: «بالله عليك لا تفعل، فليس لي أحدٌ سواك أنت وشقيقك، وإن حدث لك شيء أموت بعدك».

- ولكن يا أماه، من الواجب أن ندافع عن أرضنا، لا يمكن أن نسمح بأن تضيع كما ضاعت مدن الأندلس الواحدة تلو الأخرى.

- لن يحدث ذلك بالتأكيد، الجيش سوف يرد الهجوم وتنتهي هذه المحنة سريعًا، أنا واثقة من ذلك.

صمت عمر وهو ينظر نحو عثمان الذي خرج لتوه ليقف مستمعًا إلى الحوار الدائر، لا يعرف ما الذي عليه فعله في هذا الوقت العصيب الذي لم يتخيل يومًا أن يعيشه، التفت إلى والدته التي تسأله:

- أين هي زوجتك؟

- أخذتها لتبيت في بيت أهلها، لا أظن أن الوقت يكفي لأذهب وأعيدها إلى هنا الآن.

- لا داعي، ستكون بأمان معهم حتى نرى ما تحمله لنا هذه الليلة.

* * *

اشتد الظلام على سبتة التي كانت في حالة تأهب قصوى بعد اقتراب السفن البرتغالية من شواطئها، اصطف الجنود على طول الأسوار مستعدين للدفاع بأرواحهم عن أرضهم، ومع بداية أول خيوط الفجر كانت السفن البرتغالية تغطي ساحل سبتة بالكامل، وما إن اقتربت السفن من الشاطئ حتى بدأ الجنود البرتغاليون بالاندفاع نحوه على متن قوارب صغيرة، متقدمين نحو أسوار المدينة، محاولين تسلقها باستخدام السلالم والحبال، ليواجههم الرماة من أعلى الأبراج بإطلاق السهام المشتعلة نحوهم، لكن عددًا من الجنود تمكنوا بالفعل من الوصول إلى أعلى الأسوار لتبدأ الاشتباكات القوية بين الجيشين، كلا الطرفين يقاتل بشراسة لا مثيل لها البرتغاليون بحثًا عن المجد، والمغاربة مدافعين عن أرضهم وعن أهلهم، والتي كانت تجعلهم يقاتلون بروح قوية يصعب قهرها، علا صوت المعركة، وأخذ الجنود المغاربة يقذفون

الحجارة والأسهم المشتعلة ويسكبون قدور الزيت المغلي ليوقفوا تقدم البرتغاليين لاقتحام الأسوار المنيعة، اشتعلت النيران على طول الشاطئ المهاجم. ومع تقدم الساعات كانت الحرب تزداد ضراوة، والمهاجمون مصممون على اختراق الدفاعات والوصول إلى قلب المدينة، والمدافعون متشبثون بصدهم وردهم منهزمين.

* * *

(9)

طنجة 2023

ذلك الشعور المقيت لازمني لأيام دون أن أعرف له سببًا، كنتُ أستيقظ لأجد صدري منقبضًا بشدة، وتنتابني رغبة قوية في البكاء دون أن يكون هناك ما يستدعي ذلك، حتى تلك الليلة التي لا أنساها أبدًا عندما أيقظني صوت هاتفي في وقت متأخر من الليل، قفزت فزعًا من سريري لأجيب المتصل جاءني صوت شقيقتي صارخًا، لم أنتظر ولا أعرف كيف قطعتُ الطريق من منزلي حتى وصلتُ إلى بيت عائلتي، حملتُ أمي مسرعًا نحو المستشفى، لكن لم تطلع شمس ذلك اليوم إلا وقد غابت شمسها عن حياتي..

رفعتُ كفي أمسح دمعة تدحرجت على خدي مع استرجاعي لتلك الذكرى التي لا تغيب عن بالي، ثم سمعتُ صوتها المرتجف:

– تكون لدينا أحيانًا مستقبلات للأحزان التي تنتظرنا حتى قبل وقوعها.

نظرتُ إلى ملامحها المتألمة، ثم زفرتُ أنفاسي المثقلة بالذكرى قبل أن أجيبها: «شعور قاتل، أليس كذلك؟ لكن الأسوأ حين نعجز عن التفريق بين الشعور بالخطر الحقيقي وبين الوهم».

رفعت كتفيها وهي تتحرك داخل الغرفة بخطوات وئيدة، قبل أن تعود لتقف أمامي مرة أخرى قائلة: «قلوبنا لا تخطئ الخطر حين يتعلق الأمر بمن نحب».

* * *

سبتة 1415

«عائشة»

منذ أن رحل عمر وأروى لم تتوقف عن اتخاذي تسليتها تلك الليلة، مستمتعة بإغاظتي، لكن رغم ذلك شعرت ببعض الراحة وأنا أرى تلك الابتسامة التي ارتسمت أخيرًا على وجهها بعد أن غابت عنها لأشهر منذ وفاة والدها، نظرت لي بتسلية وهي تقول:

- لم أكن أعلم أنك لا تستطيعين قضاء ليلة واحدة بعيدًا عنه.

قذفتها بوسادة كانت بجانبي وأنا أقول: «ألن تكفي عن هذه الهراءات»، زفرتُ أنفاسي بضيق، متابعة حديثي: «أنا لا أستطيع بالفعل أن أعرف سببًا لهذا الخوف الذي يتملكني اليوم، ولا هذه الانقباضة التي لا تفارق صدري».

اقتربت لتجلس إلى جواري قائلة: «ليلة واحدة فقط ويعود إليك شعورك بالأمان إلى جواره...». أنهت حديثها بأن جذبتني لتضمني إلى صدرها، لكنها عادت وتراجعت بسرعة وهي تسألني باستغراب: «ما هذه الخشخشة التي أسمعها؟».

انتابتني نوبة من الضحك وأنا أنظر إلى وجه أروى المصدوم، ثم أخرجت الورقة التي كنت أخبأها بين ملابسي لأقدمها لها، فتحتها وقرأت القصيدة لتتسع ابتسامتها: «قصيدة حب، ما أجملها عمر كتبها لك؟».

- بل نسخها من أجلي.

- لهذا تشعرين بالألم لفراقه الليلة؟..

قالتها وهي تغمز لي بتسلية.

قمتُ من مكاني لأتبعها بغية ضربها لاستفزازي، وهي تركض داخل الغرفة وتحمل الورقة تتلاعب بها أمامي وترفض إعادتها لي.

فجأة توقفنا عن اللعب بعد أن دخلت زينب إلينا بوجه شاحب، وقفت تنظر إلينا بعينين ذاهلتين أسقطت قلبي بين قدمي، فتقدمت نحوها بسرعة لأسألها:

- ما بك؟ هل حدث شيء؟

- يقولون إن المدينة تتعرض لهجوم.

* * *

اجتمعنا في غرفة المعيشة ولم يستطع أحدنا النوم تلك الليلة، بيتنا بعيد في أطراف المدينة، ولم يكن من السهل وصول أخبار القتال الدائر على أسوارها إلينا، كان أبي يتحرك داخل الغرفة بقلق شديد لا يقل عن ذلك الذي ينخر صدري وأنا أفكر في عمر، هل وصل إلى البيت بأمان؟ ماذا لو أنه تعرض للأذى في الطريق؟ لأول مرة أشعر بالندم لأني تركتُ

بيتي وتركته هذه الليلة المشؤومة، لو كنتُ فقط أعلم ما الذي سيحدث لما تركته يغادر أبدًا، شعرتُ بلمسة أروى على كفي وهي تقول:

- سيكون بخير لا تقلقي.

- أشعر بألم فظيع بصدري، أكاد أموت قلقًا.

سمعني أبي ليلتفتَ نحوي قائلًا بابتسامة مطمئنة: «لا تقلقي يا ابنتي، القتال على أسوار المدينة وبإذن الله سينجح جيشنا في دحرهم ولن يتركهم يدخلوها أبدًا.

- يا رب...

ارتفعت بها أصواتنا في وقت واحد، وعاد الصمت ليخيم فوق رؤوسنا من جديد.

* * *

بزغت خيوط الفجر على المدينة بعد ليلة صاخبة لم يغمض فيها لأحد من الأهالي جفن، كان القتال لا يزال مستمرًّا على الأسوار المحصنة، لكن الجيش البرتغالي الذي تقدم بالآلاف بدأ يحكم سيطرته على مواقع كثيرة، وما هي إلا ساعات حتى حسم القتال لصالحه، جلس عمر أمام نافذة غرفته في بيت والدته يراقب الشارع الهادئ في الخارج، يترقب وصول الأخبار من ساحة القتال التي كانت تأتي بين الفينة والأخرى، فجأة ظهر أحد الشباب يركض بين الأزقة وهو يصرخ بأعلى صوته: «لقد سقطت المدينة، البرتغاليون يقتحمون أسوارها».

انتفض عمر واقفًا وقد شعر وكأن جبلًا ثقيلًا سقط على رأسه، تسمر مكانه دون حركة، وعقله لا يزال يحاول استيعاب ما يردده ذلك الشاب حتى غاب صوته بعد أن ابتعد بين الأزقة.

- ماذا يعني ذلك؟

التفت عمر نحو والدته التي كانت تقف خلفه بملامح مرتعبة ثم أجابها: «لا أعرف أمي، يبدو أن المدينة أصبحت في قبضة البرتغاليين».

أنهى جملته وتحرك ناحية الباب لتلحق به وتمسكه من ذراعه وتوقفه قائلة برعب: «إلى أين ستذهب؟».

- يجب أن أتأكد من صحة ما يقوله ذلك الرجل.

- لا تخرج يا ولدي أرجوك، بالتأكيد سيأتي من يحمل لنا الأخبار.

- لا تخشي شيئًا يا أمي، أنا فقط سأنزل لأتقصى الأخبار وأقابل بعض الرجال لنعرف ما الذي يمكننا فعله.

جذب ذراعه بلطف، ثم قبل رأسها، وقبل أن تقول شيئًا غادر البيت مسرعًا، كانت الأزقة مقفرة تمامًا، كل البيوت أغلقت أبوابها ونوافذها. تحرك عمر بخطوات سريعة نحو ساحة المدينة، وما إن اقترب حتى سمع أصوات بعض الشباب الذين بدؤوا في التجمع، فأسرع لينضم إليهم صاح أحدهم:

- يجب أن نتحرك لقتالهم، لا يمكن أن نسمح لهم بالسطو على المدينة بهذه السهولة.

أجاب آخر:

- أجل معك حق، لننظم أنفسنا ونتوزع في الأزقة والشوارع التي يمكن أن يمروا عبرها...

وقف عمر معهم يستمع إليهم قبل أن يسأل: «إذَنْ ما سمعناه صحيح اقتحموا الأسوار».

- أجل، لقد بدؤوا في تجاوز أسوار المدينة الثلاثة، وبالتأكيد بعد وقت قليل سوف نجدهم فوق رؤوسنا.

- لن نسلمها لهم بسهولة، سوف ندافع عن مدينتنا حتى آخر رمق في حياتنا.

تحرك الشباب بسرعة حاملين أسلحتهم البسيطة، وانطلقوا نحو جميع الشوارع والأزقة لينضم إليهم باقي الأهالي، ربما لم يكن الأهالي الذين انطلقوا للدفاع عن مدينتهم مدربين بما يكفي لحمل السلاح، لكنهم كانوا مسلحين بعزيمة قوية لا تلين وإرادة لا تقهر وروح مستعدة للتضحية في سبيل الدفاع عن وطنهم مهما كان الثمن.

* * *

«إدوارد»

لم أكن أتخيل أن أواجه رجالًا يقاتلون بكل تلك شجاعة والاستماتة كأنهم لا يخشون الموت، بل يقبلون عليه بصدر مفتوح، لكني أيضًا مثلهم لا يشكل لي الموت كابوسًا أخشى تحقيقه، فقد جئت هذه الحرب

وليس لدي ما أخسره، حتى حياتي كنتُ أراها ليست ذات أهمية، لذلك اندفعت أقاتل بشراسة رفقة زملائي؛ جيشنا المنظم الذي استعد جيدًا لهذه الحرب ورغم المقاومة التي واجهها كان الأقوى، هاجمنا الأسوار العالية والمحصنة أصبتُ بجروح طفيفة، لكني واصلتُ وعندما تمكنا من اختراق الحصون، شعرتُ بالنشوة والارتياح، سعادة كبيرة جعلت قلبي ينتفض بقوة داخل صدري وأنا أتجاوز معاقل جنود العدو، وأضع قدمي داخل المدينة التي لم يتبقَّ أمامنا سوى بعض الوقت لنحكم سيطرتنا عليها ونستعيدها من أيدي هؤلاء المسلمين الذين استولوا عليها منذ عقود طويلة.انطلقنا بخفة بين شوارع وأزقة المدينة الضيقة التي تشبه إلى حد كبير شوارعنا، كنا نتحرك تحت تعليمات قائد الكتيبة الذي يحثنا على التقدم بحذر، فنحن لا نعلم أي مفاجآت قد تنتظرنا داخلها، بدأتُ أشعر ببعض التوجس الذي عكر صفو إحساس الانتصار العظيم، فالصمت المطبق الذي يغلف الشوارع لم يكن مطمئنًّا أبدًا، لم يخطئ إحساسي حين انطلق فجأة سهم من إحدى نوافذ البيوت شبه المغلقة ليصيب أحد زملائي أمامي، تراجعتُ إلى الخلف بسرعة، وقبل أن ننتبه كان هناك عدد من الرجال الذين اندفعوا نحونا حاملين سيوفهم لتبدأ رحى معركة استمرت لساعات فقدنا فيها عددًا من رجالنا، لكننا مع ذلك تمكنا من السيطرة على الوضع مع نهاية اليوم، تلك المعركة أكدت لنا أن الحرب لم تنتهِ بدخولنا المدينة، والأيام القادمة ستحمل لنا بالتأكيد مواجهات أكثر مع الأهالي الرافضين للاستسلام.

* * *

«عائشة»

لا أصدِّق أن هذا اليوم العصيب انتهى، لملمت الشمس أشعتها وفسحت المجال لقدوم ليل لا أعرف إلى متى سيطول، لا يزال ذلك الإحساس بالانقباض يضغط على صدري وإن صرتُ الآن أعرف سببه، رغم أني كنتُ قد اطمأننت على عمر وعائلته بعد ذهاب خلدون إليهم وعاد إلينا بأخبارهم. كان أبي قد رفض خروجي، من البيت وأصرَّ على بقائي معهم وأرسل خلدون ليخبر عمر بذلك، بل وطلب منه إحضار والدته وشقيقه لنجتمع كلنا في مكان واحد، حتى نرى ما الذي سيحدث في الأيام القادمة.

قضينا اليوم مجتمعين ننتظر أخبار الحرب الدائرة بين أزقة وشوارع المدينة التي يصل إلينا من وقت لآخر، وكلما سمعت عن مقتل عدد من أبناء المدينة الذين خرجوا للدفاع عنها إلا وشعرت بألم يفتت قلبي، كل ما كان يخيفني أن تصير سبتة قرطبة جديدة، أن نجد أنفسنا مرة أخرى مضطرين إلى الفرار من بيتنا وأرضنا نحو أرض أخرى.

ليلة أخرى لم يغمض لي فيها جفن سوى للحظات قليلة، وكلما نظرتُ نحو أروى أو البقية إلا ورأيت نظراتهم التائهة على أعينهم الساهرة.

بدأ يوم جديد وبدأت الأخبار تصل إلينا عما يفعله الجنود البرتغاليين في المدينة التي عاثوا فيها فسادًا من نهب وسرقة لكل ما يقع تحت أيديهم، لم تمض ساعات الصباح حتى اندفع أحد أصدقاء أبي نحو البيت وعلى وجهه الشاحب كل علامات الذعر، انتبهنا له جميعًا قبل أن يقول:

– الجنود يقتربون من هنا، إنهم يقتحمون الضياع، ويستولون على كل ما فيها، ويطردون أهلها منها.

لأول مرة أرى تلك النظرة المنكسرة في عين أبي شعرتُ بها سكينًا انغرز في صدري، زفر زفرة طويلة، ثم التفت إلينا قائلًا: «حاولوا أن تجمعوا حاجياتكم الضرورية».

قاطعته بسرعة: «ماذا تعني أبي هل يمكن أن نطرد من بيتنا؟ هل سنترك لهم كل شيء؟».

– إن لم نفعل قتلونا جميعًا، ربما لم يكن أمري يهمني إن كنتُ وحدي، ولم أكن لأتردد في الوقوف في وجههم حتى لو كلفني ذلك حياتي، لكني لا أستطيع أن أعرض حياتكم للخطر.

– لا أريد أن أترك البيت الذي ولدتُ وكبرتُ به لهؤلاء الدخلاء...

قلتها بغضب لتقترب مني والدتي وتمسك بذراعي، التفتتُ إليها لأجد عينيها تلمعان بالدموع وجسدها يرتجف دون أن تستطيع قول أي كلمة، ألقيت بنفسي بين ذراعيها وأطلقت العنان لدموعي.

* * *

اتجه عمر نحو السوق الذي أغلقت جميع دكاكينه، كانت آثار العدوان بادية في كل ركن من أركان المدينة، الأزقة خلت من الحياة التي كانت تعج بها قبل يومين فقط، أصوات الجنود تصل إليه من حين لآخر وهم يتجولون ليفرضوا سيطرتهم على كل شيء، توقف عمر عند

أسوار المدينة ليرى الأعلام البرتغالية ترفرف عاليًا، ظل يقف متسمرًا مكانه كأنه صار تمثالًا قُدَّ من صخر، حتى ملامحه تجمدت، لم تعد تعبر عن ذلك الإعصار الذي يعصف بداخله، التفت وتابع طريقه في صمت وهو يشعر بقلبه ينزف دون توقف، وشعور بالمرارة يملأ حلقه.

وصل إلى السوق ليجد عددًا من جيرانه يقفون مجتمعين، تقدم ليقف إلى جوارهم تحدث أحدهم قائلًا:

- لا بد أن نفكر بحزم وحكمة فيما ينتظرنا، لا وقت للخوف، يجب أن نعرف كيف نحافظ على دكاكيننا وتجارتنا.

- كيف؟

سأل آخر بلهجة مريرة قبل أن يتابع حديثه: «هل تظن أنهم يفسحون المجال للحوار معهم؟.. إنهم يبدؤون مباشرة بنهب وتخريب كل ما يقع تحت أيديهم».

خيم الصمت على الجميع وكأن على رؤوسهم الطير، يتبادلون النظرات المتوجسة، كانوا يعلمون أن الأيام بل الساعات القادمة ستكون أسوأ ممَّا قد يتخيلونه، فما حدث في مدن الأندلس السليبة وصل إليهم صداه من الفارين من جحيم القشتاليين، التفت الجميع فجأة عندما تقدم أحد الرجال نحوهم وهو يقول بصوت مبحوح: «لقد رفعوا الصليب فوق مئذنة المسجد الجامع».

التفت عمر مغادرًا المجموعة نحو مكتبته في صمت وهو يشعر أن سكينًا يمزق صدره دون رأفة، وقف وسطها يدور ببصره بين الكتب

والأوراق وأدوات النسخ التي يعمل بها، يعرف جيدًا أنهم لن يترددوا في حرقها لينفسوا عن كراهيتهم وحقدهم، يشعر أنه كابوس وسوف يستفيق منه ليجد أن شيئًا لم يحدث، وأنه سيجلس الآن على مكتبه ليتابع نسخ كتبه في استمتاع كما يفعل كل يوم، انتبه إلى الكف التي أمسكت به، ليلتفت إلى عثمان الذي وقف بجواره وهو يقول:

- يمكن أن يأخذوا منا المكتبة، أليس كذلك؟

- لا أعرف، ولكنهم يكرهون الكتب والعلم، سيحرقونها بالتأكيد.

- لن أسمح لهم بذلك...

قالها وعيناه تلمعان بغضب.

نظر إليه عمر بإعجاب وقبل أن يقول شيئًا سمعا أصوات جلبة بالخارج ليسرع راكضًا ليستطلع الأمر، كان عدد من الجنود البرتغاليين بزيهم العسكري حاملين أسلحتهم يقتحمون الدكاكين محطمين الأبواب والصناديق بحثًا عن أي شيء يمكنهم السطو عليه، وهم يطيحون بأي شيء يأتي في طريقهم، كانت مجرد لحظات تحول فيها الشارع إلى حالة من الفوضى العارمة، فالبضائع تتطاير في كل اتجاه خاصة والجنود لا يجدون ضالتهم من الذهب والفضة، فمعظم التجار أخفوا أموالهم ودفنوها بعيدًا عن الأعين مع بداية غزو المدينة، بينما حاول البعض التصدي لذلك الهجوم ليشتبكوا مع الجنود بما يمتلكونه من أسلحة بسيطة أو بأيديهم فقط، نظر عمر ناحية شقيقه ليقول له بحزم:

- عد إلى البيت حالًا.

– لن أفعل، لم أعد طفلًا يجب أن أشارك في الدفاع عن المكتبة. قلت لك لن أسمح لهم بنهبها.

– هذا ليس وقت العناد الآن، عد إلى البيت وسوف نتحدث فيما بعد.

لم يكد ينهي جملته حتى سمع صرخات إحدى السيدات التي كانت تمتلك دكانًا لبيع الحلوى بالقرب منهم، تحرك عمر بسرعة نحوها ليجد أحد الجنود يجذبها بقوة محاولًا إخراجها من الدكان، بينما زملاؤه يعيثون فيه فسادًا وهي تحاول منعهم من تخريب مورد رزقها الوحيد، اندفع عمر نحو الجندي ليجذبه بعنف، موجهًا إليه لكمة قوية على وجهه طرحته أرضًا وقد تناثرت الدماء من فمه، انتبه زملاؤه لما يحدث فاندفع بعضهم نحو عمر ليشتبك معهم في عراك قوي، شاهد عثمان ما يحدث فركض بسرعة مخرجًا خنجرًا كان يحمله معه ليدافع عن شقيقه، وبسرعة كبرت دائرة الاشتباكات بعد أن انضم إليهم بعض التجار الآخرين.

* * *

«إدوارد»

تقدمنا خلف قائدنا بعد أن أخذنا الأوامر بالتوجه نحو الضياع الموجودة على أطراف المدينة، والاستيلاء على ما فيها من محاصيل ومؤن، وطرد هؤلاء الكفار منها، كنتُ أشعر بسعادة وفخر كبير وأنا أنفذ التعليمات، لكن شيئًا ما كان ينغص عليَّ تلك الفرحة، نظرات الأهالي الذين نخرجهم عنوة من بيوتهم، دموع نسائهم، وصراخ

أطفالهم، ونظرات الانكسار وقلة الحيلة لرجالهم فحتى، من كان يُبدِي شجاعة ويحاول مقاومتنا ينتهي به الأمر مقيدًا أسيرًا أو مقتولًا بسيوفنا، كنتُ أتساءلُ بيني وبين نفسي: هل يستحق الأمر ما نقوم به بالفعل هل يستحق هذا النصر الثمن الباهظ الذي دُفع بدماء الكثير من الأبرياء؟ ألم يكن كافيًا أن نستولي على مراكز الحكم في المدينة والسيطرة على مداخلها ومخارجها؟ كنتُ أدرك تمامًا أن الهدف الأول من تلك المجازر هو وئد أي مقاومة ممكنة للأهالي لمحاولة إعادة السيطرة على المدينة، لكني لم أكن أستطيع تجاوز تلك المشاهد، ربما لقلة خبرتي في المشاركة في الحروب والغزوات، وأظنني سأعتاد الأمر حتمًا في الحروب القادمة.وصلنا إلى إحدى الضياع وبالطبع لم ننتظر لنقتحم أبوابها دون استئذان، وما إن دخلنا البيت حتى بدأنا في التفتيش عن الأشياء الثمينة التي يمكننا الحصول عليها، كان معظم أهل المنزل مجتمعين في الفناء الخارجي، حاولت هذه المرة أن أبعد نظراتي عنهم حتى لا أتأثر بهم، دخلتُ إحدى الغرف أقلب في محتوياتها عندما وصلت إلى صندوق صغير يضم بعض الكتب والمخطوطات، رفعته بغية إفراغه من محتوياته ربما أجد به شيئًا، لكني فوجئت بيد تمسك الصندوق وهي تقول:

- لا يمكنك أخذه إنها كتبي.

رفعت رأسي أنظر إليها لتصطدم عيناي بنظراتها الحادة، لا أعرف ما الذي حدث لي في تلك اللحظة، فقد توقفتُ دون حركة أنظر إلى تلك العينين الزرقاوين اللتين تواجهاني، رأيت بهما وجعًا جعل قلبي يرتجف،

لم أقل لها شيئًا، دفعتُ إليها الصندوق لتأخذه وتختفي من أمامي لأبقى واقفًا متسمرًا مكاني، وأنا أعلم أن تلك النظرة لن أستطيع نسيانها أبدًا.

* * *

«عائشة»

وصلنا إلى بيتي الصغير بعد أن طُرِدنا من ضيعتنا، طوال الطريق لم ينطق أحدنا بكلمة واحدة، كنا نتحركُ بصمت قاتل لم أستطع النظر في وجه أبي، لا أتحمل نظراته المنكسرة، ولا ذلك الألم بملامحه وهو عاجز عن فعل أي شيء ليحافظ على بيته.

كان البيت هادئًا، تسارعت ضربات قلبي وأنا أفكر أن عمر ربما يكون في الخارج، تذكرت مشاهد الجنود الذين كانوا يتجولون في الشوارع يرتدون دروعهم المعدنية التي عليها رسم للصليب، ويضعون خوذات على رؤوسهم، حاملين أسلحتهم، مستعدين لمواجهة من يحاول صدهم عن عمليات النهب التي يقومون بها، التفتُّ بسرعة نحو أبي لأقول برعب حقيقي:

– عمر ليس في البيت، أخشى أن يذهب إلى المكتبة ويصطدم بهؤلاء الجنود.

– لا تقلقي، سيكون بخير بإذن الله.

قالها أبي بصوت مرتجف جعلني أدرك أنه أيضًا لديه نفس المخاوف.

لم تمض سوى لحظات حتى دخلت السيدة فاطمة علينا، توجهت مباشرة نحوي لتضمني برفق ثم تركتني، والتفتت نحو البقية قائلة:

– علمتُ ما حدث، هؤلاء الغجر يريدون طردنا من هنا كما طردونا من الأندلس.

تنهد أبي بحزن وهو يجيبها: «أظننا سنضطر إلى ترك سبتة والرحيل نحو مكان أكثر أمنًا».

نظرت إليه بصدمة ألجمتني لبعض الوقت قبل أن أستعيد انتباهي، لأجيبه بعدم تصديق: «ما الذي تقوله أبي؟ كيف تفكر بذلك لا يمكن أن نترك بلدنا وكل شيء خلفنا ونهرب؟».

– هذا حديث سابق لأوانه، فلننتظر حتى نعرف أولا إلى ما ستؤول إليه الأمور.

قالتها أمي.

أجابت السيدة فاطمة بحسرة:

– وما الذي سيحدث؟.. لن يكون الأمر مختلفًا عما حدث في المدن الأندلسية التي سقطت بأيدي الصليبين...

قاطعتُ حديثهم وأنا أنظر إلى فاطمة لأسألها بلهفة: «أين عمر؟».

– خرج منذ الصباح، قال إنه سيذهب إلى المكتبة.

صمتُ أنظر إلى ملامح الخوف التي ارتسمت على وجهها، وبدأ ذلك الإحساس بالاختناق يضغط على صدري بقوة، ابتلعتُ ريقي

بصعوبة وأنا أحاول أن أتحدث مرة أخرى، لكن الكلمات أبت أن تخرج من حلقي، أمسكت أروى بكتفي وهي تقول لي: «لا داعي لكل هذا الخوف، سيعود في وقت قريب اطمئني حبيبتي».

التفتُّ أنظر إليها بعينين امتلأتا بالدموع، وأنا أومئ لها موافقة على كلماتها قبل أن أتركهم وأدخل غرفتي، رغبة قوية في البكاء انتابتني، ولم أرغب في أن يرى أحدٌ دموعي، لا أصدق كيف تغيرت حياتنا بهذه السرعة بين ليلة وضحاها. نظرت إلى الطاولة الصغيرة التي كانت لا تزال على حالها كما تركناها تلك الليلة، أدركتُ أن عمر لم يرجع إلى البيت بعدها، توجهتُ إليها وجلستُ أمامها أقلب في الأوراق التي كان يقوم بنسخها، أخذت أتحسس ما كتبه وأنا أحاول أن أطرد ذلك الصوت الذي يصرح بداخلي ويخبرني أني لن أراه مجددًا.

صرخة مدوية خارج الغرفة جعلتني أقفز من مكاني وقد بدأ جسدي يرتعش بقوة، لم أميز صاحبة الصوت، فقد تداخلت جميع الأصوات في رأسي وأنا أستمع إلى الجلبة خارج غرفتي، بقيت متسمرة لا أستطيع الحركة، وكأن قدمَيَّ التصقتا بالأرض، رفعت رأسي نحو الباب لأرى أروى التي وقفت تنظر إليَّ وعلى وجهها ملامح لم أستطع قراءتها، دفعت نفسي نحوها، وما إن وصلتُ إليها حتى تمسكت بذراعي، لكنني تركتها وخرجت إلى صحن البيت لأرى المشهد الذي سيظل محفورًا بقلبي ما حييت، أبي يجلس على الأرض يدفن رأسه بين يديه، وأمي وزينب تحاولان إفاقة السيدة فاطمة الغائبة عن الوعي، وعثمان

الذي يقف بملابس مخضبة بالدماء، التقت نظراتنا للحظات كانت كافية ليخبرني أن كل شيء قد انتهى بالفعل، لم أشعر بشيء سوى بدفء يتسرب بين فخذَيَّ قبل أن يظلم كل شيء من حولي.

* * *

(10)

طنجة 2023

نظرتُ إلى المخطوط أمامي وبداخلي سؤال يلح عليَّ بقوة، كيف يمكن لنا أن نرى الأمر الواحد بشكل مختلف؟

– لأن كل شخص يراه من زاوية غير الآخر...

قالتها عَيْشَة.

– ولكن غزو مدينة وقتل أهلها ونهب أموالهم وممتلكاتهم وطردهم منها وتدمير حياتهم بتلك الطريقة البشعة ليس له سوى زاوية واحدة للرؤية.

– بالنسبة لك ربما، أما بالنسبة إلى إدوارد وزملائه كانوا يحققون نصرًا عظيمًا لبلدهم ولدينهم، ينظرون إلى أصحاب الأرض على أنهم كفار أعداء لهم يستحقون كل ما فعلوه بهم، كما أنهم جاؤوا لنشر دينهم وتوسيع ملكهم.

لم أجد ما أقوله، فهي محقة بالفعل فكل شخص يرى الحقيقة بمنظوره الخاص، فما نراه نحن احتلالًا يرونه هم فتحًا عظيمًا، حتى وإن كان ما فعلوه بسكان سبتة لا يمتُّ إلى الفتح بصلة، عادت تكمارتنيسمضال لتشاركنا الحوار من جديد قائلة: «حتى رؤيتنا لما نقوم به بدافع الحب قد تختلف من شخص لآخر».

كتفت عَيْشة ذراعيها تنظر تجاهها، رافعة أحد حاجبيها بسخرية وهي تقول: «كل حديث تُسقِطين عليه فعلتك فقط بحثًا عن تبرير يرضي ضميرك».

– ألم تقولي إن ما فعله إدوارد من منظوره الخاص كان له نصرًا وليس جرمًا يعاقب عليه؟ إذَنْ فما الفرق بينه وبين ما فعلته أنا أيضًا؟.. كنتُ أرى أن الاستسلام للمشاعر ليست جريمة.

– المشاعر ليست خطيئة، لكن الانجراف خلفها من دون التفكير في العواقب وفي المبادئ والأخلاق هو الخطأ الكبير.

كالعادة زمَّت تكمارت فمها في امتعاض، وابتعدت عنا لأجد نفسي أبتسم من هذا الجدال الذي لا يتوقف بينهما.

* * *

سبتة 1415

بعد أيام

لم يعد هناك مكان ولا شارع يخلو من الجنود البرتغاليين الذين يتجولون بكل غطرسة مرتدين أدرعهم اللامعة، تغيرت معالم المدينة في أيام قليلة، آثار الحرائق على المنازل والدكاكين؛ الأعلام البرتغالية ومجسمات الصليب رفعت فوق المآذن، فوضى ودمار في كل مكان.

وبداخل المسجد الجامع الذي استعد بالزينة، والسجادات الحمراء التي فرشت، والشموع الكبيرة التي وضعت في كل الزوايا للحفل الذي يرأسه الملك جون الأول بنفسه.

تقدم بكل خيلاء مرتديًا عباءة ملكية من المخمل الأحمر المطرز بخيوط ذهبية، يضع على رأسه تاجًا ذهبيًّا مرصعًا بالجواهر الثمينة، وخلفه أبناؤه الثلاثة بلباس الفرسان.

تقدم نحو كرسي العرش المنقوش بالذهب والذي وُضِع له ليتوسط قاعة المسجد الجامع ليجلس إليه محاطًا بأبنائه، وأمامه اصطف رجال البلاط الملكي من قادة الجيش والمستشارين ورجال الدولة، لبدء مراسيم الاحتفال بهذا النصر العظيم الذي حققته البرتغال، أشار إلى الجميع بالجلوس قبل أن يبدأ كلمته:

- اليوم حققنا واحدًا من أكبر انتصارات مملكتنا العظيمة بفضل شجاعة جنودنا البواسل واستماتتهم في القتال، هذا النصر ليس مجرد انتصار عسكري إنه انتصار لعقيدتنا لروح الرب التي كانت تظللنا وتحمينا، اليوم نبدأ عهدًا جديدًا نحو المجد والرفعة لمملكتنا لنمضي قدمًا نحو المزيد من الانتصارات.

أنهى الملك كلمته وأشار إلى الأب دانييل ليتقدم نحوه فانحنى أمامه باحترام قبل أن يقف إلى جانبه، ثم بدأ الأمراء بالتقدم واحد تلو الآخر نحو الملك جون الأول الذي يضع السيف على أكتافهم ويسلم كلًّا منهم سيفًا جديدًا مرصعًا بالأحجار الكريمة كرمز للشجاعة والالتزام بالدفاع عن المملكة، وليتم ترسيمهم فرسانًا من الدرجة الأولى.

بعدها تقدم الكونت بدرو دي مينزيس ليعينه الملك واليًا على المدينة.

وخارج المسجد كان عددٌ من أهالي سبتة قد تجمهروا يراقبون ما

يحدث من بعيد بحزن شديد، يستمعون إلى أصوات الأناشيد والتراتيل التي يصل إليهم صداها من الداخل، وبين الأهالي المحتشدين كان إمام المسجد الجامع يقف بجسد يرتجف رهبة وألمًا، يتذكر كل السنوات التي قضاها يؤم الناس ويرشدهم إلى صحيح دينهم ويقضي ساعات طويلة وهو يلقن القرآن الكريم لتلاميذه الصغار، ذلك المكان الذي كان ملجأً روحيًّا لكل من تكالبت عليه هموم الحياة، اليوم يتم تدنيسه دون أن يتمكن أحد من الدفاع عنه، كان الجنود البرتغاليون يقفون في صفوف يسدون الطريق نحو المسجد لحماية الملك جون الأول ورجال حاشيته، ويراقبون بحذر شديد بأعينهم الحادة ذلك التجمهر، خشية أي تصرف متهور، ومع قرب نهاية الاحتفال بدأت الأجراس تدق داخل ما كان مسجدًا، وصوتها يتداخل مع نبضات قلوب الواقفين في الخارج، تحرك عثمان بين الواقفين وعيونه تراقب ما يحدث دون أن يبدي أي تعبير، قبل أن ينطلق عائدًا إلى المنزل، وما إن فتح الباب حتى استقبلته أروى بقلق كبير:

- أين كنت منذ الصباح؟.. لقد بحثت عنك طويلًا.

نظر إليها بعينين جامدتين، ثم تركها تقف مكانها وتقدم نحو غرفة والدته لكن أروى لحقت به لتتابع حديثها: «عثمان، جميعنا قلقون عليك، أين تختفي طوال النهار؟.. والدتك بحاجة إلى وجودك إلى جانبها الآن أكثر من أي وقت مضى».

صمتت تنتظر ردًّا تعلم جيدًا أنها لن تسمعه، بينما تقدم عثمان نحو فراش والدته التي تلازمه منذ وصل إليها خبر مقتل عمر، جلس إلى جوارها وأخذ كفها بين يديه قبل أن يندس إلى جوارها واضعًا رأسه على صدرها.

تركته أروى وهي تغالب دموعها، وخرجت حيث كان منصور جالسًا يقرأ من مصحفه وقفت أمامه قائلة:

– إلى متى سوف يستمر هذا الحال عماه؟ لم أعد أستطيع التحمل، أشعر أني سأُجَن.

رفع منصور عينيه لينظر إليها، ثم أغلق المصحف ووضعه جانبًا زفر زفرات متتالية قبل أن يجيبها:

– لا أعرف يا ابنتي، أنا أيضًا لا أعرف.

– منذ ذلك اليوم المشؤوم وعائشة غائبة عن الوعي، والسيدة فاطمة مريضة وحالتها تزداد سوءًا يومًا بعد يوم، وعثمان لم ينطق كلمة واحدة وأنا لم أعد أتحمل كل ذلك الألم بداخلي، لا أستطيع أن أراهم بهذه الحالة دون أن أتمكن من مساعدتهم.

دخلت جواهر الغرفة تحمل صينية عليها بعض الطعام، وقفت بعد أن سمعت حديث أروى لتقول بدورها: «ما بيدنا حيلة يا ابنتي، يجب أن نساعدهم لتجاوز هذه المحنة».

– لكن المحنة مستمرة يا خالتي، لقد أصبحنا جميعًا بمنزلة الأسرى لدى هؤلاء الصليبيين، ولا أحد يستطيع أن يتنبأ بما يمكن أن يحدث في الأيام القادمة.

– معك حق، لذلك يجب أن نجد طريقة نغادر بها سبتة نحو المغرب...

قالها منصور بإصرار.

– لا يمكننا أن نغادر قبل أن تستعيد عائشة وفاطمة صحتهما...

أجابت جواهر ليومئ برأسه مواقفًا، أكملت حديثها: «سوف أدخل الطعام لعائشة، لعلها تستفيق وتأكل بعض اللقيمات».

تركتهما وغادرت نحو غرفة ابنتها التي كانت نائمة على فراشها وجسدها يرتجف بقوة، وقد تسطرت على جبينها حبيبات العرق، بينما جلست زينب إلى جوارها تمسح وجهها وتربت عنها مواسية رغم علمها أنها لا تشعر بوجودها، وضعت جواهر الصينية على الطاولة واقتربت من الفراش وعيناها لا تفارقان وجه عائشة الغائبة عن هذا العالم، لتسأل زينب بقلق:

– كيف حالها الآن؟

– كما هي يا سيدة جواهر، تعيش في عالم آخر، أنا خائفة عليها، أخشى أن نفقدها أيضًا.

– لا تقولي ذلك يا زينب، منصور يقول إنها الآن في حالة تجعلها رافضة لتصديق ما حدث، لذلك تهرب إلى النوم، لكن الأمر لن يطول كثيرًا ستعود من جديد وحينها يجب أن نكون بجانبها حتى تتجاوز الأزمة.

أومأت زينب وهي ترفع كفها لتمسح دموعها، لتكمل جواهر: «هيا ساعديني لنجعلها تأكل شيئًا، لقد جهزت حساء من الخضر يجب أن نرغمها على ابتلاع بعضٍ منه»؛ أنهت كلامها وتقدمت نحو الفراش لتنفذ ما قالته.

* * *

بداخل الحانة التي كانت مضاءة بعدد من الشموع الموزعة على الطاولات والتي تلقي بظلالها المتراقصة على الجدران الحجرية، أصوات الضحكات العالية للجنود تملأ المكان وهم يتمايلون منتشين يرددون الأغاني والنكات، يحتفلون بما حققوه من نصر على أنقاض المدينة، انزوى غسان على إحدى الطاولات بين يديه كأس خمر يمسك بها بقوة، وهو يتابع ما يحدث أمامه بعقل غائب تمامًا، لم يكن ما حدث للمدينة ليشغل باله كثيرًا بل كل ما كان يهمه هو فشل كل ما خطط له وسعى إلى تنفيذه بسبب هذه الحرب، لقد كان يعوِّل على صديقه جابر بأن يجبر أروى على قبول الزواج منه لكن ذلك أصبح مستحيلًا في هذه الظروف، صورتها لا تفارق خياله بعينيها الجميلتين التي تحملان تحديًا يجعله متمسكًا بها لكسر كبريائها وغرورها، شدد من قبضته على الكأس

بين يديه وهو ينظر لأحد الجنود الذي ألقى بجسده على طاولة مجاورة مع صديقه؛ فبعد أن خطا خطوات مهمة نحو تنفيذ رغبته والحصول عليها أتى هؤلاء الغزاة ليضيعوا جهده فيصبح هباءً منثورًا، رفع الكأس ليفرغ ما تبقى منها في جوفه، وعقله يحاول رسم خطة بديلة يستطيع بها الوصول إلى هدفه، لكن دون جدوى، فكلما خطرت بباله فكرة سرعان ما استبعدها. انتبه على صوت قهقهة عالية من الطاولة المجاورة، رفع رأسه ينظر إلى الجندي الذي تراجع إلى الخلف مسندًا ظهره للكرسي رافعًا الكأس بين يديه، وهو يقول بصوت مرتفع وبعينين تلمعان بنشوة: «تلك الفتاة كانت رائعة جدًّا لم أستمتع في حياتي كما استمتعت بها، نظراتها المتوسلة ودموعها التي كانت ترجوني لأتركها كانت تزيد من إشعال فتيل رغبتي بدلًا من تركها، ذلك الشعور بأنك الأقوى لا مثيل له، آه يا صديقي كلما تذكرت جسدها المرتجف بين يدي كلما شعرت بنشوة وسعادة لا مثيل لها». أكمل جملته بضحكة عالية شاركه فيها زميله الذي انحنى على الطاولة أمامه قائلًا: «يبدو أنك تغريني لأجرب الأمر بدوري»... ليعودا إلى الضحك معًا مرة أخرى.

استمع إليهما غسان باهتمام وقد أخذت معالم الفكرة تتجمع برأسه، إن لم يكن باستطاعته الزواج منها فما الذي يمنعه من نيلها رغمًا عنها، أغمض عينيه وهو يتخيلها تتوسل إليه ليرحم ضعفها ويتركها وشأنها، فشعر بلذة غريبة، عاد ينظر من جديد نحو الجنديان وعيناه تلمعان بسعادة، بعد أن رسما له الطريق التي سوف تحقق له غايته أخيرًا.

* * *

بخطوات مثقلة بالحزن صعدت أروى إلى سطح المنزل، كانت تشعر بالاختناق ولم تجد مكانًا تهرب إليه سوى السطح، وقفت تتطلع إلى السماء التي بدأ لونها الأزرق في الأفول تاركًا المجال لدكنة الليل الكئيب، نظرت إلى البيوت والأزقة الممتدة أمامها بحسرة وهي تتذكر الأيام السعيدة التي عاشتها بين أهلها وأصدقائها قبل أن تحل عليهم الكارثة، كان رأسها مثقلًا بالتفكير فيما ستؤول إليه الأوضاع في الأيام القادمة، هل يمكنهم التأقلم مع الوضع الجديد، أم أن عليهم الرحيل كما يقول العم منصور؟.. تنهدت بضيق ربما تخرج بعضًا من الألم الذي يمزق قلبها حين سمعت صوت خطوات تقترب، التفتت لتجد عثمان يقف عند الباب، ابتسمت له ودعته إلى الاقتراب ليتقدم بخطوات ثقيلة حتى وقف إلى جوارها، واستدار بدوره يتطلع إلى الأفق الممتد بصمت راقبت ملامحه المتجمدة، ثم زفرت قائلة:

- إلى متى ستظل على هذه الحال؟

أجابها كالعادة بالصمت، مدت يدها لتمسك بذراعه وهي تتابع حديثها: «أعلم أن ما حدث صعب تجاوزه، لكن يجب أن تحاول من أجلك ومن أجل والدتك لم يتبقَّ لها أحدٌ سواك، تكلَّمْ، أخرج ذلك الألم الذي بداخلك؛ ابكِ، أطلق سراح دموعك، حتى الرجال يبكون الدموع تغسل أرواحنا المتعبة».

جذب ذراعه منها بهدوء، ودون أن ينظر نحوها استدار مغادرًا تحت نظراتها المتألمة تشعر بالشفقة عليه أكثر من أي شخص آخر، فكيف لطفل

لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره أن يتحمل موت أخيه بين ذراعيه؟.. منذ ذلك اليوم لم ينطق كلمة واحدة بعد أن ألقى جملته حين وصل إليهم «عمر استشهد» ليلتزم الصمت بعدها، عرفوا بتفاصيل ما حدث من زملاء عمر من تجار السوق حيث أخبروهم أنه تلقى طعنة قاتلة من أحد الجنود في أثناء العراك الذي نشب بينهم والذي قُتِل فيه عدد من الرجال، حاول عثمان إسعاف شقيقه وإبعاده عن مكان العراك، لكن لم يسعفه الوقت فالطعنة أصابته في مقتل ليفارق الحياة بين يديه.

* * *

قدمت أروى الدواء لفاطمة التي تناولته منها مربتة على كفها في امتنان وهي تقول: «شكرًا لكِ يا ابنتي، أتعبتكِ معي».

ابتسمت لها أروى قائلة بمزاح: «لا داعي للشكر، المهم أن تكوني بخير وأرى أنك بدأتِ في التحسن، دواء العم منصور لا يخطئ الداء».

زفرت فاطمة بألم قائلة: «دائي لا دواء له يا ابنتي، لقد انطفأ النور الذي كنت أبصر به».

أمسكت أروى كفها بين يديها بحب: «لقد نال الشهادة يا خالة، يجب أن نكون سعداء من أجله، أليس كذلك؟ كان أبي رحمه الله يقول لي دومًا إن أجلنا مكتوب قبل أن نولد، وهنيئًا لمن رزقه الله حسن الخاتمة».

– هذا هو الشيء الوحيد الذي يجعلني أتماسك، ولكنَّ نارًا قوية متأججة بداخلي تحرق صدري، ولا أظنها ستنطفئ حتى ألقاه».

قاطعتها أروى قائلة: «أطال الله عمرك يا خالتي، لا تنسي أن عثمان لا يزال معك، وهو بحاجة إليك الآن كثيرًا».

زفرت فاطمة بألم وهي تومئ برأسها موافقة، فربما هذا هو الدافع الوحيد الذي يجعلها تقاوم وتتمسك بالحياة من أجله.

* * *

«إدوارد»

لم أكن أتخيل أني سأبقى في سبتة بعد انتهاء الحرب والسيطرة على المدينة بالكامل، وقفت على أحد أبراج المراقبة أتابع السفن التي بدأت تتوارى عن الأنظار بعد أن تم اختياري لأكون ضمن ما يقارب الثلاثة آلاف جندي الذين بقوا لحماية المدينة، ورغم أني كنتُ مشتاقًا إلى العودة إلى لشبونة فقط من أجل أمي التي بالتأكيد سوف تفتقد وجودي، لكني في قرارة نفسي شعرتُ بالراحة للبقاء بعيدًا عن لوتيسيا وماثيو، فما زلتُ بحاجة إلى بعض الوقت لأخرجهما من حياتي بشكل نهائي، لا تزال آثار الحرب واضحة على الأسوار، وبالقرب من الشاطئ الممتد أمامي لكن الأثر الأكبر لا يزال بصدري، التفتتُ إلى زميلي الذي صعد ليقف إلى جواري وهو يراقب المدينة من كل الاتجاهات لأقول له: «الحياة الطبيعية بدأت تعود إلى المدينة، انظر إلى السوق الحركة بدأت تدب فيه من جديد».

– لا يغرك ذلك يا عزيزي إدوارد، ربما الحرب انتهت لكن الحرب الحقيقة سوف تبدأ الآن، لدينا مهمة أصعب من القتال في ساحة المعركة وهي حماية هذه المدينة التي صارت جزءًا من مملكتنا.

أومأتُ له موافقًا: «معك حق أظن أن الأهالي لن يستسلموا للأمر الواقع بسهولة، وربما قد نواجه بعض المشكلات».

تنحنح زميلي وبدا على وجهه بعض التردد لأسأله: «ما الأمر ريكاردو؟».

– هناك شيء أظن أنه يجب عليَّ إخبارك به.

ضيقت حاجبي باستغراب وأنا أشير إليه ليتابع حديثه: «ماثيو بقي أيضًا هنا».

نظرتُ إليه في صمت لبعض الوقت قبل أن أجيبه بهدوء: «لا شأن لي به، فليبقَ أو ليرحل لم يعد أمره يهمني».

ربت على كتفي بابتسامة مطمئنة وهو يقول: «هذا أفضل يا صديقي، انسَ أمره، فمثله لا يستحق أن تضيع وقتك من أجله».

توقعتُ أن أقابله في أي لحظة منذ وصولنا إلى سبتة لكن ذلك لم يحدث، حتى إني نسيتُ أمر وجوده معنا في الجيش تمامًا، وها هو ريكاردو يبلغني الآن أنه لم يرحل ولا يزال هنا، لا أعلم حقًّا إن كان أمره لا يهمني؛ أنا بالفعل لا أرغب في رؤيته ولا الاحتكاك به أريد أن أبدأ حياة جديدة بعيدًا عن كل ما مضى، لكن شيئًا بداخلي يرفض ذلك ويهمس لي أن بيننا حساب يجب تصفيته أولًا قبل أي شيء آخر.

* * *

بخطوات متعثرة تحركت أروى بين الأزقة متجهة نحو بيت شقيقها جابر بعد أن وصلت إليها رسالة تخبرها أنه أصيب إصابة بالغة في شجار مع الجنود البرتغاليين، لم تستطع انتظار عودة منصور ليرافقها، وما إن قرأت الرسالة حتى انطلقت كالسهم، كان صوت خطواتها القلقة وأنفاسها اللاهثة يتردد بين الجدران البيضاء للمدينة المنكوبة، وجهها المحتقن وبعض خصلات شعرها التي فرَّت من تحت حجابها التصقت بجبينها المتعرق وهي متمسكة بشدة بتلك الرسالة، كانت الأزقة تضيق عليها وتزداد ظلمتها مع شعورها المتعاظم بالرعب من تكرارِ نفس مشهد موت عمر من جديد، أضواء الفوانيس القليلة لا تكاد تضيء سوى بضع خطوات أمامها، فجأة سمعت صوت خطوات تلحق بها، تسارعت دقات قلبها وهي ترفع من وتيرة سيرها دون أن تلتفت خلفها، لكنها توقفت بعد أن شعرت بيد قوية تجذبها، وقبل أن تطلق صرخة مدوية تلقت ضربة قوية على رأسها جعلت الدنيا تظلم من حولها لتسقط فاقدة الوعي.

فتحت أروى عينيها وهي تشعر بدوار شديد، كانت رؤيتها مشوشة، رفعت يدها تتلمس موضع الألم برأسها وتحاول أن ترفع جسدها من الأرض، لكنها توقفت حين شعرت بشيء على فمها، رفعت يدها بسرعة لتزيل القماشة التي تكمم فمها، حين تفاجأت بغسان يجلس على الأرض بجانبها وعلى وجهه ابتسامة نصر مقززة وهو يقول:

- ما رأيك بهذه المفاجأة؟

اتكأت بكفيها محاولة النهوض، لكنه أسرع ليجثو فوقها ليثبت جسدها على الأرض الباردة قائلا بتشفٍّ: «لن تستطيعي الفرار مني هذه المرة، تعلمين؛ كنتُ أريد أن أرفع هذه القماشة عن فمك لأستمتع بصوت صرخاتك، لكني أخشى أن يسمعنا أحد من هؤلاء الجنود الذي لا يتوقفون عن التجول بين الشوارع والأزقة، لا شك أنك ستكونين وجبة مسلية لهم لكن ذلك لن يحدث قبل أن أنتهي منك أنا أولًا».

تململت محاولة التخلص من قبضته وهي تنظر إليه باحتقار وتئنُّ في محاولة للتكلم، لكنه زاد من تمسكه بها مكملًا حديثه بغضب: «لماذا ترفضينني؟ هيا قولي لماذا؟ لقد فعلتُ كل شيء لأحصل عليكِ، تخلصتُ من ذلك العجوز أبيكِ حتى لا تجدي من تستقوين به لكنك مع ذلك ما زلتِ مصرة على الرفض».

جحظت عينا أروى تنظر إليه بصدمة وهي تحرك رأسها غير مصدقة لما يقوله، لتتسع ابتسامته أكثر وهو يومئ برأسه مؤكدًا صحة كلامه: «أجل خنقته بيدي، وهذه الرسالة التي وصلت إليك اليوم أنا من أرسلتها إليك مع ذلك الطفل، كنتُ أعلم أنك لن تترددي في الإسراع نحو شقيقك الغبي خوفًا عليه...».

تحركت بقوة محاولة دفعه عنها وهي تئن، لكنه كان الأقوى ليمنعها من الحركة مقربًا وجهه، لتشعر بأنفاسه تضرب صفحة وجهها والتي جعلتها تشعر بالتقزز، لكنها فجأة سمعت صوت صرخته بعد أن تلقى لكمة قوية ألقت به بعيدًا عنها.

* * *

«إدوارد»

دلفتُ إلى إحدى الحانات التي أخذني إليها ريكاردو لنستمتع بعض الوقت، الجو مليء برائحة الكحول والطعام والجنود منتشرون على الطاولات الخشبية المتراصة، تقدمنا لنأخذ مكاننا على إحدى الطاولات الشاغرة ثم طلبنا كؤوس النبيذ، اتكأ ريكاردو على الطاولة أمامي قائلًا:

- أتعرف يا صديقي لقد أحببتُ هذه المدينة، أظن أنني سأبعث لأحضر أسرتي لنعيش جميعًا هنا، ما رأيك أن تفعل المثل؟

- ليس لي سوى أمي، ولا أظن أنها تتحمل رحلة طويلة من لشبونة إلى هنا.

تقدم نحونا رجل بدين يبدو أنه صاحب الحانة ليضع أمامنا زجاجة نبيذ، صبَّ لنا كوبين، ثم استدار عائدًا دون أن يقول شيئًا، عاد ريكاردو إلى الحديث مجددًا: «لقد اشتقتُ كثيرًا إلى زوجتي وطفلتي، لم أكن أعرف أني أحبهما لهذه الدرجة».

ابتسمت وأنا أهم بالكلام حين سمعتُ صوت باب الحانة يفتح، لألتفت نحوه وتصطدم عيناي بوجه ماثيو يدخل رفقة مجموعة أخرى من الجنود، تغيرت ملامحي إلى الوجوم وأنا أبعد نظري عنه، لكني فوجئت به يتقدم نحونا حتى وقف أمام طاولتنا قائلًا: «مرحبًا إدوارد، يا لها من مفاجأة، لم أكن أتخيل أن أقابلك هنا».

رفعتُ رأسي أنظر إليه ثم أجبته ببرود: «ماذا تريد؟».

– أهكذا تستقبل صديقك بعد كل تلك الأشهر التي لم نتقابل بها؟

استقمتُ واقفًا لأقول له: «لا أظن أننا كنا يومًا أصدقاء، فالأصدقاء لا يغدرون ولا يخونون بعضهم بعضًا».

احتقن وجهه وهو يحاول كظم غيظه، همَّ بأن يتحدث لكني تركته واقفًا وغادرت الحانة دون أن ألتفت إلى نداءات ريكاردو، رؤيته أشعلت بصدري تلك النار التي كنتُ أخالها أطفئت، حتى إني كنتُ على وشك أن أطبق على رقبته لولا أني تمالكتُ نفسي في اللحظات الأخيرة، أخذت أتمشى في شوارع المدينة الساكنة وأنا أزفر أنفاسي المتوترة حتى تهدأ نفسي، فجأة خُيِّل إليَّ أنني رأيت شبحًا لشخص يتحرك مسرعًا حاملًا جثة على كتفه مبتعدًا عن المنازل، انتابني الفضول فأسرعتُ الخطى لألحق به لكنه اختفى عن مرمى بصري، أخذت أبحث بين الأزقة المظلمة والخالية دون جدوى، كدتُ أتراجع عن بحثي حين سمعت صوت أنَّات خافتة آتية من أحد الأركان، فأسرعت متتبعًا الصوت لأتفاجأ بذلك الرجل وهو يحاول الاعتداء على إحدى الفتيات، أسرعت نحوه لأوجه إليه لكمة قوية ألقته بعيدًا عن الفتاة التي مددتُ يدي نحوها لأساعدها على الوقوف، لكني تجمدتُ من الصدمة حين قابلتني نفس العينين الزرقاوين التي قابلتهما من قبل، إنها صاحبة صندوق الكتب تذكرتها جيدًا، فتلك النظرة لا تُنسى أبدًا، استفقتُ من شرودي على صوت ذلك الرجل الذي عاد ليقترب مني وهو يمسك بفكه قائلًا: «أعرف أنك تريدها سأتركها لك، لكن ليس قبل أن أنالها أنا أولًا».

دفعتها خلفي لأسدد إليه لكمة أخرى أعادته ليفترش الأرض من جديد، لكنه استقام سريعًا محاولًا الهجوم عليَّ، لم أنتبه إلى خنجره الذي أخرجه وسدده نحوي، تراجعت في اللحظات الأخيرة لأصاب بجرح بسيط في ذراعي، لكني سرعان ما استعدتُ سيطرتي على المبارزة عندما تمكنتُ من توجيه ضربة قوية نحوه ليسقط الخنجر من يده ونشتبك في عراك شبه متكافئ القوى، فجأة شعرت به يتوقف ليسقط على الأرض بعد أن أطلق صرخة مكتومة، لأتفاجأ بتلك الفتاة وهي تقف خلفه ممسكة بالخنجر الذي وجهت إليه به طعنة في ظهره، وما إن سقط حتى عادت لتغرز الخنجر في صدره ليصدر أنَّة أخيرة وجسده ينتفض بعنف قبل أن يلفظ أنفاسه.

* * *

بدأت الشمس ترسل أشعتها الذهبية مع النسيم الصباحي العليل المعبق برائحة البحر على المدينة المنهكة، لا يزال الهدوء يسيطر على الأزقة والشوارع عدا صوت الطيور التي انطلقت تحلق في سماء سبتة معلنة بداية يوم جديد.

انتهت نوبة الحراسة الليلية لشوارع المدينة الغربية ليتحرك الجنديان البرتغاليان عائدين إلى معسكرهما يغالبان رغبتهما في نيل قسط من الراحة بعد سهر ليلة كاملة، انتبه أحدهما إلى شيء متكوم على الأرض بالقرب من أحد الجدران الحجرية، أشار إلى صديقه ليمعن النظر بدوره قبل أن يقررا التقدم بخطوات حذرة يحركهما الفضول والارتياب، وعندما وصلا توقفا بصدمة ينظران إلى الجثة الملقاة أمامهما.

اقترب أحد الجنديين ليتفحص الجثة قبل أن يلتفت نحو زميله بصدمة: «إنه جندي من جنودنا».

تراجع الآخر خطوة إلى الخلف وهو يقول: «سوف أذهب بسرعة لأعلم القائد...». ثم انطلق راكضًا، بينما ظل زميله ينظر بصدمة إلى ذلك القتيل الذي كان مذبوحًا بطريقة وحشية، اقترب منه أكثر لينتبه إلى أطرافه التي بترت ووضعت إلى جواره، فتراجع إلى الخلف بفزع في انتظار أن يصل زملاؤه.مرَّ بعض الوقت قبل أن يصل القائد فابيو إلى المكان، تقدم بخطوات ثابتة متجاوزًا المتجمهرين الذين تحلقوا حول الجثة ينظرون إليها من بعيد دون أن يستطيع أحد التقدم نحوها، وقف أمامها يتطلع إليها، وقد بدأت علامات الضيق والاشمئزاز ترتسم على وجهه قبل أن يقول: «هذه هي المرة الرابعة التي يتعرض فيها جندنا للقتل بهذه الطريقة البشعة في أسبوع واحد، يجب أن نبحث عن هؤلاء المجرمين بسرعة أريدهم بقبضتي في خلال يوم واحد».

ألقى جملته وغادر المكان بسرعة ليتقدم باقي الجنود الذين برفقته لانتشال الجثة ونقلها إلى مكان آخر.

* * *

(11)

طنجة 2023

لأول مرة أرى كيف يمكن للظلم أن يغير شخصًا من النقيض إلى النقيض، كيف تمكنت أروى من قتل غسان، كيف استطاعت فعلها ببساطة دون تردد أو خوف، هي التي لم تعتد على العنف من قبل.

– لأن الظلم وحش كاسر ينقض على فريسته بلا رحمة، يتغلغل إلى أعماقها ويلتهم روحها شيئًا فشيئًا، وربما يغير شخصية المظلوم، ليحوله إلى شخص آخر مختلف تمامًا.

– إذا كان هذا ما حدث مع أروى، فكيف بأهالي سبتة؟

– كأي أرض محتلة تعرضوا للظلم والاضطهاد، قتل أو أسر رجالهم، وصودرت ممتلكاتهم ونهبت أموالهم، وصارت المدينة التي كانت عروسًا بهية إلى أطلالٍ تملؤها الأشباح.

شعرتُ بصوت عَيْشَة يختنق فلم تكمل حديثها، والتفتت عائدة نحو المرآة، راقبتها حتى اختفت بداخلها، وعدتُ لأكمل معها باقي الحكاية.

* * *

سبتة 1415

تقدمت أروى بخطواتها المثقلة نحو عائشة لتجلس إلى جوارها، رفعت كفها وانسابت دموعها وهي تنظر إلى تلك التي طال غيابها عن الوعي، ثم أخذت تتحدث إليها بصوت مرتجف:

– لماذا لا تريدين العودة إلينا؟.. أنا بحاجة إليك، لقد تعبتُ كثيرًا ولم أعد أستطيع تحمل كل هذا الألم بداخلي، كنتِ دومًا بجانبي في أحلك ظروفي معكِ، استطعتُ تجاوز الكثير، والآن أَجدني عاجزة من دونك، تعلمين صديقتك صارت قاتلة أجل، لقد قتلتُ غسَّان بيدي.

قالتها وهي ترفع يديها أمام وجهها تنظر إليهما، ثم عادت تنظر إلى عائشة الساكنة على فراشها متابعة حديثها: «لقد قتل أبي، تخيلي أبي لم يمت بل قُتِل، ذلك الخسيس فعلها ليتركني وحدي ويجبرني على قبول الزواج منه، فهو يعرف جيدًا سيطرة شقيقته على جابر الذي لن يستطيع رفض أي طلب لها، وبعدما فشل في مسعاه أراد اغتصابي، لقد قتلته، ولا أعرف حتى الآن كيف فعلتُها، لم أشعر بنفسي عندما رأيت الخنجر على الأرض، لم أعد أرَ أمامي شيئًا سوى أن ذلك الخنجر يجب أن يغرز بقلبه، كما ذبحني بحرماني من أبي الحبيب».

مسحت دموعها، واقتربت من وجه عائشة، ورسمت على وجهها ابتسامة حزينة لتكمل: «تعلمين عندما رأيته ينتفض على الأرض ورأيت دمه يسيل، شعرت وكأن نسيمًا عليلًا يداعب وجهي، راحة غريبة تملكتني، لقد أخذت ثأر أبي بيدي، ولستُ نادمة على ذلك أبدًا،

لا أحد يعلم بالأمر سوى عمي منصور، طلب مني ألا أخبر أحدًا، وأن يبقى الأمر سرًّا بيننا، أنتِ وحدك الآن صرتِ تعلمين بهذا السر».

اتسعت ابتسامتها أكثر وهي تتابع حديثها إلى صديقتها: «لقد ذهبتُ لأقدم واجب العزاء لزوجة أخي؛ عندما رأيت حزنها عليه شعرت بالراحة، أعلم أنك الآن تقولين إني صرتُ شريرة، أليس كذلك؟ لا أعرف حقًّا إن كنت بالفعل شريرة، ولكن ألم تكن هي وشقيقها السبب في وحدتي؟ قتلوا أبي وهي أبعدت أخي عني، تستحق إذَنْ أن أحرمها بدوري من شقيقها، أليس ذلك هو العدل؟».

صمتت أروى عندما سمعت صوت صرير الباب، فالتفتت إلى جواهر التي تقدمت نحوها وعيناها على عائشة لتسألها:

- ما زالت كما هي؟

- أجل يا خالتي، أتحدث إليها كما أفعل كل مرة لكن لا تبدي أي تفاعل معي، كأنها لا تسمعني.

زفرت جواهر أنفاسها المتألمة، واقتربت من فراش عائشة لتقف أمامها قائلة:

- منصور يقول إنها ربما تسمعنا، لذلك علينا أن نقنعها بالعودة إلى الحياة من جديد بحديثنا المتواصل معها.

- ربما هي لا تريد؛ ما حدث كان صعبًا...

سكتت أروى عن الكلام عندما أشارت إليها جواهر بذلك، ثم جذبتها من ذراعها لتخرجا معًا من الغرفة لتقول جواهر: «يجب ألا نتحدث أمامها ونذكِّرها بتفاصيل تؤلمها وتجعلها تُصرُّ على الهروب من الواقع».

أومأت أروى برأسها موافقة، ثم التفتت نحو باب البيت الذي فتح لتدخل منه زينب، اقتربت منهما وهي تقول بحماس:

– لا حديث في السوق سوى عن القتلى من جنود الحامية البرتغالية الذين يجدون جثثهم كل صباح ممزقة عند مداخل المدينة.

* * *

«إدوارد»

جلست في غرفتي أمام طاولة صغيرة عليها شمعة يتراقص لهيبها ليمنحني بعض الضوء، لأكتب رسالتي إلى شقيقتي أماندا أطمئن بها على أمي وأخبرها عن أحوالي:

«لقد مرت أيام طويلة منذ دخلنا سبتة، لم يكن النصر العظيم الذي حققناه هنا سهلًا، ولكن الصعاب الحقيقية بدأت تواجهنا بعدها، فالمقاومة هنا شرسة، ومستمرة السكان يقاومون بشجاعة لم أرَ لها مثيلًا وبروح لا يمكن هزيمتها بسهولة، في كل ليلة نتوقع هجوما جديدًا، فهم يحفظون زوايا مدينتهم ودروبها، ويستغلون جهلنا بها لإلحاق الضرر بنا، لقد فقدنا الكثير من الرجال هنا بسبب هذه الحرب التي لا تتوقف، ولا أعرف متى يمكنني العودة مرة أخرى إليكم، لذلك أطلب

منك أن تهتمي كثيرًا بأمي، أبلغيها أني أحبها كثيرًا وأني مشتاق إليها ولكم جميعًا واطلبي، منها أن تدعو لي بأن أعود إليكم سالمًا في وقت قريب... أخوك المُحب إدوارد».

أنهيت رسالتي وطويتها لأرسلها مع البريد المتجه إلى لشبونة ثم خرجت إلى عملي، فالليلة كانت مناوبتي في الحراسة، المدينة هادئة كعادتها في هذا الوقت المتأخر من الليل، تحركتُ بين الأزقة وأنا أستمع إلى أصوات الأسر القادمة من خلف النوافذ المضاءة، كانت تلك الأصوات تزيد من شعوري بحنين كبير إلى بيتي في لشبونة وإلى أمي، لأشهر لم أنعم بذلك الشعور بالدفء الأسري الذي كنتُ أنعم به داخل بيتي، فرغم مرض أمي وملازمتها الفراش في السنوات الأخيرة، لكني كنت أجلس بجوارها ونتبادل الأحاديث التي لا تنتهي، فجأة قفزت إلى ذهني صورة تلك الفتاة التي لم تفارق مخيلتي منذ تلك الليلة حتى الآن، لا أعرف من تكون وإن صرت أعرف بيتها بعد أن أوصلتها إليه، صورتها لا تفارقني وهي تقف أمامي ممسكة بالخنجر بين يديها تتطلع إلى جسد ذلك الخسيس مسجى على الأرض، قبل أن ترفع رأسها وتنظر إليَّ بعينين لامعتين، تقدمتُ نحوها فرفعت الخنجر في وجهي رفعتُ يدي لأطمئنها قائلًا: «لا تخافي، لن أؤذيك، أنتِ الآن في أمان».

كانت يديها ترتجف بقوة، فاقتربت منها لآخذ منها الخنجر، ثم ألقيت به إلى جوار الجثة حتى تطمئن لي أكثر؛ قلت لها: «هيا سوف أوصلك إلى بيتك حتى لا يتعرض لك شخص آخر».

استدرت وتحركت بخطوات بطيئة وانتظرت أن تتقدمني في صمت، كنت أسترق النظر إليها بين الفينة والأخرى فأرى جسدها الصغير يرتجف بشدة وهي تضم نفسها محاولة السيطرة عليه، انتابتني رغبة قوية في ضمها إلى صدري لأبث فيها الأمان الذي بالتأكيد تفتقده، في تلك اللحظة لا أعلم لِمَ شعرتُ أني مسئول عنها وأن عليَّ حمايتها؛ توقفت عندما وصلنا إلى مدخل أحد الأزقة والتفتت لي قائلة بصوت مجهد: «لقد وصلت».

أومأت لها لتنطلق نحو البيت بينما بقيتُ واقفًا أتابع رحيلها، لكنها توقفت فجأة واستدارت نحوي نظرت إليَّ في صمت للحظات قبل أن تقول: «شكرًا لك».

لم تنتظر ردًّا مني وانطلقت نحو المنزل، راقبتها حتى تأكدت من دخولها البيت وغادرتُ عائدًا إلى المعسكر، ذلك الإحساس الغريب الذي انتابني تلك الليلة جعل قدمَيَّ تأخذاني من وقت لآخر حتى أقترب من بيتها، وأملٌ بداخلي أنه يمكن أن أراها مرة أخرى لأطمئن عليها، لكن ذلك لم يحدث فأعود أدراجي وقد قررت أن عليَّ التوقف عن هذا الفعل الأحمق لأعود بعد يوم أو يومين لتكراره مجددًا.

عدتُ من أفكاري بعد أن وجدتُ نفسي تجاوزت الأحياء المأهولة، ودخلت منطقة شبه مهجورة، كدتُ أستدير لأعود أدراجي عندما انتبهت إلى خيط من الدماء ينساب على الأرض، اقتربت منه وقد تزايدت ضربات قلبي المتوتر، لكني لم أتردد في تتبعه، وكلما مضيت

قدمًا صار الخيط أكثر اتساعًا، وكأنه جدول صغير قادم من أحد المنابع؛ فجأة توقفت عندما وصلت أمام بركة من الدماء، رفعتُ رأسي ببطء لتصطدم عيناي بالجثتين العاريتين المعلقتين على إحدى الأشجار، توقفتُ بصدمة أنظر إليهما وقد مزقت جلودهما بالكامل، التفتت حولي برعب قبل أن أطلق ساقَيَّ للريح.

* * *

حول طاولة مستطيلة في منتصف الغرفة ذات الجدران الحجرية العتيقة والشموع المضيئة بأحد حصون سبتة، جلس الكونت بدور دي مينزيس مع القائد فابيو لمناقشة أمور المدينة، نظر الكونت بدرو والذي كان يرتدي زيه العسكري ودرعه المعدني للخريطة المفصلة لسبتة وما حولها بتمعن، وهو يفكر في كل ما يحدث منذ سيطرتهم على المدينة، رفع رأسه ينظر إلى فابيو الذي تحدث قائلًا: «الوضع لا يزال متوترًا، المقاومة لا تتوقف من داخل سبتة ومن القرى المجاورة لها أيضًا».

وقف الكونت بدرو وتحرك بضع خطوات شابكًا يديه خلف ظهره قبل أن يتوقف قائلًا: «يجب أن نتعامل مع الأمر بحكمة وحنكة حتى نسيطر على هذه الثورات».

– نعم سيدي، لقد رصدنا تجمعات المقاومين في عدة أحياء، إنهم يعتمدون على معرفتهم بالطرق وأيضًا دعم الأهالي الذين يساعدونهم.

– أظن أن علينا أن نحاول في هذه المرحلة أن نكسب دعم الأهالي، ربما نستطيع إغراءهم ببعض الامتيازات.

– فكرة جيدة سيدي.

– لكن هذا لا يمنع أنه يجب أن نبقى يقظين ولا نأمن جانبهم، كما يجب أن نجعلهم يعرفون قوتنا وأننا قادرون على ردع أي تمرد منهم.

– بالتأكيد سيدي، لن نتهاون في ذلك.

– ماذا عن حوادث قتل الجنود التي تكررت؟.. هل وصلتم إلى هؤلاء المتمردين الذين يقومون بهذه الجرائم؟

– ليس بعد سيدي، لكننا قمنا بتعزيز الحراسة على المداخل الرئيسية للمدينة، وسوف نرسل دوريات مستمرة لمراقبة أية تحركات مشبوهة.

– يجب أن تنتهي من هذا الأمر سريعًا يا فابيو، لا أريد لشيء أن يؤثر على معنويات جنودنا ويثير الرعب بين صفوفهم.

– لا تقلق سيدي، لقد زدنا من عدد الدوريات الليلية، وتأكد أننا سوف نصل قريبًا إلى الفاعل.

– وأنا سوف أرسل إلى جلالة الملك لأطلب منه إمدادنا بالمزيد من الجنود، حتى نتمكن من السيطرة بشكل كامل على المدينة وما حولها.

* * *

جلس جابر إلى جوار منصور داخل غرفة الضيافة، بدا القلق واضحًا على وجهه وهو يحرك قدمه بتوتر قائلًا:

– لم يعد الوضع آمنا هنا في سبتة، الجنود البرتغاليون لا يتوقفون عن التجول في كل مكان بين الأزقة والشوارع، لم نعد نأمن على أنفسنا ولا على أسرنا.

– هذا صحيح، إن الوضع يزداد سوءًا يومًا بعد يوم، إنهم يضيقون الخناق علينا، ولا أظنه إلا سيزداد أكثر في الأيام القادمة.

صمت منصور وهو يتنهد بألم، مفكرًا كيف ستكون حياتهم بعدما آلت إليه الأوضاع، هل سيتركونهم يحتفظون بعاداتهم وتقاليدهم، أم أنهم سيجبرون على تركها؟ بل وربما ترك دينهم أيضًا، لم يستطع منع تلك الصور من الماضي القريب من أن تمر أمام عينيه الأسواق النابضة بالحياة، المساجد العامرة بالمصلين البيوت التي تضج بالحياة، والتي صار عدد كبير منها مهجورًا إما بموت جميع ساكنيه وإما فرارهم خارج المدينة نحو مدن المغرب، وهو بدوره صار يفكر بالأمر، بل إنه اتخذ قراره بالفعل ليضمن حياة آمنة لأبنائه، ربما هو لا يعلم حتى الآن كيف يمكنه التأقلم في مكان جديد بعد أن خسر كل شيء، ولكنه لن يتردد خوفًا على أسرته، وما يجعله غير قادر على التنفيذ حتى الآن هو مرض عائشة، انتبه من شروده على صوت أروى التي دخلت الغرفة وعلى وجهها أمارات الضيق، أشار إليها منصور لتقترب منه وتجلس إلى جوار شقيقها قبل أن يتركهما معًا ويغادر الغرفة، اقترب جابر من أروى ينظر إليها برجاء قائلًا: «ألم يحن الوقت بعد لتعودي إلى بيتك؟».

– ليس بيتي، بل بيت زوجتك.

زفر جابر محاولًا التحكم في غضبه: «بيت شقيقك هو بيتك أيضًا».

- لذلك كنتَ تريد التخلص من حملي وتزويجي لصهرك.

- لمَ لا تنسين الأمر؟.. غسان مات وانتهى كل شيء.

ابتلعت أروى ريقها عند ذكر غسان، وضمت قبضتيها وظلت صامتة حتى لا ينتبه لارتباكها، ليتابع حديثه: «أنا فقط كنتُ أريد أن أطمئن عليك مع زوج يحبك ويخاف عليك».

ابتسامة هازئة ارتسمت على جانبي شفتيها وهي تتذكر ما كان يريد غسان فعله بها، لكنها ابتلعت كلماتها وظلت على صمتها، ليقول: «هذا الوضع ليس صحيحًا، مكانك في بيتي وليس في بيت أناس أغراب عنك».

- عمي منصور ليس غريبًا، إنه في مكانة أبي ويعتبرني ابنة له.

- أعرف مكانته جيدًا، ولكن مع ذلك فبيتك هو بيتي.

زفرت أروى أنفاسها وهي تحاول أن تبقي ذلك الخيط الرفيع بينها وبين شقيقها، فمهما كان فهي تحبه ولا تريد للجفاء أن يبعدهما عن بعضهما بعضًا، نظرت إليه قائلة: «لا أستطيع أن أتركهم الآن في هذه الظروف، لقد كانوا دائمًا يقفون إلى جوارنا، وليس من الشهامة أن أتركهم عندما يكونون بحاجة إليَّ».

تلفت جابر حوله ليتأكد من خلو المكان قبل أن يقترب منها ليتحدث بصوت منخفض: «سليمان أرسل إليَّ، كان سيأتي إلى هنا بعد أن بلغه

خبر وفاة أبي، لكن ما حدث جعله يتراجع، وطلب مني أن نلحق به أخبرني أنه كان في رحلة لطلب العلم في الجنوب، والآن عاد إلى فاس ويريدنا أن نذهب إليه».

رفعت رأسها تنظر إليه بدهشة ممزوجة بفرحة جعلت الابتسامة تشق طريقها إليها لتقول: «سليمان بخير إذَن!».

– أجل ويريد منا أن نعود لنجتمع معًا في مكان واحد.

صمتت وأطرقت برأسها تفكر في الأمر، هي بالفعل تشتاق إلى ذلك الوقت عندما كانت مع إخوتها في بيت واحد، وتريد أن تعود تلك الأيام، لكنها لا تستطيع ترك عائشة في هذه الظروف التي تمر بها رفعت رأسها وقد بدأت الدموع تتجمع بداخل مقلتيها لتقول له:

– لا أستطيع أن أترك عائشة الآن، لا يمكن أن أكون أنانية وأفكر بسعادتي دونها، هي أكثر من أختٍ لي وأنت تعرف ذلك.

– أعرف، ولهذا كنتُ مطمئنًا عليك في بيتها لولا ما حدث لنا، لا أستطيع أن أرحل وأتركك خلفي.

– لا تقلق ربما تصبح بخير عندما يحين موعد الرحيل.

– سيكون بعد أيام قليلة، سليمان سيمهد لنا طريق الخروج من سبتة مع أناس يعرفهم.

انسلت دموعها وهي تنظر إليه، تشعر أنه وضعها بين شقي رحى فلا هي قادرة على الرحيل وترك عائشة ولا على البقاء وترك شقيقيها، صمتت دون أن تقول شيئًا فربت على كفها قائلًا:

– سأترك لك بعض الوقت لتفكري في الأمر قبل أن تبلغيني قرارك، لا أريد أن أجبرك على فعل أي شيء بعد الآن، لكني أريدك معي، فإن كنتُ الآن مطمئنًّا عليك لأنك قريبة مني، فلن أكون كذلك إذا ما غادرت سبتة إلى الأبد.

أنهى جملته وقام ليودعها وتركها مكانها تضم نفسها وعيونها لا تتوقف عن ذرف الدموع دون توقف.

* * *

عم الظلام وهدأت الحركة بين أزقة سبتة الضيقة والمتعرجة، بعد أن مرَّت ساعات طويلة على رحيل النهار، تحرك الجنود في دوريات المراقبة الليلية بحذر شديد وفي مجموعات، كانت إحداها قد أنهت جولتها، وجلسوا متكئين على أحد الجدران، مخرجين قنينة من النبيذ يتبادلون الارتشاف منها، فجأة انتبه أحدهم لفتاة تطل من خلف باب أحد البيوت المهجورة تنظر نحوه وتبتسم له ابتسامة مغوية جعلت عيناه تجحظان بلهفة، التفت نحو زملائه الذين يبدو أن أحدًا منهم لم ينتبه للفتاة، كاد أن يتحدث إليهم لكنه تراجع، وعاد ينظر إليها مجددًا، أشارت إليه بأن يلحق بها وهي ترفع سبابتها أمام شفتيها، ليفهم أنها تريده بمفرده، دقق النظر إليها كانت جميلة جدًّا، ترتدي فستانًا أبيض

لامعًا، وعلى رأسها تاج من الورود البيضاء، بينما ينسدل شعرها الأسود الطويل على كتفيها، ابتلع ريقه وهو يتأمل جمالها الذي لا يقاوم، وقام من جلسته فانتبه له زملاؤه ليسأله أحدهم: «إلى أين أنت ذاهب؟».

- أريد قضاء حاجتي، لن أتأخر سأعود حالًا.

أكمل جملته وانطلق بسرعة نحو البيت الذي اختفت فيه الفتاة، وما إن دخل حتى وجدها تقف في انتظاره بابتسامة جذابة، وهي تشبك يديها خلف ظهرها وتلعب بإحدى قدميها، وقف أمامها لتحدثه بصوت ناعم: «هل يمكنك مساعدتي؟».

ابتلع ريقه وهو يتقدم خطوات نحوها، وعيناه تتجولان على مفاتنها دون أن يرمش له طرف، وعلى وجهه ابتسامة بلهاء، ليقول بصوت متلهف: «بالطبع».

أشارت إلى إحدى الغرف وهي تقول بصوت هامس مثير: «لقد عَلِق وشاحي في نافذة الغرفة ولم أستطع تخليصه، وأخشى أن يتمزق إن جذبته بقوة هو يحتاج إلى من يفكه برفق ولين... هل تستطيع ذلك؟».

- بالتأكيد أستطيع.

قالها واندفع خلفها مسرعًا نحو الغرفة، وما إن دخل حتى سألها: «أين هو؟».

أشارت إلى النافذة المفتوحة والتي علق في أحد أطرافها وشاح أبيض، تقدم بسرعة وقلبه يقرع بسعادة لهذه الغنيمة التي وقعت بين

يديه، دون أن يبذل أي جهد بعد أن لاحظ أن الوشاح لم يكن عالقًا بالفعل، ما جعله يتأكد أنها مجرد حجة لتدعوه إليها، خاصة وهي تقف خلفه مباشرة، حتى إنه يشعر بأنفاسها تضرب رقبته، أمسك الوشاح والتفت إليها بجسده فاتحا ذراعيه نحوها، لكن ما كاد ينطق كلمة واحدة حتى شعر بسكين يغرز في ظهره، جحظت عيناه بألم، فأمسكت الوشاح منه وهي تقول له بابتسامة واسعة: «شكرًا لك عزيزي».

وقبل أن يستفيق من الصدمة تلقى طعنة أخرى، لم تمنحه وقتًا حتى للصراخ ليسقط فاقدًا للحياة.

انتبه الجنود الذين كانوا يتابعون شربهم وهم يتبادلون الأحاديث إلى تأخر زميلهم، فالتفت أحدهم ينظر إلى البيت الذي دخل إليه قائلًا: «لقد تأخر مارك، كل هذا الوقت من أجل قضاء حاجته».

- ربما نسي نفسه ونام بالداخل.

أجاب آخر مازحًا، بينما استقام الأول واقفًا وهو يقول: «أشعر بالقلق».

- أظنه يبحث بين أغراض البيت، ربما أثار انتباهه شيء ما.

- سأذهب لأراه بالداخل.

- انتظر، سأذهب معك..

قالها صديقه وانطلق الاثنان نحو البيت، تجاوزا الباب المفتوح بحذر شديد، وعيناهما تدوران في كل اتجاه، كان الصمت يلف المكان، أخذا

يبحثان في كل الغرف، فجأة صرخ أحدهما ليسرع الآخر نحوه، وجده يقف أمام النافذة المفتوحة والتي كان تحتها بركة من الدماء.

- أسرع وأخبر البقية، يجب أن نتتبع الأثر لنصل إليه بسرعة.

وما هي إلا لحظات وكانوا جميعًا يتحركون بحذر متتبعين خط الدم الذي انطلق من النافذة المفتوحة متجهًا نحو الغابة خارج المدينة، وهم متأهبون بأسلحتهم للمواجهة المحتملة، لكنهم توقفوا فجأة أمام إحدى الأشجار عند بداية الغابة، رفع الجميع رؤوسهم ليصطدموا بجثة جاك معلقة من قدميها على أحد الجذوع مفصولة الرأس منزوعة الملابس ومبقور البطن، تتدلى أعضاؤه إلى الخارج في منظر مقزز حبس أنفاسهم جميعًا.

* * *

طار النوم من عيني أروى تلك الليلة وهي تفكر في حديثها مع جابر، لأول مرة تكون فيها عاجزة عن اتخاذ القرار ولا تعرف أي قرار سيكون الصحيح، ظلت تتقلب في فراشها بأرق لساعات، كم تتمنى الآن لو أن عائشة مستيقظة، لكانت أفرغت كل تلك الحيرة أمامها ولساعدتها على الاختيار، ولكن هل لو كانت عائشة بخير كانت لتحتار أصلًا؟ ضاقت عليها نفسها، فخرجت من غرفتها، وتحركت بحذر نحو غرفة عائشة وهي تشعر برغبة قوية في الحديث إليها حتى وإن كانت تعلم أنها لن تتلقى منها أي رد، فتحت الباب بحذر شديد حتى لا تزعج زينب النائمة بجوارها، اقتربت من الفراش وجلست على طرفه وبدأت تتحدث إليها بصوت هامس: «لا أعرف ما الذي يمكنني فعله، أخشى

إن رحل جابر من دوني ألا أراه مرة أخرى، ستقولين لي إنني كنتُ غاضبة منه؛ أعرف، ولكنه أخي وأنا أحبه جدًّا مهما فعل، قد لا يكون ذلك الأخ الذي تمنيته، فشخصيته ضعيفة أمام زوجته، ولكنه مع ذلك يبقى أخي، ولا أريد أن أفقده كما فقدتُ أبي، حتى سليمان لن يعود مرة أخرى إلى سبتة، ولن أراه ثانية إلا إذا ذهبتُ أنا إليه، أخبريني عائشة ماذا أفعل؟..».

صمتت بعد أن اختنقت بالدموع، ثم رفعت رأسها ومدت كفها تحت الغطاء لتمسك بيديها تستمد منها بعض القوة لكنها لم تجد شيئًا، انتفضت بسرعة ورفعت الغطاء لتتفاجأ بالوسائد التي تحتل مكان صديقتها، كادت أن تصرخ لتوقظ زينب الغارقة في النوم، لكنها تراجعت بعد أن أدركت أن عائشة ربما هي من نفذت هذه الخطة وغادرت فراشها حتى لا ينتبه أحدٌ لغيابها، انتابتها مشاعر متضاربة بين الفرح لشفائها وبين الخوف عليها، أعادت تغطية الوسائد مرة أخرى وغادرت الغرفة بهدوء، ثم بدأت تبحث عنها في كل أركان البيت، وعقلها يدور مفكرًا إن كانت بالفعل من نفذت تلك الخطة للتسلل، فلا شك أنها خارج البيت، توقفت عن البحث وقد بدأ الخوف يسيطر عليها، أين يمكن أن تكون قد اختفت؟ فجأة سمعت صوت حركة فوق السطح، تزايدت ضربات قلبها برعب، لكنها مع ذلك حاولت استجماع بعض قوتها وتوجهت نحو الدرج لتصعد بحذر شديد، وما إن وصلت إلى نهايته حتى اصطدمت بعائشة التي ما إن رأتها حتى توقفت أمامها بصدمة.

* * *

(12)

«عائشة»

تجسدت كل مخاوفي أمامي في لحظة واحدة، عندما رأيتُ عثمان يقف بملامح متجمدة وثيابه ملطخة بالدماء، في تلك اللحظة عرفت حقيقة واحدة أني خسرتُ زوجي إلى الأبد، لا أتذكر ما حدث بعدها، عندما استيقظت كانت رؤيتي مشوشة والأصوات متداخلة في رأسي لم أستطع تمييزها إلا بعد وقت طويل، حينها علمتُ أن عُمر دفن وحُرِمتُ من رؤيته لآخر مرة، أغمضتُ عينيَّ بألم لا يحتمل عندما شعرتَ بزينب تقترب من فراشي، لم تكن لدي رغبة في الحديث مع أحد ولا سماع تلك الكلمات المقيتة لمواساتي، ففضلتُ إيهامهم أني ما زلتُ غائبة عن الوعي، تلك الليلة لم أستطع النوم، كان الوجع بداخلي لا يحتمل، في يوم واحد خسرتُ بيتي الذي ولدتُ وعشتُ به أجمل أيام حياتي، نظرات الألم والانكسار التي رأيتها بعين أبي وهو يقف أمام هؤلاء الجنود الملاعين كانت كطعنات خنجر لا تتوقف بصدري، وفي نفس اليوم خسرت زوجي وطفلي الذي لم أعلم بوجوده إلا في اللحظة التي ضاع مني، قمتُ بتثاقل وأنا ما زلتُ أشعر بألم يمزق أسفل بطني وبدوار جعلني أتحرك ببطء شديد نحو صندوق ملابسنا، فتحته أقلبُ ملابس عمر بدموع لا تتوقف، فجأة أمسكت بفستان زفافي أخرجته وقد زاد نحيبي، لا أعرف لم ارتديته ووقفت وسط الغرفة، شعرتُ بالاختناق ولم أستطع التحمل، فخرجت متجهة نحو السطح، كان البيت هادئًا

ساكنًا، فالجميع نيام وقفتُ فاتحة ذراعَيَّ رافعة رأسي نحو السماء، قبل أن أعود لأتطلع إلى بيوت وشوارع المدينة أمامي، فجأة رأيت بعض الجنود يتحركون بحرية بين الأزقة، شعرتُ بنار قوية تحرق قلبي وصار جسدي ينتفض بقوة، وجدتُ نفسي أنزل إلى سطح بيت خالتي فاطمة الملاصق لبيتنا ومنه إلى داخل البيت قبل أن أغادره، تحركت بخطوات حذرة مغادرة الزقاق، وأنا أتبع أثر الجنود الذين رأيتهم، لم يطل بحثي عنهم فسرعان ما رأيتهم أمامي وقد توقفوا عند نهاية الشارع، اختبأت أراقبهم وبداخلي رغبة قوية بمهاجمتهم، لكني في اللحظة الأخيرة أدركتُ أنني إن فعلت فلن أحصد سوى الموت دون أن أنفذ رغبتي، فعدتُ أدراجي إلى البيت بنفس طريقة خروجي، ولحسن الحظ لم يلحظ أحدٌ غيابي، غيرت ملابسي واندسستُ في فراشي من جديد وعدتُ لأتظاهر بأني ما أزال غائبة عن الوعي، لكن تلك الرغبة داخلي بدأت تسيطر على عقلي.

في الليلة التالية انتظرت أن تهدأ الحركة بالمنزل حتى اطمأننتُ أن الجميع خلدوا إلى النوم، تسللتُ بهدوء شديد حتى لا أوقظ زينب النائمة بجواري والتي لحسن حظي أعلم أن نومها ثقيل، ارتديتُ فستان زفافي ووضعت تاج الورود على رأسي بعد أن تركتُ شعري منسدلًا على كتفي، وبنفس الطريقة التي خرجتُ بها في الليلة الماضية كنتُ قد خرجتُ مرة أخرى نحو الشارع أتجول بحذر بحثًا عن دورية الجنود، ويبدو أن حظي كان جيدًا عندما صادفتُ جنديًّا برتغاليًّا يتجول بمفرده في أحد الأزقة، اقتربتُ منه، وما إن سمع صوت خطواتي حتى التفتَ

نحوي لأقابله بابتسامة رقيقة، رأيتُ في عينيه رغبة متوقدة جعلت قلبي يرتجف برعب، لكني لم أكن أستطيع التراجع عمَّا عزمتُ عليه اقتربت منه خطوات أكثر اختصرها هو، لأجده في لحظة يقف أمامي يتفحصني بنظرات جعلتني أشعر بالتقزز، لكني تمالكتُ نفسي حتى لا أظهر له مشاعري، نظرتُ إليه برجاء وأنا أقول:

- لقد تهتُ عن المنزل ولا أعرف طريق العودة، هل تستطيع مساعدتي؟

ابتلع ريقه وعيناه لا تتوقفان عن افتراس جسدي، قبل أن يقول بصوت مرتجف: «أجل، أجل، أستطيع».

أمسكتُ بكفه وجذبته لنتحرك وأنا أقول: «بيتي واقع في ضاحية المدينة بعيدًا عن المباني، وأنا خائفة من الذهاب إلى هناك وحدي».

- سأذهب معك.

قالها بسعادة بالغة وهو يتبعني مستسلمًا، وأعرف أنه متأكد أنني سأكون فريسة سهلة له ما إن نبتعد عن الأماكن المأهولة.

غادرنا الشوارع واتجهنا نحو الغابة المجاورة، شعرتُ به يشد على يدي أكثر كأنه يخشى أن أنسل منه، بينما كنتُ أجذبه مبتعدة إلى داخل الغابة حتى ابتعدنا بما فيه الكفاية عن المدينة، وقفتُ والتفتُ إليه وما زلت أبتسم برقة جعلته يطمئن لي ليترك يدي وعيناه تلمعان بسعادة، اقتربت منه وأنا أستل الخنجر الذي أحمله معي بحذر دون أن ينتبه إليَّ، وقبل أن أغرزه في صدره وجدته يصرخ بعد أن انغرز خنجر آخر في

رقبته، راقبته وهو يسقط على ركبتيه ينتفض بقوة ورفعت عيني بصدمة لأجد عثمان يقف خلفه ممسكًا بخنجرٍ يقطر دمًا.

* * *

«إدوارد»

استدعانا القائد فابيو لاجتماع طارئ، كنتُ أعلم أنه يخص بالتأكيد حوادث القتل الغامضة التي تكررت كثيرًا في الأيام السابقة بعد أن عجزنا عن الإمساك بطرف خيط لمعرفة هؤلاء المتمردين الذين ينفذون تلك الجرائم دون أن يتركوا أي أثر خلفهم، دخلنا إلى الغرفة حيث ينتظرنا القائد فابيو والذي كان يقف أمام النافذة المطلة على البحر يتطلع إلى الأفق الممتد أمامه شابكًا يديه خلف ظهره، استدار نحونا عندما سمع صوتَ دخولنا، ثم أشار إلينا لنتقدم نحو الطاولة التي تتوسط الغرفة لنقف جميعًا حولها أدار بصره علينا، ثم قال:

– جميعكم كنتم شهودًا على اكتشاف جثثِ رجالنا الذين قتلوا بطرق وحشية، وحتى الآن لم نتمكن من الوصول إلى هؤلاء المتمردين.

أجاب أحد الجنود:

– أظن أنَّ رجالنا تم اختطافهم قبل قتلهم بتلك الطريقة التي يريدون بها بثَّ الرعب في صفوف جنودنا. أخذ فابيو نفسًا عميقًا قبل أن يقول: «يجب أن نتحلى بالشجاعة، لا يمكننا السماح للخوف بأن يسيطر علينا، أريد منكم أي معلومات تفيدنا في الوصول إلى الحقيقة.

عمَّ الصمت وكل منا يفكر في المشهد الذي وجد نفسه أمامه، صورة ذلك الجندي التي وجدتها معلقة لا تغادر مخيلتي، انتبهت على صوتُ أحد زملائي الذي كان يقول: «أظن أن الأمر ليس طبيعيًّا أبدًا، لا يمكن أن يختطف جنودنا ويقتلون بهذه البساطة، فجميعهم أقوياء بما فيه الكفاية ليستطيعوا الدفاع عن أنفسهم ضد أي هجوم.

سأل فابيو باهتمام:

– ماذا تقصد؟

– أظن أن في الأمر سرًّا؛ سمعتُ بعض الأحاديث عن وجود لعنة ما، وأن وراء تلك الحوادث ربما أشباح الأهالي الذين قتلوا في خلال اقتحامنا للمدينة.

– هراء!

قالها فابيو بغضب قبل أن يتابع: «لا أريد لمثل هذه الأخبار أن تنتشر بين صفوف جنودنا فتثبط من عزيمتهم وتزرع الخوف والارتباك بينهم، لا يوجد أشباح، فقط متمردون ويجب أن نصل إليهم في أسرع وقت».

غادرنا الاجتماع وأنا أفكر فيما قاله زميلي عن تلك الأشباح المحتمل ظهورها للانتقام، خاصة بعد أن تم اختياري لأقود فريقًا للبحث والتقصي، لكن لم يكن ذلك أهم ما يشغل بالي بل اختيار ماثيو ليكون من بين رجالي.

وصلتُ إلى حيث صديقي ريكاردو الذي ينتظرني ليسألني باهتمام:

– ما الذي حدث في الاجتماع؟ هل هناك أي جديد؟

– سوف نكثف من دوريات المراقبة لنبحث عن أي أثر يوصلنا إلى هؤلاء المجرمين.

زفرتُ بضيق وأنا أتابع بغضب مكتوم: «ماثيو سيكون ضمن المجموعة التي سوف أتولى قيادتها، لم أكن أتخيل أن نكون معًا في مكان واحد طوال الوقت».

– عليك أن تنسى الماضي، أو على الأقل حاول أن تتجاهله نحن الآن نواجه حربًا شرسة من هؤلاء المتمردين، ويجب أن نكون جميعا يدًا واحدة، ليس هناك مجال للخصومات بيننا.

أومأتُ برأسي موافقًا في صمت، لكني كنتُ أشعر بضيق شديد فأنا ما زلتُ غير قادر على التعامل مع ماثيو دون أن أرى ملامح لوتيسيا في وجهه، انتبهنا على صوتِ أحد الجنود الذي كان يصرخ ليتجمع حوله باقي زملائه، ركضتُ بدوري إليه كان وجهه شاحبًا، وكأن الدماء انسحبت منه بالكامل، جثا على ركبتيه وهو يزفر أنفاسه المتلاحقة ويتمتم بكلمات بالكاد فهمنا منها «أشباح» «جنية بيضاء» «روبرتو»، اقتربتُ منه وأمسكت بكتفه محاولًا تهدئته، وطلبتُ منهم إحضار بعض الماء، بعد دقائق بدأ يستعيد أنفاسه لأسأله باهتمام:

– أريدك أن تهدأ وتحكي لي بتركيز وبتفصيل كل ما حدث معك.

ابتلع ريقه وبدت علامات الذعر على وجهه، قبل أن يبدأ الحديث:

– كنا أنا وروبرتو عائدين من الحانة عندما دخلنا أحد الأزقة، كان كل شيء هادئًا وطبيعيًّا وليس هناك ما يثير الانتباه، فجأة وجدته يلتفتُ نحوي ويطلب مني انتظاره، ودون أن ينتظر ردي تركني أقف مكاني وانطلق مبتعدًا بسرعة، شعرتُ بالريبة من الطريقة التي تصرف بها فقررتُ اللحاق به، وحين لمحته كان يمشي مسلوب الإرادة ممسكًا بيد امرأة متوشحة بالبياض، وعندما صرخت مناديًا إياه التفتت نحوي، كانت عيناها تلمعان ببريق مخيف جعلت قلبي يسقط أسفل قدمي، فأسرعت بالفرار قبل أن تجذبني أنا الآخر.

– لماذا لم تلحق به؟

– كيف؟ كيف؟ إنها جنية، لقد كانت تجره نحو الغابة، وهو كان مغيبًا تمامًا فاقدًا للوعي، لم يكن ذلك روبرتو الذي أعرفه.

زفرتُ بضيق وأنا أتطلع إلى ملامحه المرتعبة، ثم رفعتُ رأسي نحو البقية الذين صمتوا جميعًا وقد بدا الارتباك والخوف عليهم، لأقول بحزم: «ليس هناك أشباح، لا بد أن تلك المرأة من المتمردين الذين يختطفون جنودنا».

قاطعني الجندي صارخًا: «لم يكن مختطفًا، كان يمشي معها مسلوب الإرادة، لقد رأيته لا يمكن أن تكون امرأة عادية».

نظرت بحزم نحو الجنود وأنا أقول لهم بحزم: «سوف نذهب حالًا للبحث عن روبرتو».ثم عدتُ ألتفت إليه: «الآن أخبرني عن المكان الذي تركته فيه آخر مرة».

انطلقنا بسرعة نحو المكان الذي وصفه لنا الجندي بعد أن رفض مرافقتنا غير آبه بتحذيري له بأنه يمكن أن يعاقب لرفضه تنفيذ الأوامر، لكنه لم يكن مباليًا.

أمرتُ الجنود الذين برفقتي أن نبحث معًا ولا نفترق عن بعضنا بعضًا، بدأنا البحث بين الأشجار المتداخلة بخطوات حذرة وعيوننا تدور في كل اتجاه، قبل أن يشير أحدهم نحو أحد الاتجاهات صارخًا: «انظروا هناك!».

أسرعنا جميعًا حيث أشار، وكنتُ أعلم أني على موعد مع مشهد مرعب جديد بطله هذه المرة الجندي روبرتو.

* * *

أمام سرير خشبي صغير جلس منصور واضعًا يده على جبين الرضيع ليتأكد من حرارته، ثم التفت إلى جابر وزوجته مليكة اللذين يقفان خلفه وعلامات القلق بادية على ملامحهما، ثم قال بهدوء: «أريد بعض الماء الدافئ».

– هل هو بخير؟

سأل جابر ليجيبه منصور بابتسامة هادئة: «لا تقلق، الأمر بسيط، لا يعدو سوى مجرد مغص بسيط وحمى خفيفة، حرارته ليست عالية بدرجة مخيفة، سوف أعدُّ له بعض الأعشاب، وسيكون بخير في خلال يومين بإذن الله».

التفت جابر نحو مليكة التي انطلقت بسرعة لإحضار ما طلبه منصور، وبعد أن انتهى هذا الأخير من تحضير الدواء قدمه للصغير، وأعطاهما بعض التعليمات والنصائح لمساعدتهما حتى يشفى رضيعهما، ثم قام ليغادر البيت لكن جابر أوقفه وطلب منه استضافته لبعض الوقت فقبل منصور بصدر رحب، جلسا معًا في غرفة الضيافة بدا على جابر بعض التوتر وهو يفرك يديه لينتبه إليه منصور فربت على ساقه بابتسامة مطمئنة:

- لا تخشَ شيئًا، فحالة الصغير لا تستدعي كل هذا القلق.

- الحمد لله، لكن ليس هذا ما يشغلني وأريد الحديث معك بشأنه.

نظر إليه منصور باهتمام قائلًا: «ماذا إذن؟».

- الأمر يتعلق بأروى، ما زالت ترفض العودة إلى بيتي.

- أعرف أنك متضايق من موقفها منك، لن أناقشك فيما حدث بينكما، ولكن اترك لها بعض الوقت، وبالتأكيد سوف تهدأ وتسامح.

- أنا أثق بك سيد منصور، لذا سأخبرك بسرٍّ وأريدك أن تساعدني لإقناع أروى.

انتبه منصور في جلسته ونظر إلى جابر باهتمام ليكمل هذا الأخير: «سوف أرحل عن سبتة نحو فاس، أخي سليمان أرسل إليَّ لألحق به، ولا يمكنني أن أترك أروى هنا خلفي، فكما تعلم الوضع هنا أصبح صعبًا ولا أحد يعرف ما الذي يمكن أن يحدث في الأيام القادمة».

أخذ منصور نفسًا عميقًا وهو يقول: «لا أظن أن سلطان بني مرين سوف يترك المدينة في أيدي البرتغاليين، وبالتأكيد سوف يحاول استرجاعها لقد أرسل الأهالي في طلب المساعدة منه بالفعل».

– وهل تظن يا سيد منصور أنه سيسرع لنصرتنا؟ أخشى أنه من الضعف ما يجعله غير قادر على فعل شيء.

– ربما، ولكن لن نفقد الأمل مع توالي هجمات المقاومة من داخل سبتة ومن القبائل المجاورة.

– وإلى أن يحدث ذلك لا يمكنني البقاء هنا، سوف نرحل إلى فاس ويمكننا العودة في أي وقت إذا ما تحسنت الأوضاع، وأريد منك أن تقنع أروى بمرافقتي، هي لا تريد ترك صديقتها عائشة في هذه المحنة التي تمر بها، وأنا لا أستطيع الانتظار لفترة طويلة.

– هذا حقك يا بني، ولن أخفيك سرًّا أني أيضًا أفكر في الرحيل، وما يمنعني حتى الآن هي حالة عائشة، فلا يمكننا التحرك قبل أن تستعيد وعيها.

تهللت أسارير جابر وهو يقول بحماس: «حقًّا؟ سأحاول أن أقنع الرجل بالانتظار قليلًا، ربما نرحل جميعًا في وقت واحد».

– آمل ذلك بني.

* * *

«عائشة»

آخر شخص كنت أتخيل أن أراه في تلك اللحظة هو عثمان الذي كان قد رآني وأنا أصعد إلى السطح فلحق بي دون أن أنتبه له، فاجأتني نظراته القوية وهو يمسك الخنجر وينظر إلى جسد الجندي الذي فارق الحياة تحت أرجلنا، نظر إليَّ وابتسم وهو يتقدم نحوي قائلًا: «ما زالتِ النار تأكل صدري، كأنَّ قتله لا يكفي».

نظرت إلى الجسد الممد أمامي قبل أن أجيبه: «معك حق».

ودون أي كلمة وكأننا متفقان على خطة وضعنا تفاصيلها معًا، قمنا بالتمثيل بالجثة بأبشع الطرق، ثم سحبناه إلى داخل المدينة وتركناه في مكان يسهل عليهم إيجاده وعدنا إلى البيت، في تلك الليلة شعرت براحة غريبة لقد بدأت الثأر لموت زوجي وطفلي، ولكن جنديًّا واحدًا لم يكن كافيًا؛ فاجأني عثمان ذلك الطفل الشقي الذي لم يكن يشغله شيء سوى اللعب مع أقرانه بين شوارع وأزقة سبتة كيف تغير بين يوم وليلة، صرتُ أراه رجلًا وكأنه كبر سنوات تفوق سنوات عمره القليلة، وفي المرة الثانية كان هو من وضع لي الخطة لاستدراج أحد الجنود، وعندما نجحت في سحبه تفاجأتُ بوجود شابين آخرين توليا قتل الجندي مع عثمان والتمثيل بجثته، علمتُ يومها أنه انضم إلى المقاومين بعد موت عمر مباشرة، أخبرني أنه يريد الثأر كما أنه لن يسمح لهؤلاء الغزاة أن ينعموا بالراحة أبدًا، كرَّرنا الفعلة مرة وراء أخرى وبطرق مختلفة، كنتُ أنجح بسهولة في استدراج الجنود ليتولى البقية أمرهم، حتى تلك الليلة

التي اكتشفت فيها أروى أمرنا ونحن عائدين إلى البيت، نظرت إلينا بصدمة وقبل أن تفتح فمها جذبتها من ذراعها وعدنا إلى السطح لأجد نفسي مضطرة إلى أن أخبرها بكل شيء، ظلت تقلب نظراتها بيني وبين عثمان بصمت دون أن تقول كلمة واحدة حتى انتهيتُ من حديثي، لأرى دموعها تنساب على وجنتيها اقتربت منها، ربتت على كفها فرفعت رأسها تنظر لي بعتاب قائلة: «لا أصدق ما تقولينه، كأنني أمام عائشة أخرى ليست صديقتي التي كبرنا معًا، كيف فعلتِ كل ذلك؟».

- كما قتلتِ أنتِ غسان؛ نسيتِ ما قلته لي؟

سكتت أروى تنظر لي فأكملت: «ثأري ليس لعمر فقط، ولكن لكل من قتلهم هؤلاء الأوغاد، للمساجد التي حولوها إلى كنائس، للأرض التي اغتصبوها ويريدون منا أن نستسلم ونتركها لهم يعيثون فيها فسادًا، لا يمكن أن نقبل ونركع لهم».

- لكن القتال للرجال...

قاطعتها بحزم: «ما دمتُ أستطيع أن أحاربهم سأفعل».

- لو أمسكوا بك؟

- يقتلونني! أتظنين أني أخشى الموت؟ لا بالتأكيد هو أغلى أمنياتي.

ظلت أروى تنظر لي باندهاش كبير قبل أن تقول لي: «تغيرتِ كثيرًا عائشة».

- جميعنا تغيرنا.

– ولِمَ تركتنا طوال هذه المدة نعتقد أنكِ غائبة عن الوعي؟ لم تركتنا قلقين عليك؟

– لأن أبي يريد الرحيل عن سبتة، وإذا علم أني بخير لن يتردد في الهجرة نحو مدن المغرب، ونحن لا نريد.

رفعتُ بصري نحو عثمان الذي كان يراقبنا في صمت، ثم عدتُ إلى أروى وطلبتُ منها أن تحفظ سرَّنا، كنتُ أعلم أنها ستفعل كيفما كان رأيها في ما نقوم به، لكنها بالتأكيد لن تخذلني وتفضح أمري لأي كان.

* * *

«إدوارد»

انتشرت قصة روبرتو وتلك الجنية بين صفوف جنودنا كالنار في الهشيم، وليتها بقيت على صيغتها الأولى، فقد تحولت القصة من جنية ترتدي فستانًا أبيض إلى أخرى، بقدمين تشبهان حوافر الدواب، وأنيابًا تشبه أنياب الذئاب، وأن لها صوتًا ساحرًا، ما إن تسمعه حتى تجد نفسك تتبعها دون أي مقاومة، كل ليلة نتجول بين الشوارع والأزقة خاصة تلك المهجورة، بحثًا عن أي دليل يقودنا نحو تلك المرأة ومن خلفها دون جدوى، بل إن عدد ضحايانا في ازدياد مستمر؛ كنا نتلقى التوبيخ المستمر من القائد فابيو الذي كان يخشى من أن يفقد السيطرة على الوضع، خاصة وأن بعض الجنود أصبحوا يرفضون الخروج في دوريات المراقبة الليلية خشية أن يتم اختطافهم من الأشباح، حتى تلك الليلة خرجنا كالعادة وتحركنا بحذر وعيون مترقبة حاملين أسلحتنا

نراقب مداخل المدينة والأماكن التي قيل إن جنودنا فُقِدوا فيها، كان الظلام شديدًا لا يبدده سوى الأضواء الخافتة للمشاعل المعلقة على الجدران الحجرية، فجأة اقترب مني ماثيو قائلًا:

– لا يمكننا الاستمرار في المشي في هذه الأماكن الخطرة.

التفتُّ نحوه ونظرت إليه بحزم: «لدينا مهمة يجب أن ننجزها بنجاح».

– إنك تدفعنا نحو الموت، لا يمكننا التنبؤ بما يمكننا مواجهته في هذه الأماكن المهجورة وفي هذا الوقت المتأخر.

– أنتَ هنا لتنفذ أوامري وليس لتناقشني فيها، هيا لنواصل البحث.

قلتها بغضب واستدرت مكملًا طريقي، لكن فجأة سمعنا صوت صرخة نسائية قوية جعلت أقدامنا تتوقف مكانها وعيوننا تلتفتُ في كل اتجاه، تحركت بحذر وأنا أشير إلى الجميع بالتقدم، لكن لا أحد منهم تبعني، استدرت أنظر إليهم بغضب: «ما الأمر؟».

أجابني أحدهم: «أظن أن علينا العودة».

لم أكد أتكلم حتى رأيت علامات الهلع التي ارتسمت على وجوههم، وعيونهم متسمرة خلف كتفي، تصاعدت ضربات قلبي وأنا ألتفتُ ببطء شديد لأتجمد بدوري على تلك المرأة التي كانت تقف أمامنا على بُعِد بضع خطوات ترتدي فستانًا أبيض وشعرها الأسود الطويل منسدل على كتفيها وعلى وجهها ابتسامة مغوية وهي تغمز لي

بإحدى عينيها، عدتُ بسرعة أنظر إلى الجنود الذين برفقتي، لكني لم أجد أحدًا كانوا جميعًا قد فروا، عدتُ أنظر إليها وهي لا تزال تقف مكانها بنفس الابتسامة، قبل أن ترفع يدها لتشير إليَّ لألحق بها، شعرتُ بالرعب وأنا أجد نفسي أخيرًا أمام اللغز الذي كنتُ أبحث عنه، ولكني صرتُ بمفردي بعد هروب جميع رجالي، تراجعتُ خطوة إلى الخلف أحدِّث نفسي بأني لن أستطيع فعل أي شيء وحدي، وأن أفضل ما يمكنني القيام به الآن هو الابتعاد عن هذا المكان فورًا، كنت أتراجع إلى الخلف وعيناي لا تفارقانها حينما وجدتها تهز كتفيها وتزم شفتيها بتذمر، ثم تلتفت مغادرة المكان بدأت تبتعد عني حتى كادت أن تختفي عن مرمى بصري، في تلك اللحظة قررتُ أن ألحق بها لظني أنها بالتأكيد غادرت بعد تأكدها من فشل مهمتها؛ أسرعت خلفها بخطوات حذرة أراقبها من بعيد، وكلما ابتعدتُ عن المدينة ازداد قلقي وخوفي، لكني لم أستطع التراجع بعد أن صرتُ على بعد خطوات من معرفة سر هذه المرأة، إن أكملت مراقبتي لها دون أن تفطن لي، لكن فجأة شعرت أني أسحب بقوة من قدمي ليرتطم رأسي بالأرض، ثم سحلت بسرعة لحظات وكنت معلقًا من قدمَيَّ بجذع شجرة ورأسي يتدلى إلى الأسفل، أطلقت صرخة مدوية وأنا أنتفض محاولًا تخليص نفسي حين وجدتها تقف أمامي بنفس تلك الابتسامة المغوية، وهي تقول بصوت هامس: «كنتَ تظن أنك تستطيع الإفلات من قبضتي؟».

* * *

(13)

سبتة 1415

عائشة

بداخل أحد البيوت التي هجرها أهلها على أطراف المدينة اجتمعتُ مع مجموعة من الأهالي الذين قرروا حمل راية المقاومة والجهاد لاسترجاع سبتة، لم تكن بالطبع تلك المرة الأولى التي التقيهم فيها رفقة عثمان، ولكنها المرة الأولى التي آخذ معي أروى بعد أن قررت الانضمام إلينا بدورها، انتبهنا جميعًا إلى صوت أحد الشباب قائلًا:

– هؤلاء الأوغاد لا يتوقعون هجومًا من الداخل، لذلك فَنَصْبُ كمين لإحدى دورياتهم وسط المدينة ستكون ضربة قوية وقاصمة.

– علينا أن نكون حذرين، التحرك داخل المدينة لن يكون سهلًا.

تدخلتُ بدوري لأشارك في الحوار: «أهم شيء اختيار مكان الكمين، يمكننا الاختباء فوق أسطح البيوت وتوجيه سهامنا نحوهم في الوقت المناسب وبشكل مباغت، خلق الارتباك بين صفوفهم سوف يساعدنا على السيطرة على مجريات القتال».

اتفقنا على وضع خطة محكمة للهجوم المرتقب والذي لم يكن الأول ولن يكون الأخير بكل تأكيد، جلست أروى بجواري وعيناها تتفحصان الحضور برهبة وإعجاب شديدين، وما إن غادرنا البيت حتى وجدتها تمسك بكفي قائلة:

– فاجأتني عائشة.

– لماذا؟

– لم أكن أتخيل أن أراك بهذه القوة، اعتدتُ على عائشة صديقتي الرقيقة المشاكسة.

– لأن الوضع تغير عزيزتي، نحن الآن مجبرون على الوقوف بحسم للدفاع عن أرضنا وتلقين هؤلاء المغتصبين درسًا لن ينسوه أبدًا، وجعلهم يغادرون مدينتنا دون رجعة.

– فقط من أجل الثأر؟

– ربما كان الثأر ما حركني أول الأمر، لكن الآن هناك ما هو أهم من مجرد ثأر شخصي، نحن نقاتل من أجل أرضنا.

– أشعر بحماس لا مثيل له لأشارككم النضال.

تابعنا طريقنا بحذر نحو البيت، لكن فجأة توقفنا عندما أشار إلينا عثمان بذلك، تراجعنا لنختبئ عند أحد الجدران بينما سبقنا هو بخطوات حذرة قبل أن يعود نحونا ليقول: «هناك دورية لبعض الجنود من الأفضل أن نغير طريقنا».

– ولماذا نضيع صيدًا ثمينًا؟..

قلتها وأنا أشير إلى عثمان الذي لمعت عيناه بحماس قبل أن يجيبني:

– انتظراني هنا سوف ألحق بالشباب لنرى إن كان بإمكاننا تنفيذ المهمة هذه الليلة.

لم يمضِ وقت طويل حتى اتفقنا على خطة لاستدراج هؤلاء الجنود نحو الفخَاخ المنصوبة داخل الغابة لنبدأ التنفيذ على الفور، نزعت العباءة التي أرتديها فوق فستاني الأبيض، راقبنا الدورية التي كان تتحرك بحذر شديد وعلامات الخوف والترقب بادية عليهم، التفت زميلنا صالح ليقول لنا بابتسامة واثقة:

– يبدو أن إشاعة فكرة انتقام الأشباح آتت أكلها، انظروا إلى خطواتهم المتعثرة وأرجلهم المرتجفة.

– ما الذي سنفعله الآن؟

قالتها أروى، لأجيبها:

– سوف ننتظر حتى يصلوا إلى مدخل الغابة، حينها سأظهر أمامهم على مسافة آمنة سيحاولون اللحاق بي لأقودهم نحو الفخ المنصوب.

– ماذا إن فروا هاربين؟ لمَ لا نتلاقاهم من الخلف ونسدد نحوهم سهامنا؟..

قالت أروى، ليجيبها صالح:

– عددنا قليل، لن نغامر بدخول مواجهة الآن ونحن غير مستعدين لها، الأفضل استدراجهم إلى الغابة، أظن أن الخوف سيجعل عددًا منهم ينسحب ولا يلحق بعائشة.

بدأنا على الفور تنفيذ الخطة، وما إن وصلوا إلى المكان المناسب حتى أطلقت أروى صرخة مدوية لتلقي بالرعب في قلوبهم قبل أن

أظهر أمامهم، وكما توقعنا بالفعل فرَّ الجميع عدا قائدهم الذي بدا مترددًا بين الهروب واللحاق بي، لكنه في النهاية اختار التوجه بنفسه نحو مصيره المحتوم.

* * *

«إدوارد»

عدتُ إلى المعسكر وأنا أشعر أني ولدتُ من جديد لقد وقفتُ على حافة الموت، وما زلت لا أصدق أني فعلًا نجوت، عندما وصلت استقبلني باقي زملائي باستغراب بعد أن اعتقدوا أني سأكون الجثة القادمة، أسرع نحوي ماثيو ليسألني: «كيف نجوت؟ هل تركتك تلك الجنية تعود بهذه البساطة؟ لقد رأيتك وأنت تتبعها».

رفعتُ رأسي أنظر إليه بنظرات خاوية لا تحمل أي تعبير قبل أن أجيبه بهدوء: «إِذَنْ لَمَ لَمْ تلحق بي؟ ألم يكن من واجبك إنقاذ زميلك الذي يتعرض للخطرَ؟».

ابتلع ريقه وتمتم قائلًا: «لا يمكننا مواجهة أشباح، لو لحقتُ بك ربما كنا قُتِلنا معًا».

- لكنني كما ترى عدتُ بسلام ولم أُقتل...

قربتُ وجهي منه لأكمل بصوت هامس: «كما كنتُ تتمنى بالتأكيد».

تراجع إلى الخلف عندما سمع صوت القائد فابيو يتقدم نحوي ليسألني بدوره عمَّا حدث الليلة، لأحكي له التفاصيل:

– فوجئنا بتلك المرأة تقف أمامنا، وعندما فرَّ الجنود بقيت وحدي في مواجهتها أشارت إليَّ لأتبعها، لكني لم أفعل بل تراجعت إلى الخلف لم تلحق بي كما توقعت، وبقيت تنظر إليَّ بعض الوقت قبل أن تستسلم وتغادر المكان، عندها قررت اللحاق بها دون أن تنتبه لي، فربما أصل إلى حقيقتها بقيتُ خلفها وهي تتحرك بخفة بين الأشجار غير آبهة للظلام الشديد، ولولا ثوبها الأبيض الناصع لما تمكنت من رؤيتها أبدًا، لكنها كانت سريعة فبعد فترة فقدتُ أثرها، بحثتُ عنها دون جدوى لم أستطع العثور حتى على أثر لأقدامها، وعندها اضطررتُ إلى العودة».

استمع لي القائد فابيو باهتمام وأخذ يسألني عن وصفها وكل ما يتعلق بها وإن كنتُ انتبهتُ أن هناك من يرافقها أم لا، فأكدتُ له أنها كانت وحدها وأن الظلام الشديد كان عائقًا أمامي منعني من تتبع أثرها.

عدتُ إلى خيمتي لأستلقي على فراشي واعتذرتُ من زملائي الذين كان لديهم فضول كبير لأروي لهم تفاصيل ما حدث بعد رحيل القائد فابيو، لكني لم أُضِف كلمة واحدة وأنا أخبرهم أني بحاجة إلى الراحة، أغمضتُ عينيَّ ومشهد ما حدث الليلة لا يفارق خيالي، كنتُ ألحق بها ظنًّا مني أنها لم تنتبه لي وأني نجحتُ في تتبع أثرها حتى فوجئت أنها كانت تسحبني نحو الفخ المنصوب لأجد نفسي معلقًا كشاة تنتظر لحظة ذبحها، الرعب الذي شعرتُ به وأنا أسمع صوت أقدام كثيرة تتقدم نحوي لم أشعر به من قبل أبدًا؛ ثم سمعت أحدهم يقول: «دعوه لي هذه المرة إنه دوري أنا من سأقتله»، أغمضتُ عيني واستسلمت للموت

الذي ينتظرني وصور أمي وإخوتي وحياتي تمر أمام عينيَّ دون توقف، فجأة سمعتُ صوتًا أنثويًّا يصرخ بهم: «توقفوا».

لم يكن الصوت غريبًا عني فقد سمعته من قبل، فتحتُ عيني أبحث عنها لكني رأيتهم يبتعدون ويتحدثون، لم أستطع سماعهم ولا حتى رؤيتهم بوضوح مع وضعي المقلوب الذي استمر فترة قبل أن يتقدم أحدهم نحوي ليقطع الحبل فسقطت على الأرض، حاولت النهوض لكنه ضغط على كتفي ليجبرني على البقاء جالسًا، رفعت رأسي عندما تقدمت نحوي فتسمرتُ أنظر إليها بذهول بينما وقفت أمامي وهي تقول:

– لقد أنقذتَ حياتي ذات مرة ولا يمكن أن أكون ناكرة للجميل وأتركك تموت، وها أنا أنقذك من الموت بدوري، لكنها المرة الأخيرة التي أفعلها إن وقعت في أيدينا مرة أخرى تأكد أني لن أساعدك أبدًا.

أخذتُ نفسًا عميقًا وأنا أنظر إلى الفتاة صاحبة صندوق الكتب كما كان يحلو لي تسميتها ثم قلتُ لها: «أما أنا فلن أنسى لك هذا الجميل أبدًا، وسأرده لك مرة وراء أخرى كلما سنحت لي الفرصة لذلك».

اقتربت مني ثم جلست أمامي قائلة: «أنتَ بالتأكيد لم ترني هذه الليلة».

ابتسمت وأنا أحرك رأسي علامة للنفي ثم قلت: «لقد تبعتُ ذلك الشبح إلى وسط الغابة، لكني فقدتُ أثرها وضاعت مني فعدتُ أدراجي».

استقامت واقفة وهي تشير إلى الشاب الذي كان يقف خلفي فجذبني بقوة لأقف:

– ارحل الآن، وتأكد أنك إن فكرت بالغدر بنا فإننا نستطيع الوصول إليك بسهولة وقطع رقبتك.

– شكرًا لكِ.

عدتُ من ذكرياتي وأنا أفكر في ما حدث أعرف أني بإخفائي للحقيقة أكون قد خنتُ واجبي، لكني لم أستطع أن أفضح سرها، تلك الفتاة منذ رأيتها وأنا أشعر أني مسؤول عن حمايتها ما يجعلني أتصرف دون تفكير فقط لأبقيها بعيدة عن الخطر.

* * *

«عائشة»

كانت المرة الأولى التي نطلق سراح جندي بعد نجاحنا في إيقاعه في الفخ، فاجأتنا صرخة أروى وهي تطلب منا التوقف قبل قطع رأسه، جذبتها من ذراعها وابتعدنا عنه لأستفسر منها عن السبب، حينها أخبرتني أن هو نفسه من أنقذها من بين براثن غسان تلك الليلة، رفض أغلب زملائنا طلبها بالعفو عنه خشية أن يفضح أمرنا، لكنها عادت لترجوهم قائلة:

– أعرف أن ما أطلبه منكم صعب قبوله، ولكن هذا الجندي أنقذني من موت محقق، بل حافظ على شرفي الذي كاد أن يستباح على يد ذلك الخسيس، والأهم أنه أظهر شهامة وهو يدافع عني.

صمت الجميع، وتركزت الأنظار على قائد مجوعتنا الذي كان يفكر بعمق وعلى وجهه علامات التردد قبل أن يقول:

- لكني لا أثق به إن تركناه يغادر.

ظل الصمت يخيم علينا قبل أن يتابع: «يجب ألا يرانا حتى لا يتعرف علينا، سوف تتحدثين إليه أنتِ فقط، وأخبريه أننا نستطيع قتله في أي وقت».

أومأت برأسها وقد بدت عليها علامات الارتياح أخيرًا، بعد عودتنا إلى البيت سألتها: «لم أتوقع أن تطلبي العفو عن ذلك الجندي».

- ضميري ما كان ليرتاح وأنا أراه يقتل بعد إنقاذه لحياتي، لولاه لما كنتُ الآن هنا لو كنتِ مكاني ماذا كنتِ ستفعلين؟

رفعتُ كتفيَّ لأجيبها: «لا أعرف، لكن هؤلاء الأوغاد لا يستحقون الرحمة أبدًا».

جاءت الليلة التي اتفقنا على تنفيذ هجومنا الجديد بها، وتحت جنح الظلام كنا نتحرك بخفة بين أزقة سبتة الضيقة التي نحفظ تعرجاتها عن ظهر قلب، أعيننا تراقب كل زاوية وكل ركن نمر منه، تحسبًا لأي حركة غير متوقعة حتى وصلنا إلى الحي المطلوب، صعد مجموعة من رجالنا فوق الأسطح ليختبؤوا فيها مراقبين الطريق أسفل منهم، بينما ارتكنتُ مع مجموعة أخرى، أمسك سيفي بقوة وثبات استعدادًا للقتال جنبًا إلى جنب مع زملائي من المقاومين رجالًا ونساءً عند مخرج الحي، فيما كان آخرون ينتظرون دخول الدورية التي كانت تتقدم ببطء غير

مدركين لما ينتظرهم على أيدينا لنغلق عليهم المدخل، وما إن صاروا في المنتصف حتى انطلقت السهام تتساقط فوق رؤوسهم، بدأ الارتباك بين صفوفهم ليتحركوا بعشوائية محاولين تفادي الأسهم المتساقطة، وقبل أن ينظموا صفوفهم انقضضنا عليهم من جميع الجوانب نقاتل بشراسة واستماتة، ليبدأ تساقط ضحاياهم تحت سيوفنا؛ كانوا يفوقننا عددًا لكن عزيمتنا كانت أقوى بكثير ولم يمض وقتٌ حتى بدؤوا بالانسحاب واحدًا تلو الآخر، وهم في حالة من الهلع والتشتت، وقفت بعد انتهاء المعركة بين الجثث والأسلحة المتناثرة وأنا بالكاد أستطيع التنفس من التعب ولكن بروح معنوية عالية، شعرتُ بأروى تقف خلفي استدرتُ نحوها لتقابلني ابتسامتها الواسعة قبل أن تقول: «تقاتلين ببراعة».

– عمك منصور علمني القتال حتى أستطيع الدفاع عن نفسي إن لزم الأمر، لم يكن يتخيل أنه سيأتي اليوم الذي أحمل سيفي لأدافع عن بلدي، وسأظل أدافع عنه حتى النصر بإذن الله.

* * *

كانت أروى قد أقنعتني بالتخلي عن فكرة البقاء غائبة عن الوعي رأفة بأبي وأمي، وإن كنتُ استمررت على التظاهر بالمرض وملازمة للفراش أغلب الوقت، حتى أطمئن أن أبي لن يفكر في الرحيل قبل أن أجد طريقة أقنعه بها بالعدول عن الفكرة.

تزايدت هجماتنا على الجنود البرتغاليين واستغللنا ما يدور من حديث عن وجود أشباح القتلى التي تنتقم منهم، فكنتُ كلما ظهرت

أمام مجموعة منهم حتى أجدهم يرتجفون رعبًا تبدأ رحلة الهروب العشوائية والتي تجعلهم فريسة سهلة لنا.

كل شيء كان يمضي كما نريد حتى وجدتُ أبي يدخل علينا ذلك اليوم ليخبرنا أننا سوف نرحل عن سبتة، جلس إلى جواري على الفراش وأمسك كفي قائلًا:

- أعرف أنكِ لا تريدين مغادرة بيتك ولا سبتة بأكملها، لكن يا ابنتي أنا لا أستطيع البقاء هنا، فلم يتبقَّ لنا شيء نتمسك بالبقاء من أجله.

- ولكن يا أبي...

قاطعني بنظرات حازمة: «أبوك كُسر ظهره عندما وقفت عاجزًا أمامكم غير قادر على الدفاع عن بيتي وأرضي، صرتُ غير قادر على رفع رأسي في وجه أحد لا بيت لي ولولا بيت زوجك رحمه الله لكنتُ أنا وإخوتك مشردين بلا مأوى».

- لا تقل ذلك أبي، بيتي هو بيتك، ولن نترك أرضنا لهؤلاء الغزاة.

- البرتغاليون لن يرحموا أحدًا، ولن تكون حياتنا هنا آمنة يجب أن نذهب إلى حيث نستطيع أن نعيش بكرامة وأمان.

ترقرقت عيناي بالدموع وأنا أقول: «ارحلوا إن أردتم لكني لا أريد أن أترك بيت زوجي، كما أني لا أستطيع تحمل أعباء السفر الآن».

- لن أتركك أبدًا هنا، سنرحل جميعًا.

رأيتُ الإصرار في عيني أبي وعرفت أنه لن يتراجع عن قراره، لم أجد حلًّا سوى والدة عمر ربما تقنعه بالعدول عما نوى القيام به، لكنها فاجأتني بأنهما كانا متفقين بالفعل، وبأنها أيضًا تريد الرحيل خوفًا على عثمان الذي صار يقلقها غيابه المتكرر عن البيت دون أن تعرف مكانه.

لكنني ما كنتُ لأستسلم، فقررت أن أبحث عن خطة تجعلهم يتراجعون عن قرار الرحيل.

* * *

«إدوارد»

وجد ماثيو في قصة نجاتي من شبح تلك المرأة فرصة ليبث سمومه، وهو يدور بين الجميع ليخبرهم أن ما قلته ليس منطقيًّا، وأني بالتأكيد أخفي سرًّا، غير أن كلامه لم يلقَ تصديقًا، وإن كان بالتأكيد ترك أثرًا، لم أهتم كثيرًا بما كان يصل إليَّ، وكل ما شغلني هو الوصول إلى تلك الفتاة، رغم علمي بأنها لن تقبل لقائي، حتى وصلتُ إليها بالفعل، عندما وجدتها تتجول في السوق لم أتردد في اللحاق بها، وما إن غادرت السوق وعرجت نحو أحد الأزقة حتى وجدتها تقف فجأة وتلتفت إليَّ بغضب لتصرخ في وجهي:

- لماذا تطاردني؟

- لا أعرف.

فتحت فمها بدهشة، لكنها سرعان ما عادت تنظر لي بغضب: «ابتعد عن طريقي، وانسَ أنك قابلتني يومًا، أفهمت؟».

- لا أستطيع.

- ماذا تريد؟

- صدقًا لا أعرف، ولكني أشعر أنك مسؤوليتي وأني يجب...

قاطعتني بسرعة وهي ترفع سبابتها في وجهي: «اسمع يا هذا، أنا لا أحتاج إلى حماية شخص مثلك، أكرهكم جميعًا لقد دمرتم حياتنا منذ أن وطأت أقدامكم أرضنا».

غادرت وتركتني أقف مكاني أسأل نفسي لماذا أتبعها وأنا واثق من نظرتها نحوي ونحو باقي جنود البرتغال، إنهم بالتأكيد يرون أننا غزاة اغتصبنا أرضهم التي عاشوا فيها سنوات طويلة، طردناهم من بيوتهم وربما قتل أفراد من عائلتها في هذه الحملة، كيف توقعت للحظة أنها يمكن أن تتحدث لي دون أن تحمل نحوي ضغينة وكرهًا لا يتصور؟.. أدركتُ في تلك اللحظة حماقة ما أقوم به، فاستدرتُ عائدًا إلى المعسكر ولم أنتبه إلى العيون التي كانت تلحقني وتراقبني، والذي رأى المشهد وجعل منه قصة تناقلتها ألسنة زملائي بسرعة عن قصة حب تجمع بيني وبين فتاة من سبتة، ولم تمضِ سوى أيام حتى وجدتُني أُعزل من منصبي لقيادة دورية المراقبة، بدعوى أنني لم أقدم أي نتيجة ليصبح ماثيو القائد بعدما نجح في إزاحتي بدسائسه، لو كنتُ في وقت سابق لجعلته يدفع

الثمن لكن في الحقيقة لقد قدَّم لي خدمة كبيرة، فمنذ أن عرفتُ أنها مع هؤلاء المتمردين وعزيمتي في الوصول إليهم خبت، بل صرت خائفًا أن يصل إليهم أحدٌ آخر من زملائي، ابتعدتُ عن طريقها كما أرادت لكني لم أستطع أن أبعدها عن تفكيري أبدًا، حتى تلك الليلة حين كنتُ أقف أعلى برج المراقبة في الحصن صعد ريكاردو ليرافقني وقد بدأت خيوط الفجر تنتشر وقف إلى جواري قائلًا:

– ما بك يا صديقي، منذ أيام وأنت لا تبدو بخير؟

– لا شيء.

– بلى، أخبرني، هل ما يقولونه صحيح؟

– ماذا تقصد؟

– أنك على علاقة بفتاة ما هنا؟

– ما هذا الهراء الذي تقوله؟ لستُ على علاقة بأحد، تلك الشائعات أطلقها ماثيو ليأخذ مكاني.

– اهدأ يا صديقي، أنا قلت ما يتردد حولك فقط.

لم نكمل حديثنا بعد أن سمعنا صوت جلبة في الأسفل، أسرع ريكاردو ليستطلع الأمر، بينما بقيت أنا في انتظاره، عاد بعد مدة وقد تهللت أساريره وهو يقول: «يبدو أن لغز الأشباح قد حل».

تسارعت ضربات قلبي بفزع وأنا أنظر إليه لأسأله: «ماذا تقصد؟».

– لقد نصب جنودنا كمينًا لهؤلاء المتمردين، ورغم أنهم هربوا إلا أن جنودنا استطاعوا الإمساك باثنين منهم، ولا شكَّ أنهم سيعترفون عن باقي زملائهم.

شعرت بقلبي ينتفض بقوة داخل صدري وأنا أتخيل أنهم قد يصلون إليها، ولن يترددوا بالطبع في قتلها، رسمتُ ابتسامة مصطنعة وأنا أجيبه بفرحة مزيفة: «رائع، الآن سوف نتخلص من هؤلاء المتمردين ونتمكن من السيطرة على الوضع داخل سبتة».

كنتُ في الأيام السابقة أحاول أن أقنع نفسي أني مهتم بفتاة الصندوق لأنها أنقذت حياتي، لكن الخوف الذي شعرتُ به من أجلها جعلني أدرك في تلك اللحظة أنها احتلَّت مكانًا كبيرًا بقلبي لم أكن أتخيله، حتى إن حياتها صارت عندي أهم من أي شيء آخر أظهرتُ لا مبالاتي، وبقيت لأكمل باقي ساعات مناوبتي وأنا أحترق على الجمر حتى انتهيت، فتوجهت مباشرة إلى حيث كانوا يسجنون هؤلاء المتمردين الذين قبضوا عليهم، وبثرثرة قصيرة مع الحارس عرفتُ منه أنهم حتى الآن يصرون على الصمت رغم كل التعذيب الذي يُمَارس عليهم، كنتُ أعلم وسائل تعذيبهم المريعة، وبالتأكيد مهما حاولا التماسك في النهاية لن يستطيعا الصمود، وبدوري لم أستطع الانتظار فخرجتُ مباشرة نحو بيتها، لم أكن أعرف ما الذي يمكنني قوله لهم عندما فتح لي ذلك الرجل الباب لينظر لي باستغراب، لم أنتظر أن يسمح لي بالدخول فاندفعتُ مباشرة إلى داخل المنزل:

– انتظر، ما الذي تريده؟

قالها الرجل وهو يتبعني إلى فناء البيت، وقفت وقد خرجت تلك الفتاة ومعها فتاة أخرى كانت نفسها التي قابلتها تلك الليلة، عدتُ أنظر إلى الرجل قائلًا: «يجب أن ترحلوا عن هنا بسرعة».

– لماذا؟ هل ستطردوننا مرة أخرى من بيتنا؟ ماذا تريدون منا؟..

قالها بغضب مكتوم لأجيبه: «بل لتبتعدوا عن الخطر»، التفتُّ موجهًا حديثي إلى الفتاة قائلًا: «لقد أخبرتك أني سأساعدك متى أتيحت لي الفرصة لأرد لك الجميل».

اقترب مني وجذب ذراعي لأنظر إليه وهو يسألني باستغراب: «ماذا تقصد يا هذا؟ أنا لا أفهم شيئًا».

أدركتُ أن الرجل بالتأكيد لا يعرف شيئًا عما تفعله الفتاتان لأقول له: «ليس هناك وقتٌ لأشرح لك، لكن يجب أن تعلم أن حياتكم جميعًا في خطر، الشابان اللذان قبض عليهما بالأمس لن يتحملا التعذيب طويلًا، وبالتأكيد يمكن أن يعترفا بأسماء من معهما، الأمر لن يطول، لذا عليكم الاختفاء قبل أن يصلوا إليكم، فأنا حينها لن أستطيع فعل شيء من أجلكم».

– وما الذي يضمن لنا أنك لا تكذب؟

قالتها الفتاة لأخرى لأجيبها: «لو أردتُ بكم سوءًا لبلَّغت عنكم منذ تلك الليلة، فأنا أعرف البيت جيدًا، لكني وفيتُ بوعدي».

عمَّ الصمت على الجميع ونحن نتبادل النظرات المترقبة قبل أن يقطعه صاحب البيت: «أريد أن أفهم، ما الذي يحدث هنا؟».

– لا وقت لدي لأشرح، يجب أن أعود إلى المعسكر قبل أن ينتبه أحدٌ إلى غيابي.

عدتُ مسرعًا لكني لم أكن أعرف أن ماثيو لحق بي بالفعل.

* * *

«عائشة»

كانت ليلة عصيبة تلك قضيناها فبعد أن نفذنا الخطة التي اتفقنا عليها سابقًا ونجحنا في استدراج جنديين نحو الكمين فوجئنا بعدد من الجنود من خلفهما لنتفاجأ أننا نحن من وقع بالكمين، أمسكت بيد أروى وركضنا بسرعة في الوقت الذي اشتبك زملاؤنا مع الجنود، لحسن حظنا لم يتمكن أحدٌ من اللحاق بنا فوصلنا إلى البيت بسلام، بعد ساعات لحق بنا عثمان وأخبرنا أن اثنين من رجالنا وقعا في الأسر، لم ننم تلك الليلة ثلاثتنا، ننتظر اقتحامهم للبيت في أي لحظة حتى حلَّ الصباح لنتفاجأ بذلك الجندي يقتحم البيت ويطلب منا الرحيل، كان أبي يقف أمامنا باستغراب، وما إن غادر الجندي حتى اقترب منا وقد احتقن وجهه غضبًا ليسألنا: «أريد أن أفهم الآن، ما الذي يحدث؟».

لم نجد بُدًّا من أن نحكي له كل شيء وبأننا انضممنا إلى المقاومة لنحارب هؤلاء الغزاة الذين جاؤوا ليخرجونا من أرضنا، تابعتُ ملامحه التي كانت تشير إلى أنه وصل إلى أعلى درجات الغضب، لكنه

ظل صامتًا لم يقل شيئًا حتى انتهينا ليقول جملة واحدة: «يجب أن نرحل من هنا على الفور».

لم تفلح كل محاولاتنا ليتراجع عن قراره، فقد رفض مناقشتنا للأمر وطلب من أمي والبقية بالاستعداد للرحيل، وخرج مسرعًا لا نعرف إلى أين وإن كنتُ أعتقد أنه ذهب ليتم الاستعدادات لخروجنا من سبتة.

دخلتُ غرفتي لأجمع بعضًا من حاجياتي، وأخذت جزءًا من ملابس عمر التي أحتفظ بها، دخلت أروى الغرفة وهي تحمل صندوقًا عرفته على الفور، كان لمجموعة الكتب التي أحضرتها لها لتنسخها في تلك الليلة المشؤومة، وضعته وجلست أمامي وأخرجت من بينها ورقة ما إن نظرت إليها حتى انسابت دموعي، أعادتها إلى الصندوق وهي تقول: «لقد استطعت أن أحافظ عليه».

– سنأخذه معنا بالتأكيد، عمر أخبرني أن ما به كنز من الكتب، لو وصل إليه هؤلاء المجرمون لأحرقوه.

– استسلمتِ للأمر الواقع إذَنْ؟

– ليس أمامنا حلٌّ آخر، أبي لن يسمح لنا بالبقاء، خاصة بعدما علم بما نقوم به، ولا شك أنه سيخبر خالتي فاطمة التي ستؤيد قراره خوفًا على عثمان.

– على كل حال لقد فعلنا ما نستطيع ودافعنا عن أرضنا، ولم يعد باليد حيلة.

كنتُ أشعر بألم كبير وأنا أستعد لأهجر البيت الذي جمعني بزوجي، وكأنه رحل هذا اليوم فقط، أكملت جمع حاجياتي دون أن أتوقف عن ذرف الدموع، لكني استسلمتُ بالفعل لضرورة الرحيل، فلم أكن أريد أن أخسر أبي وإخوتي وأسرتي بعد أن خسرتُ زوجي، سلامتهم كانت الأولى عندي.

* * *

«إدوارد»

عدتُ إلى المعسكر وحاولت أن أتقصى أخبار السجينين، علمتُ أن أحدهما مات بالفعل قبل أن يقول شيئًا، عندها خطرت في بالي فكرة قتل الآخر قبل أن ينجحوا بجعله يقرُّ بأسماء باقي زملائه، سيطرت الفكرة على رأسي فهي الحل الأمثل لأضمن سلامة فتاتي حتى تغادر سبتة إلى الأبد، وإن كنتُ أعلم أني ربما لن أراها مرة أخرى، لكن كان يكفي أن تنجو من الموت.

انتظرت حلول الليل، وتسللت نحو غرفة الحصن حيث يحتجزون ذلك الشاب، أخبرتُ الحارس أن القائد فابيو كلفني باستجوابه، تردد قليلًا لكن الصرامة التي كلمته بها جعلته يفتح لي الباب، دخلتُ إليه وقد جهزت بالفعل طريقة للتخلص منه دون أن أثير الشكوك حولي، أغلقت الباب من خلفي وجلستُ على الكرسي الوحيد الموجود بالغرفة التي كانت غارقة في الظلام إلا من تسلل ضوء القمر من النافذة الصغيرة أعلى الغرفة، بينما كان الشاب معلقًا من معصميه، يتدلى رأسه المليء

بالجروح والكدمات على صدره، كنتُ أعلم أن الحارس يراقبني بحذر، لذلك كان يجب أن أتصرف بهدوء شديد، نظرتُ إلى الشاب قائلًا:

– أما زلتَ تصرُّ على الصمت؟.. إن أردت الحفاظ على حياتك أخبرني بأسماء من كانوا معك.

رفع رأسه ينظر إليَّ بعينين مرهقتين، قبل أن يجيبني بصوت بالكاد استطعت سماعه: «لا أعرف شيئًا، لا تتعب نفسك معي».

وقفتُ واقتربت منه لأهمس له: «أعتذر منك، ولكن يجب أن تموت حتى ينجو أصدقاؤك».

نظر إليَّ بصدمة لأقول بصوت حرصت على أن يسمعه الحارس: «لا تكن غبيًّا، فنحن سوف نصل حتمًا إلى جميع هؤلاء المرتزقة وحينها ستكون أنت الخاسر».

تحركت بحذر شديد وأخذت كأس الماء الموضوعة على الطاولة، وضعت بها بضع قطرات من السم الذي كنتُ أخفيه بين ملابسي ثم ناولته له قائلًا: «اشرب بعض الماء، أنت تحتاج إليه لاستعادة قوتك...».

ثم عدتُ لأهمس له: «أنا آسف، ولكني لا أريدك أن تضعف وتستسلم لهم».

ناولته الماء ليشربه دفعة واحدة وعيناه تراقباني بدهشة، وما إن انتهى حتى ألقيت الكأس على الأرض بقوة لتتهشم إلى قطع صغيرة وأنا أصرخ به: «أيها الأحمق، أنت لا تعرف مصلحتك، سوف نقطع جسدك قطعةً قطعة حتى تتمنى الموت ولا تناله».

ثم تحركت لأغادر الغرفة وأنا واثق أنه بعد دقائق قليلة سينتهي الأمر، عدتُ إلى غرفتي ولم أنتظر طويلًا، فسرعان ما سمعت صوت حركة الجنود لأبتسم بارتياح، الآن أصبح لديهم وقت أطول حتى يغادروا بأمان.

غادرتُ غرفتي بل المعسكر بأكمله وتحركت نحو المدينة قاصدًا منزلها مرة أخرى لأبلغهم بما حدث، تحركت سريعًا لكني انتبهتُ إلى صوت خطوات تلاحقني، توقفت والتفتُّ فلم أجد أحدًا، غيَّرت طريقي وبدأتُ أنعرج بين الأزقة بخطوات سريعة حتى تأكدتُ من أن الخطوات تتبعني بالفعل، فاتجهت لأغادر المباني نحو أطراف المدينة الخالية، حتى لا أعطي فرصة لملاحقي ليجد مكانًا يختبأ فيه، ثم التفت بطريقة سريعة لأتفاجأ بماثيو ورائي، تقدمتُ نحوه وأنا أبتسم باستهزاء:

- كنتُ واثقًا أنه أنتَ.

- وأنا متأكدٌ من أنك من قتل السجين.

عدتُ لأتقدم نحوه حتى لم يبقَ بيني وبينه سوى خطوة واحدة:

- أنتَ تريد أن تجعلني خائنًا لتتخلص مني، ألَّفت حكاية من وحي خيالك وصدقتها.

- وما مصلحتي في التخلص منك؟

- لأنك كلما نظرت بوجهي تذكرت دناءتك وخستك، تذكرَّت كيف خنتَ ثقتي بك وسرقتَ حبيبتي.

– أنا لم أسرق أحدًا أنا ولوتيسيا وقعنا في الحب، وهذا ليس ذنبنا.

ابتسمتُ بسخرية وأنا أرَى ملامحه المضطربة ويديه المرتجفتين، قبل أن أقول له بنبرة هازئة: «وقعت في حب الفتاة التي تعرف أن صديقك يحبها يا للقدر؟!».

– وهل كنتَ تريدني أن أتركها فقط من أجلك؟

قالها بغضب وقد احمرَّ وجهه، لكني لاحظتُ يده التي تتحرك على خصره، فأسرعتُ لأستل سيفي في نفس الوقت الذي وجَّه سيفه نحوي، قلتُ له بنفس اللهجة الساخرة: «تريد قتلي، وبالطبع سوف تقول إنك تخلصت من خائن».

– أجل...

قالها وعيناه تلمعان بكره شديد، ثم اندفع نحوي لنبدأ المبارزة لم تكن مواجهته بالسهلة فماثيو قوي بما فيه الكفاية، لكن قوتي كانت في طاقة الثأر التي جعلتني أقاتل بشراسة واستماتة لتكون النهاية لصالحي، وقفت أنظر إلى جثته الملقاة عند قدمي، لا أنكر أني شعرت بألم لما آلت إليه صداقتنا، ماثيو كان صديقي الوحيد الذي أثق به، ولم أكن أشك لحظة واحدة أنه يمكن أن يغدر بي يومًا، وحتى لحظة المواجهة بيننا لم أكن أفكر في أن أقاتله أبدًا، كل ما كنتُ أريده هو أن يخرج من حياتي إلى الأبد، لكنه هو من أراد هذه المواجهة، ربما لأن شعوره بالذنب هو الذي غذى رغبته في التخلص مني حتى يتخلص من أي شيء يذكره بدناءته، تركته مكانه وعدتُ مسرعًا لأكمل ما خرجتُ من أجله،

رافقتهم حتى مخرج المدينة ثم قفلتُ عائدًا، لكني ما كدتُ أقترب من المعسكر حتى وجدتُ ريكاردو بانتظاري مختبئًا في أحد الأركان عند مدخل المعسكر، جذبني من ذراعي ليخبرني أن خبر موت ماثيو وصل إليهم، وأنهم يتهمونني بقتله كما يتهمونني بقتل السجين، ونصحني بالهرب فلم أتردد في تنفيذ نصيحته.

* * *

الفصل الأخير

طنجة 2023

توقفتُ عن القراءة بعد أن وجدتُ نفسي أصل إلى آخر صفحة، بحثتُ بين باقي الكتب عن بقية الحكاية لكني لم أجد شيئًا، تركتُ كل شيء عندما عادت عَيْشَة للوقوف أمامي مجددًا وسألتها: «هاجرتم جميعًا نحو طنجة، وهذا البيت كان منزلك؟».

رفعت كتفيها وتحركت داخل الغرفة بخطوات وئيدة، ثم عادت للوقوف والالتفات نحوي قائلة: «لا يهم، هل رحلنا عن سبتة أم لا؟.. ولا يهم إن كنَّا أصلًا عشنا بسبتة يومًا ما؛ ولا يهم أين انتهى بنا المطاف، فنحن لم نكن سوى عابري سبيل، أما سبتة الباقية فقد ضاعت، ولم تعد منذ ذلك الوقت».

بدأت أشعة الشمس تتسلل من بين شقوق النافذة، توجهتُ نحوها لأنظر إلى الشارع الذي لا يزال ساكنًا، عدتُ ألتفت نحو عَيْشَة لكنها كانت قد اختفت، حتى الغرفة تغيرت ملامحها بالكامل، توقفتُ بصدمة أنظر إلى الغرفة الواسعة الخالية تقريبًا، باستثناء سرير متهالك مع مرتبة مهترئة مغطاة بالغبار، بجانبه طاولة خشبية يعلوها مصباح زيتي صدئ وبقايا كتاب قديم وعلى الأرض المتربة كانت حقيبتي ملاقاة، إلى جانبها الكتب والمخطوطات القديمة التي حصلتُ عليها في اليوم السابق، تحركت مغادرًا الغرفة لأجد نفسي وسط بهو كبير خالٍ

تمامًا من أي شيء، ناديتُ عَيْشَة لكني لم أتلقَّ أي جواب، توجهتُ نحو الغرفة الثانية حيث قابلت تكمارت لكنها أيضًا كانت خالية سوى من بعض الصناديق المهشمة، درتُ في جميع أنحاء المنزل لكن لا شيء، كان الضوء قد بدأ ينتشر أكثر لتتضح معالم البيت أمامي، خَمَّنتُ أنهما اختفيتا مع إطلالة النهار، جمعتُ حقيبتي وأوراقي واتجهتُ لأغادر البيت ولا أعرف إن كان ما عشته هذه الليلة حقيقة أم مجرد حلم، لكن أيًّا كان فقد خرجتُ من البيت بمشاعر مختلفة عن تلك التي دخلته بها.

* * *

أخذتُ مكاني داخل القطار وأنا أشعر بتعب شديد، وصداع يضرب رأسي بقوة، أغمضتُ عينيَّ باحثًا عن غفوة قصيرة قبل أن أصل إلى وجهتي، لكن رائحة عطر مميز جعلتني أستفيق باحثًا عنها، فجأة جلستُ صاحبة العطر بجانبي، نظرتُ إليها لم تكن سارة كما توقعت، كانت امرأة أخرى بملامح مختلفة لكنها قابلتني بابتسامة مجاملة وهي تقول:

– يا لها من مصادفة.

نظرتُ إليها باستغراب، فرفعت حاجبيها وهي تقول: «لا تقل لي إنك نسيتني، لقد تقابلنا بالأمس فقط!».

ابتلعتُ ريقي وأنا أحاول أن أخفي ارتباكي لأجيبها وكأنَّ شيئًا لم يحدث قائلًا: «لا بالتأكيد أتذكرك، أنا فقط مستغرب من هذه المصادفة العجيبة».

– أنتَ مُحق، نلتقي في رحلتي الذهاب والعودة وتكون مقاعدنا في الرحلة متجاورة.

انتبهتُ إلى تلك الابتسامة التي ارتسمت على شفتيها، فأخرجتُ هاتفي واتصلتُ بزوجتي لأخبرها أني في الطريق وأعتذر عن تأخري في الاتصال بها بسبب نفاد شحن هاتفي، كنتُ أعلم أنَّ مرافقتي سوف تفهم قصدي من المكالمة في تلك اللحظة بالذات، وبالفعل لم تمض سوى دقائق حتى وجدتها تغادر المقعد، لكن مع ذلك ظل السؤال عالقًا برأسي كيف رأيتها بالأمس بصورة مختلفة عن اليوم؟ هل كنتُ أتخيل ملامح عَيْشة قَنْدِيشة في كل من أقابلهم، أم أنها بالفعل كانت بملامح مختلفة؟ اتكأت على الكرسي وأنا أتابع الطريق التي تتغير ملامحها مع الحركة السريعة للقطار، أعلمُ أني لن أحصل على أجوبة لأسئلتي، ولن أستطيع معرفة الحقيقة إلا إذا قابلتها مرَّة أخرى وإن كنتُ أشك أن ذلك يمكن أن يحدث من جديد.

* * *

بعد أشهر

تراجعت إلى الخلف لأتكئ على ظهر الكرسي وأنا أنظر نحو شاشة الحاسوب التي تعرض الصفحة الأخيرة لروايتي التي اعتكفتُ على كتابتها منذ عودتي من رحلتي العجيبة نحو طنجة، شعرتُ بأنفاسي تتسارع وأنا أعود لأتقدم نحو الحاسوب وأضع أصابعي على لوحة المفاتيح لأكتب المشهد الأخير وأودِّع شخصياتي التي عشتُ معها أيامًا

وليالٍ طويلة، وأخدتني في رحلة إلى الماضي البعيد اعتدتُ عليها وألفتها حتى صارت جزءًا مني، ويصعبُ عليَّ وداعها اليوم:

« **إدوارد:**

لم أكن أتخيل عندما غادرتُ لشبونة، أني لن أعود إليها مرة أخرى بإرادتي واختياري، هربتُ من سبتة بعد أن أدركتُ أن بقائي فيها معناه موتٌ محقق، ولم أجد مهربًا سوى أن ألحق بفتاتي وعائلتها لأرافقهم في رحلتهم نحو إحدى المدن المغربية، تعرفتُ عليهم أكثر في خلال أيام الرحلة الطويلة، وصرتُ صديقًا مقربًا إلى الجميع حتى وصلنا إلى طنجة لنستقر بها، تغيرت حياتي بشكل كامل، وطوال الوقت كنت أراقب من تشابكت خيوط أقدارنا منذ تلك اللحظة التي تقابلت فيها نظراتنا أول مرة، في ذلك اليوم عندما علمتُ أنها سترحل عن طنجة نحو فاس مع شقيقها، شعرت أن الكون كلَّه توقف، لم أستطع تخيُّل حياتي دون أن تكون فيها عندها، قررتُ أن أصارحها، انتظرت اللحظة المناسبة عندما خرجت إلى السوق، لم أهتم بأنها لم تكن بمفردها بل كانت مع زينب حينما أوقفتهما بلسان متردد وقلب يكاد يتوقف خوفًا من رد أتوقعه، أطرقت برأسها واحمرت وجناتها خجلًا، لكنها عادت تنظر إليَّ بعينين آسفتين وهي تقول: «لا يمكن أن أقبل طلبك إدوارد».

– أعرف أني لا أملك الشيء الكثير لأقدمه لكِ، فأنا بالكاد أحصل على قوت يومي، ولكني أعدك...

قاطعت حديثي قائلة: «ليس من أجل ذلك، وما كنتُ لأرفض طلبك لولا أنه يستحيل تحقيقه، فأنتَ على غير ديني».

نظرتُ إليها وقد لاح لي طيفٌ من أمل وليد قبل أن أجيبها بسرعة: «أنا مستعدٌّ لأغير ديني من أجلك».

– لو غيَّرت دينك من أجلي فربما ترتد إذا ما اختلفنا يومًا، لكني أريدك أن تفعل الشيء الذي تؤمن به، سأكون سعيدة بالطبع إذا ما هداك الله إلى الإسلام، فأنت تستحق كل الخير.

تركتني أقف مكاني وغادرت وكلماتها يتردد صداها بداخلي، فأنا بالفعل قد تغيرت نظرتي نحو المسلمين منذ أن عاشرتهم وعلمت طيب أخلاقهم والتزامهم بدينهم وابتعادهم عن كل ما هو خبيث، تلك الليلة طلبتُ من عثمان أن يقرأ لي من الكتب التي تتحدث عن الإسلام، لأني أريد معرفة الكثير عنه فأحضر لي المصحف الشريف وأخذ يرتل لي منه ويشرح لي ما استعصى عليَّ فهمه، لم تكن سوى أيام انكببتُ فيها على القراءة وسماع الشرح من السيد منصور ومن شيخ المسجد الذي أخذني إليه عثمان حتى شعرتُ أن روحي تطهرَّت، وغمرتني راحة وسكينة لم أشعر بهما من قبل، أعلنتُ إسلامي وغيرتُ اسمي واخترتُ أحب اسم لدي «محمد».

اليوم وبعد مرور أكثر من اثنين وثلاثين عامًا على زواجي من أروى التي تمسكت بقبولي زوجًا لها، رغم رفض شقيقها الذي أراد لها زوجًا أكثر غنًى مني، ما زلتُ أراها كما رأيتها أول مرة، وما زال قلبي يرقص طربًا كلما ابتسمت لي برضًا.

غادرتُ لشبونة شابًّا ضائعًا مزقه حب امرأة تخلَّت عنه عند أول فرصة، وكانت أروى هي المرسى الذي استقبل سفينتي المرهقة وأنارت لي دروب حياتي المظلمة، وقفت بجانبي في أصعب الأوقات، وكانت دومًا سندي في كل خطوة خطوتها، ومع مرور السنين لا تزال مشاعري هي نفسها بل ازداد حبي لها أكثر وأكثر، لا أعرف من سيقرأ حكايتي لكني واثق من أنه سيدرك منها الفرق بين الحب الزائف الذي سرعان ما يتلاشى، وبين الحب الحقيقي الذي يزداد قوة مع مرور الزمن ويجعلنا نشعر بالأمان والطمأنينة، ويعطينا القوة لمواجهة الحياة معًا».

«تمت»، كتبتُ الكلمة التي بقدر ما تسعدني بقدر ما تحزنني لأني بعدها أعلم أني فارقت شخصياتي الحبيبة، رفعتُ رأسي عن الحاسوب بعدما سمعت صوت الباب لأجد منى تقف وعلى وجهها ملامح الضجر، تقدمت نحوي وقبل أن تتحدث كنتُ أقول لها: «لقد انتهيت».

– أخيرًا، مبارك عزيزي ستكون رواية رائعة، وأنا واثقة أنها ستحقق لك النجاح الذي ترجوه.

– آمل ذلك.

اقتربت مني وأخذت ورقة المخطوط القديم التي أضعها بجانبي ثم سألتي: «وضعت نفس النهاية التي كتبها إدوارد؟».

أومأتُ برأسي وأنا أجيبها: «أجل، لحسن حظي أني انتبهتُ إلى أنه أكمل قصته على نفس الورقة التي بدأها عليها، لم أرغب في تغيير نهايته، أردتُ أن أكون أمينًا على حكايته».

– وعَائشة؟

– لم يأتِ على ذكرها، ولا أعرف أين انتهى بها الحال.

– ما زال هناك سؤال يحيرني، إذا كان إدوارد لم يذكر عَيْشَة باسمها في مخطوطته فهل كانت بالفعل ضمن حكايته؟ وهل عاشت بسبتة؟

– تقصدين أنها ربما لم تكن موجودة، وأنها أوحت إليَّ بذلك فقط في تلك الليلة؟

– لا أعرف، ولكن هل قابلتها حقًّا؟

قالتها منى وهي تبتسم لي بمشاكسة.

– ربما، ولأني أعرف أن أحدًا لن يصدق حكايتي، قررتُ أن أتخلى عن التحقيق الصحفي وأنقل الحكاية إلى رواية أدبية.

– أنا أصدقك.

– وهذا يكفيني.

مدت منى يديها لتجذبني من ذراعي وهي تقول: «بهذه المناسبة سوف أدعوك لتناول العشاء في أفضل مطعم في المدينة».

– بالطبع على حسابي الخاص.

– بكل تأكيد عزيزي.

نهضت لأغادر، لكني توقفتُ عند الباب عندما تذكرت الحاسوب المفتوح، فطلبت من منى أن تسبقني لتغير ملابسها حتى أغلقه وألحق

بها، التفتُّ عائدًا إلى مكتبي عندما شعرت بنسمة هواء باردة تداعب وجهي، لتسري في جسدي قشعريرة، توقفتُ ودرتُ ببصري في أنحاء الغرفة، فجأة ظهرت أمامي بثوبها الأبيض الناصع وشعرها الأسود الطويل وعلى وجهها ابتسامة جذابة زادت من جمالها الفائق، ابتسمتُ وأنا أتقدم نحوها قائلًا: «اعتقدتُ أني لن أركِ مرة أخرى، وربما كان ذلك اللقاء الذي كان بيننا ضربًا من الخيال، فربما أنتِ بالفعل مجردُ أسطورة خيالية حتى الآن لا أحد استطاع تأكيد حقيقتها».

- الأساطير والخيال، أحيانًا يكونان أكثر حقيقة مما نتوقع.

- ولكن أخبريني، هل كنتِ حقًّا بسبتة؟ ألم تكن عَيْشَة قَنديشة موجودة بأزمور[1] حيثُ كانت تقاوم المستعمر البرتغالي؟

- ربما؛ فعَيْشَة قَنْدِيشَة ليست شخصًا واحدًا، فثمة عائشات كُثُر عائشة الكونتيسة ذات الأصل الأندلسي، وعائشة مولات الواد أو مولات المرجة الجنية التي تسكن المستنقعات والغابات ولا تظهر إلا ليلًا لتستدرج الرجال إلى وكرها فتمارس معهم الجنس قبل أن يصيروا وجبة لها، وعائشة السودانية تلك المرأة الورعة التي كانوا يزورونها للتبرك بدعواتها، ربما عشتُ يومًا بسبتة أو بمنطقة أزمور أو بأغمات أو بأي مكان آخر.

---

(1) أزمور مدينة مغربية تقع على ضفاف نهر أم الربيع والمحيط الأطلسي، تقع بين مدينتي الدار البيضاء والجديدة.

- لا أفهم قصدكِ؟

- عَيْشَة ليست أسطورة للغواية والانتقام فقط كتلك التي تخص تكمارت نيسمضال، بل هي أسطورة للمقاومة بالدرجة الأولى، ستجدها في كل مكان دخلته أقدام الاحتلال ستجدها في أعين كل امرأة ورجلٍ وطفل يدافع عن أرضه وعرضه، ويثأر لهما من محتل غاصب، تعلمُ لمَ اعتقدوا أنني جنية؟ لأنني كنت أقاتل المحتل بشراسة وقوة، وعندمَا فشلوا في مواجهتي اختلقوا قصة الجنية وسحرها الذي يجذب إليَّ الرجال فأسحبهم نحو مصيرهم، لقد قاومت الاحتلال وصددت هجماته وحاربت بكل شجاعة وذكاء حتى عجز المحتل عن التغلب عليَّ، فظنوا أني من عالم الجن بعدما عجزوا عن الوصول إليَّ.

أومأت برأسي موافقًا على كلماتها، قبل أن أسألها:

- ما زلتُ أتساءل، لِمَ اخترتني أنا بالذات؟

ابتسمت بهدوء قائلة: «لأنك صاحب قلم، والقلم يعيد تشكيل الحكايات ويصنع واقعًا أفضل مما نتصور».

فتحتُ فمي لأجيبها، لكنها فجأة تلاشت في الهواء واختفت من أمامي وعيناي معلقتين على المكان الذي اختفت فيه، وأنا أسمع صوتها يتردد بأذني كأنه قادم من مكان بعيد: «شكرًا لأنك أعدت ذكراي إلى الحياة مرة أخرى».

تمت بحمد الله وفضله

عطاوي
للإبداع الفني